الكاتب العمومي

الكاتب العمومي «العرضحالجي» في المجتمعات التقليدية، هو ذلك الشخص الذي يكتب الرسائل، طلبات الاستدعاء ومجمل أشكال الصيغ القانونية، بدلاً من الذين لايعرفون كتابتها.

وهو بالنسبة للطاهر بن جلّون، ذلك الشخص الذي يعير قلمه وصوته وذاكرته لجميع ذويه، ممن لايملك منهم موهبة الكلام.

إنها رواية تستدعي ذكريات الكاتب وخيالاته وتداعياته عن البلاد المسبيّة والمُهانة، حيث ترتسم ملامح بعض المدن من المغرب الحقيقي أحياناً، والمتخيَّل أحياناً أخرى. وتتحدد تجربة الفقر والعنف والقمع في بلاد لاتعرف عن الديمقراطية إلا اسمها.

إن الطاهر بن جلّون يغوص في أعمق تناقضات ونوازع وصراعات النفس البشرية، لاثماً جرح الوجود بنصٍ إبداعي ومخيلة متألقة حارة ولغة ساحرة.

الناشر

الطاهر بن جلون

الكاتب العمومي

رواية

ترجمة: علي باشا

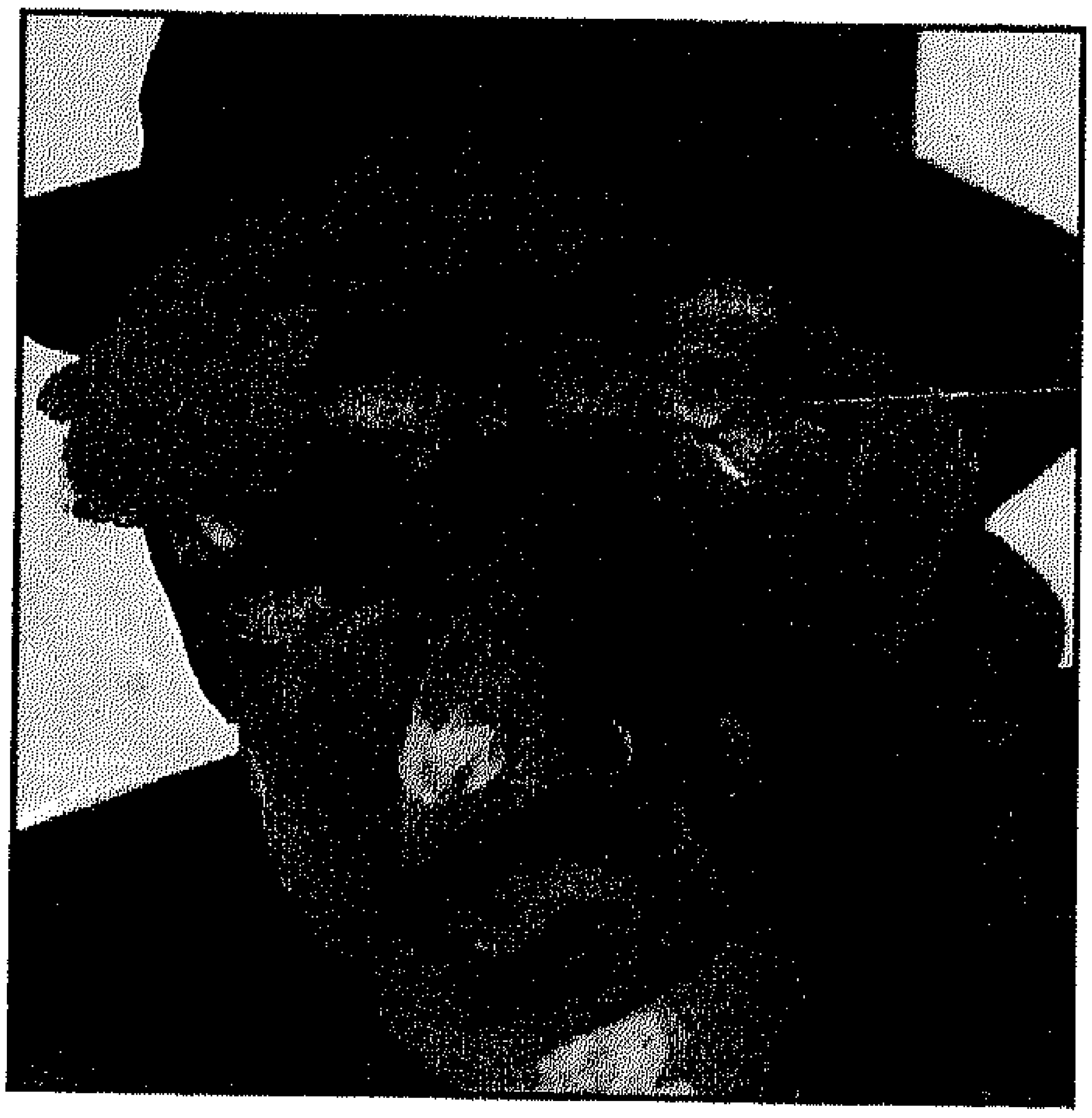

Bibliotheca Alexandrina
00118691

الكاتب العمومي

* الطاهر بن جلّون
* الكاتب العمومي
* ترجمة علي باشا
* جميع الحقوق محفوظة للدار
* الطبعة الأولى 1998
* الناشـــــــــر : ورد للطباعــة والنشــر والتوزيــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبيـة : حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لـوحـــة الـغـلاف : د. أحمد معلّا
* الإخـــراج الفني : دار الـحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053 ص. ب: 4490
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

الطاهر بن جلون

الكاتب العمومي

رواية

ترجمة: علي باشا

عنوان الكتاب الأصلي:

L’ÉCRIVAIN
PUBLIC

«في «فاس» عندما كانت تحدث مشاجرة، كانوا يختارونني كحكم وقاضٍ، بسبب كَوْني طفلاً مريضاً مازال هشاً. كنت أُحصي النقاط وأعدّها وأفصّل بين المتخاصمين وأبعدهم عن بعضهم. وفي ذلك الوقت كانت تنهال الشتائم. وكانوا يتبارون في زيادتها وفي شدّة عنفها وبذاءتها. كنت أحب أن أردد بأعلى صوتي في الشارع الخالي من المارة جميع الشتائم التي يختلط فيها الجنس، الدين والأهل.

ومازال يحدث لي أن أفكر بـ «فاس» كمن يفكر بقريبٍ له رحل عن هذا العالم. وهذا، حتى ليس عبارة عن ذكرى، عن نوع من القضاء والقدر، أو صورة محاها الزمن. فالمدينة انتقلت من مكانها. وبقيت مقبرة «باب الفتوح» التي تمرّ بها ظلال أشخاصٍ باحثةٌ عن قبرٍ مجهول. تضع عليه غصناً من الغار وتتلو سورةً من القرآن الكريم».

اعترافات الكاتب العمومي

سأكتب هذه القصة بصوت منخفض متوخيّاً التفرّس في الصورة المشوّشة التي تبدو في المرآة. فالأمر يتعلق بشخص أعرفه جيداً، وقد عاشرته زمناً طويلاً. لم يكن صديقاً لي، بل أحد معارفي. إنه حضور لم أكن حذراً منه بما فيه الكفاية. كان مظهره الغامض مثيراً، إنه شخص يظل طيلة الوقت كأنه في مكان آخر. فهو دائماً على عجلة من أمره. لايكاد يصل حتى تراه على أهبة الرحيل.

لقد حدّثني بين رحلتين، بين حبّين. لم يشأ أن أسجّل أية معلومات عمّا حدّثني به. على أية حال، ليس في حضوره. وقد احتفظت منها في ذاكرتي بما استطعت. لم يكن ذلك شيئاً كثيراً. وقد سمحت لنفسي بإعادة ترتيب ماتذكّرته أو حتى بتلفيق بعض الوقائع والأحداث، وهذا عمل لايتسم بالاستقامة الشديدة، لكنني كنت أتصرّف كأنّ لي ثأراً آخذه. أضف إلى ذلك، بأنني واثق أنّ مارواه عن طفولته كان كله من نسج الخيال. إذ أنّ الولد المريض يعتاد بسرعة على التخيّل والتخريف. وقبل أن أكتب، عمدت إلى تفحّص عناصر بعض الذكريات. لم يكن هنالك القليل من الأكاذيب ولم تكن دائماً لمصلحته!

إنها حالة غريبة! فلولا أقْنِعَته لم يكن شيئاً يذكر، أو بالأحرى، بلى، إنه رجلٌ بين الرجال، يمكن استبداله بأيٍّ منهم. لقد علمت،

لكثرة ما أصغيت إليه وهو يتكلم، أن وجهه يربكه وهو يحاول أن يزيحه من مكانه ليضعه على حجر في أعلى إحدى الصخور.

وقد أرسل لي مؤخراً رسالةً من جزيرة «كسيوس» اليونانية:

صديقي العزيز:

لقد شئت بكل طيبة خاطر أن تكون الكاتب الذي يدوّن ما أمليه عليه، فأنا أشكرك على ذلك. الآن كل هذا أصبح بعيداً عني، وجميع ما كتبته لايهمّني. افعل به ما تريد. لكن مهما كان الأمر، فإني أودّ أن أوضح أنّ القصص التي سردتها لك لاتشكّل مايسمى سيرة ذاتية. إنها مجرّد قصص لاأكثر ولا أقل. رويتها لك في الصباح الباكر، بدافع من الضعف بعد ليالٍ من الأرق والحيرة، فلا تأخذها على محمل الجد. وإذا نشرتها فلا يجب عليك أن تشعر أنك ملزم بالدفاع عنها تجاه الأشخاص المعنيين أو الذين لهم علاقة بها.

وإذا كان عليك أن تختار لها عنواناً فسيكون العنوان المناسب: «أقاصيص». ولكني أعتقد أنه قد سبق استعماله كثيراً. لذلك عليك أن تجد لها عنواناً موجزاً، رمزياً، يشير إلى لغز معيّن. لأن ذلك يصبح مدعاةً للتسلية. على أية حال، يجب أن تتحاشى العناوين الوقورة والمأساوية. أو أن تطلق عليها، بدلاً من ذلك عنواناً بسيطاً، موجزاً ومحتشِماً. بل إليك عنواناً لن يكون سيئاً: «سفاهات».

أنا في جزيرة «كسيوس». ليس لي عنوان. أنا لاأختبئ، بل أنسى نفسي.

أنا لك بكل مودة.

حاشية: «جميع الحقائق ضدّنا»، وكذلك الأمل.

إذن ليس هنالك مايمكن أن نحصل عليه من ذلك.

فهل تستطيع، من فضلك، أن تبرز بوضوح هذه الكلمات:

«أغمس الريشة في حبر روحي واكتب!» د.ت.

أحبّ أن أعرف أنّ ذلك بعيد ولايمكن الوصول إليه. فأنا،

باعتباري كاتباً عمومياً، كثيراً ما حلمت بالدخول في حياة أحد الناس السريّة وتشويش الذكريات إلى أن أصنع منها مرآة جديدة لايعرف أحد فيها أحداً.

كان يأتي كل صباح، يدخّن غليوناً يحشوه بالتبغ الانكليزي - وهذا مايسبب لي الغثيان، فأنا لاأتحمل دخان التبغ ولاأحب الناس الذين لايجيدون تدخين الغليون - وأثناء سيره في الغرفة الصغيرة التي كنت أعيش فيها بمفردي، كان يتحدّث، أو بالأحرى يُملي مايقوله. في ذلك الوقت كنت أرسم. لقد أولاني ثقته، وأعتقد أنه أخطأ في الأمر. فعندما كنت أعمل كاتباً عمومياً عند مدخل حي «المدينة» في «مراكش»، كنت ألفّق في أغلب الأحيان الرسائل التي كان الناس يملونها عليّ. لهذا السبب، لم أستطع متابعة العمل في هذه المهنة زمناً طويلاً، بل لقد ضربني أحدهم، ذات مرة، بعد أن طلب مني أن أكتب رسالة لزوجته التي طردها لتوّه، ينذرها فيها بأن تردّ له المجوهرات والأولاد. وقد أثارتني غطرسة ذلك الشخص، فكتبت عكس مايشتهي، وضمّنت الرسالة بعض عبارات الاعتذار. كان ذلك أقوى مني، فأنا أحب أن أتولى الدفاع عن المظلومين.

لقد حذّرت مستخدِمي. واعترفت له بأنّي أميل إلى تلفيق الأساطير وحبك النهايات. فسخر مني ولم يبالِ بذلك، لم يصدّق أني أستطيع الاستيلاء على قصصه. أما أنا فلم أحترم الترتيب الزمني الذي حدثني بموجبه. إذ تدخّلت عدة مرات لإجراء التنسيق ولإضافة بعض التفاصيل المثيرة التي لم يكن يرغب بإذاعتها. فقد رفض ذكر أسماء النساء اللواتي تحدّث عنهن في هذه القصص. وأملى عليّ، ذات يوم، هذه الفكرة فقط، التي أخذها عن «جو بوسكيه»: «إذا كانت الحياة خزياً وفضيحة بالنسبة للعقل، فياله من أخرق، ذلك الذي يريد أن يفهم امرأة ويوفّق بين عواطفها المتناقضة، عندما يكون كل شيء يدعو للتأمل فيها وفيه عَبْرَ تنافُرِهِ ».

عندما أعيد قراءة مجمل ماكتبت، أعترف أني لاأجد نفسي بين ما قال لي ومالفّقته. وذلك أفضل لحسن الحظ فأنا أعرف أن النساء

ترتبط بالمدن، وبالبلدان. لقد عملت كل مابوسعي لكي لانضلّ الطريق عبر الحنين، وتبكيت الضمير وفترات الصمت الطويلة. وأنا حذر ومتكتّم، أقلّص دوري ونفسي عندما يصبح الاعتراف مؤلماً. فقلبي هشّ ودموعي سريعة الانهمار. ولم أتخلَّ عن عملي كمحرر وناسخ، لكني أظلّ مجرّد راوٍ، وحتى لو ارتجفت يداي، فإني أظلّ جالساً ومصغياً.

وجدت عنوانين: الأول شاعري، ربما وجده الناشر غير مناسب: «همسات الربيع عبر شجرة الليمون في الباحة». وهذا يبدو يابانياً! فليس في هذه القصة همسات ولاربيع. إنما هو يذكر في وقتٍ ما، شجرة ليمون هزيلة في وسط باحة البيت الذي ولد فيه بمدينة «فاس». أما العنوان الثاني فلا يبدو جدّياً: «الرجل الذي يتكلم بشكل أسرع من بديله» وهو يزعجني قليلاً، لأنَّ الأمر يتعلّق بي، إذ كان عليّ أن أركض عدة مرات كي أحصّله عبر هذيانه وهزائمه.

وهذا يفسّر وجود بعض المساحات البيضاء التي ملأتُها فيما بعد. في كل الأحوال، فإنه سيصاب بخيبة الأمل، وسيصاب بها أيضاً الأشخاص الذين تحدث عنهم. أمّا أنا فقد سبق لي أن اتّخذت بعض التدابير. لقد هُزمت مرةً. فانتقلت من مسكني. ليس لي صندوق للرسائل في البريد، وطلبت من البواب ومن الجيران عدم إعطاء عنواني لأحد. وإذا ساءت الأمور، فإني سأغيّر اسمي، وبلادي، وربما غيّرت حتى وجهي. نصيحة أخيرة للقارئ: «عليك ألّا تشعر أنك ملزم بقراءة هذا الكتاب بانتظام من أوله إلى آخره. فبإمكانك أن تتصفّحه، وتقرأ فصلاً في وسطه، ثم تعود إلى بدايته... فأنت أكثر حرّية مني».

I

لم أتشاجر أبداً مع أحد ولاحتى مع أخي. إن توجيه الضربات، وتلقّيها، والتحرك لتحاشيها للدفاع عن النفس، والاندفاع بالجسم إلى الأمام والمجازفة بتشويهه، التدحرج على الأرض في الغبار وبين الأحجار والتسبّب للنفس بالألم، العراك بكل قوة للتغلّب على الخصم والتفوق عليه، والنهوض متصبباً بالعرق، منفعلاً وفخوراً بالفوز، والسير بكل ثقة، دون الالتفات إلى الوراء والاحتفاظ بالقميص الممزّق ومسح الدم، الذي لابد أن يسيل من الأنف، بشيء من عدم الاهتمام، ثم الانصراف كالمنتصر تحت أنظار الأولاد المعجبين، إن كل هذا لم يسبق لي أن عرفته مطلقاً.

ولأني كنت ولداً مريضاً، فقد كنت أحلم بالحياة. وقد أمضيت أكثر من ثلاث سنوات مستلقياً على ظهري في «سَبَت»[1] كبير أنظر إلى السماء وأتفرّس في السقف. كنت أملّ بسرعة من الغيوم، وأفضّلُ السماء الصافية الخالية منها. أمّا السقف المصنوع من الخشب المدهون، فلم يكن يثير أحلامي كثيراً. كنت أنظر إليه دون أن أراه. ولكثرة ماكنت أحدق في زخرفته ونقوشه، فقد كنت أبتدع وأتخيل نقوشاً أخرى، غيرها، أكثر تعقيداً، وبخاصّة أقلّ منطقيّة. كانت عيناي تكدّس تلك الدوافع المتكررة والمرتجفة، كنت أبعثرها،

---

(1) السَّبَت: سلة كبيرة ومسطحة.

وأشوّش ترتيبها وتناظرها. كنت أوجد على مدى النهار إشاراتٍ متحركةً وضبابيّة، أجمّعها في فوضى غريبة وأضعها بعد ذلك على نقوش اللوحات الملصقة على الجدران. يحدث لي أن أحتفظ بها أحياناً وأصطحبها في نومي كتباشيرٍ للأحلام. فقد كانت الليالي طويلة وغنية بالنسبة لي. وكنت أجتازها بتؤدة وبطءٍ وعلى رؤوس أصابع قدميّ، كنت أرقص على حبل رفيع، يظل هو نفسه دائماً، لايتغير، هو الذي اعتدت أن أمدّه بين الغسق والفجر. وكانت بهلوانياتي تتخلّلها المخاطر في معظم الأحيان. وأظل المتفرّج الوحيد على نفسي. كنت أشعر بالخوف وهذا أخذ يتيح لي بعض المتعة. كنت أركض على الحبل، كي ألحق بإحدى الصور، باسطاً ذراعيّ ويديّ ومقلّصاً ساقيّ اللتين كانتا ترسمان نصفَي دائرتين: وكانت تلك الحركات السريعة والمحدّدة تترك آثاراً في الهواء، وخيوطاً من الضوء، تارة خضراء وتارة صفراء. وتلك الحركات البهلوانية وأنا وحيد عبر الظلام، كانت تشغلني وتملأ فراغ نفسي، فأكرّر التمرين الواحد نفسه عدة مرات، كما لو أنني أستعدّ للرقص أمام جمهور متنوّر ومتشرّد. لم أكن أتحمل الانزعاج عندما أسير على الحبل وكنت أريد أن أبقى متألقاً، وإذا قسَت عليّ الظروف وأرادت أن تلقي بي إلى الأرض أو في «السَّبَت» فأنا، وأنا وحدي الذي أقرّر ذلك. وفي كل ليلة كنت أزيد من أهمية المخاطرة بزيادة ارتفاع الحبل. وفي بعض المرات أحتفظ بارتفاع الليلة السابقة نفسه، لكني أمارس عند ذلك تمارينَ أكثر خطورة وهكذا فقد ألفتُ النجوم والكواكب التي كانت تنير لي ليلي حتى اقتراب موعد الصباح، ثم راحت ليالي جرأتي ترافقني طيلة النهار.

لم تكن الإقامة الطويلة في «السَّبَت» الذي كنت أستخدمه كسرير وسكن لتمنعني من العيش. لم تكن لي غرفة خاصة بي. وكانت أمي تجرجرني في أرجاء البيت من مكان إلى آخر وهي تقوم بأعمالها المنزلية أو عندما تطبخ لنا الطعام. كنت أتابع بنظري خطواتها وحركاتها. إنها كالنحلة، تتنقّل بسرعة وهي تدندن، وتكلّمني أثناء

عملها. لم تكن تروي لي الحكايات، بل تبوح لي ببعض أسرار حياتها. كنت أصغي إليها وأنا محصور في سَبَتي. لم أكن أردّ عليها، لكنها ترى جيداً أني شديد الانتباه لما تقوله. كانت تناديني: «نور عينيّ» أو «كبدي الصغير» أو «غزالتي، أنا». وكبد وغزالة... أسماء مؤنثة باللغة العربية. لم يكن ذلك يروق لي كثيراً. حتى وإن كنت مريضاً ومعرّضاً لاحتضار بطيء أو لنوع من الرحيل الممتد عبر الزمن، فإني لاأريد أن تجمعني بالفتاة أي صفة من الصفات، خاصة في ذلك الزمن ـ وكنت في الرابعة أو الخامسة من العمر ـ الذي لم تكن فيه الجوانب الكثيرة من أسرار الجنس المؤنث خافية عليّ. فقد كنت أعتبره شيئاً مرغوباً ومحرّماً، يحدث معه الإثم والخطيئة. وماكان الله والأسرة يحرّمانه عليّ، كان يجذبني إليه لأنه لم يتبقّ لديّ ما أفقده. ولم أكن أريد أن أُعتبر كالفتاة، وأُعامل معاملتها كيلا أصبح خطيئة أو أداة للخطيئة، أو بمزيد من الدقة، ذلك المشتهى بسبب الخطيئة. لم تكن لديّ أية شكوك، ولكن دون أن أشعر بذلك، كانت يدي تندسّ تحت بيجامتي، تتلمّس عضوي وتداعبه. راح يتردّد صدى تلك الكلمات طويلاً في رأسي، وكان لها القدرة على إحداث الفراغ في جمجمتي والتصادم فيها. وأعتقد أن «الشقيقة» وآلام الرأس التي كنت أعاني منها ناتجة عن ذلك. كنت أجد ذلك الحنان الذي تعبّر عنه أمي بتلك الكلمات، وهي تعمل في المطبخ، ثقيلاً بعض الشيء. لم أكن أحتج أو أعترض على ذلك، بل أتقبله صامتاً، وأحاول التفكير بأمورٍ أخرى. فأنا أساساً لاأحب المطبخ، حيث لايتوافر شيء من وسائل الراحة، ولا أحبّ بخاصةٍ، الصباح في تلك الأيام، حيث الشمس توقظني باكراً جداً وتدفعني إلى النهوض من رقادي، وعن الحبل الذي كنت أرقص وألعب عليه محاولاً الإمساك بإحدى النجوم. فأجد نفسي عند ذلك مطروحاً كشيء جامد، أخرس، عاجزاً عن الحركة وعن الردّ بجانب حزم النعناع وأقراص البندورة التي سُحق بعضها تحت خضارٍ أخرى. لم يكن يوجد في ذلك المطبخ مايريح ويساعد على العمل، فقد كانت أمي

طيلة الوقت محنية مقرفصة أو متربّعة. إنها تتعب كثيراً دون أن تعترض أو تحتج، بل تنهض، من وقت لآخر. فتتمطى وتقوّس ظهرها، واضعةً يديها على خاصرتيها لكي تطرد التعب، ثم تستأنف العمل بنشاط النحلة وحيوتها. مع ذلك فإني كنت أحبّ وقت الضحى عندما كانت الأبخرة ذات الروائح الطيبة تنتشر من القدور والطناجر. ويروق لي النظر إلى الجمر وهو يتوهّج في الموقد. فأشعر بالضيق والحرّ قليلاً، ثم أنصرف إلى تخيلاتي وأحلامي التي تركْتها معلّقة منذ الليلة السابقة. وبذلك كنت أشاهد تحضير الأطعمة والمأكولات المحرّمة عليّ تماماً.

وهكذا، فإني من سن الرابعة وحتى السابعة، لم أفعل شيئاً سوى النظر والتأمل. فأصبحت أعرف عن ظهر قلب الجدران، الأبواب، النوافذ وسماء منزلنا. فالباحة مربّعة، غير مغطاة، وقد غُرست شجرة ليمون هزيلة، في وسطها، تعطي في السنة نحو عشر ليمونات صغيرة خضراء. لم يكن لوجودها هناك أية ضرورة. وقد اعتاد الجميع على رؤيتها جافّة ومصرّة على البقاء في منفاها. كنت قد رتّبت «سَبَتي» بشكل أستطيع معه أن أتأرجح، بل وأن أتقدم مستنداً على يديّ، هو عبارة عن عربة صغيرة بدون دواليب، لكنّ لها مرآة ارتداديّة صغيرة. وإذا كنت أُمضي صبيحة الأيام في المطبخ، فإني بعد الظهر أظلّ في الصالون حيث أفَنّد وأحلّل دوافع تخيلاتي وأحلامي وأحضّر للمساء، مرتّباً الأمور في ذهني من أجل تمضية الليل واجتيازه. نساءٌ كثيرات، عمّات وخالات أو صديقات لأمي، كنّ يأتين لتمضية الوقت، فيتحدّثن كثيراً بحرية مذهلة. لم أكن دائماً لطيفاً، متسامحاً معهنّ. كنت أتظاهر بأنّ النعاس قد استولى عليّ واستسلمت للنوم، ثم أعمد إلى ترصّدهن وتسجيل ما يبُحن به من أسرار واعترافات خاصة. كان هناك «عائشة» السمراء ذات النهدين الثقيلين التي كانت تداعبهما وهي تتحدّث عن لياليها غير المشبعة. وهي أقرب جاراتنا، متزوجة من رجل متقدم في السن نحيل الجسم. من عادته أن يذهب في الصباح الباكر كل يوم، ويعود متأخراً في

المساء. كان من الممكن أن تكون «عائشة» ابنته وهو يعرف ذلك وبدلاً من أن يغازلها ويمارس الحب معها كان يضربها. يشغّل جهاز الراديو ويطلق لصوته العنان لكي يغطّي صراخها. لم يتكلم مع أحد، يجتاز الشارع وهو يتحسّس الجدران. «عائشة» تثيرني خاصة عندما تنهض لترقص وهي تقلّد وتمثّل بالإيماء مداعبات وحركات ممارسة الحبّ، وتهز خصرها وتُبرز بطنها الممتلئ ثم تمرّ بيديها برفقٍ على ردفيها.

كانت هناك «زينب» البيضاء التي تسدل شعرها الطويل وهي تروي كيف أنّ زوجها يظل قلقاً، نافد الصبر وعجولاً. تقول إنّ لديه «إرادة عصفور» ودماً حاراً، يبرد بأسرع مما ينبغي. إنها تحيّرني. لكم أودّ أن أحظى بها وأرقد بين فخذيها وأضع رأسي الحارّ الممتلئ بالصور على بطنها وأمنحها الإحساس الذي لايوصف بأنني أدخل بكلّيتي شيئاً فشيئاً وببطء شديد في جسمها إلى أن أَبعث فيه دفقة بطيئة من الحرارة، كثيفة وندّية بعض الشيء وبالقدر الكافي لإثارة الدوخة والدوّار لجعلها تدور كنجم صغير مروّض في راحة يدي، ثم أداعب مؤخرة رقبتها وتحت إبطيها وسرّتها وأمسك بعد ذلك بقامتها وأطرحها برفق على الأرض بينما يمكن أن يكون زوجها يشخر وهو يتخبّط في كابوس مخيف.

هناك أيضاً «رقيّة» المرأة النحيلة الصوت التي لم تكن تقول شيئاً، لكنّ عينيها تشعّان ذكاءً. فهي تصغي بعينيها، ومن وقت لآخر تبدي إشارة بيدها تعني بها أنّ كلّ ذلك ليس شيئاً يذكر، وأنها تعيش وتعاني من هوى دفينٍ ومكتوم تخفيه عن أفراد العائلة وعن الصديقات الثرثارات، وأنّ الحبّ حديقة بعيدة تضيع فيها وتضلّ السبيل، فتنام هناك وهي شبه عارية تكاد لاتستر جسمها أية ملابس وقد باعدت قليلاً ما بين ساقيها لكي تتلقى مداعبات الرياح والأعشاب. منتظرة الرجل أو المرأة، أو من يمكن أن يأتي وقد وضع حجاباً على وجهه، فيغطيها ويستر جسمها ببرنسٍ من الصوف، قبل أن يقبّلها على فمها ويضمها في عناق طويل، ثم يضع

يده الحارّة على بطنها العاري. عند ذلك ربّما لن تعرف أبداً ما إذا كانت تلك اليد وذلك الفم هما لجبليّ عنيف وقاسٍ أم لفتاة تملكتها أهواء الجسد. هذه اليد نفسها سوف ترفع البرنس وذلك الفم نفسه سوف يلامس العانة المعطّرة، التي أزيل عنها الشعر، ويتوقف بعد ذلك على شفتي فرجها فيقبلهما برفق إلى أن تُملأ الرغبة بعنف جميل. عند ذلك يمكن أن يعضّ «رقية» على شفتيها وتتدحرج على العشب والأرض المبلّلة مع الزائر الخفيّ وقد أغمضت عينيها كيلا تعرفه أو تعطيه صورة أو عمراً أو جنساً ليكون جسمها وحده المعرّض للشمس وللرياح، ملموساً مداعباً ومرضوضاً بجسم آخر مجهولٍ تماماً دون البوح بأي كلام، ودون جلبة أو آثار مع ذلك الحنان المجرد الذي يجعل من ذلك المكان ومن تلك اللقاءات سرّاً أبديّاً خالداً. كانت «رقيّة» تلزم الصمت لهذه الأسباب جميعها، ولأنها تعرف نفسها قادمةً من مكان آخر، وذاهبةً نحو هاوية وأنها بدلاً من أن تقع في سقطة مميتة فإنها تطير وتحلّق، تدفعها الرياح وتجذبها اليد والوجه المغطى بالحجاب.

أما أنا، الهادئ المطمئن والشاحب الوجه، فقد كنت أراقبها، أُرشد نظراتها، أستقرّ فيها، وأندسّ متسلّلاً إلى أفكارها الحميميّة، وأصبحُ سرّها، شاهدَ هواها وحارسَ حديقتها. لم نكن نتبادل الكلمات. كل شيء يجري عبر فترات الصمت الطويلة حيث كنت أنا أنشط خشيةً مني ألّا أكون في المستوى المطلوب،وخوفاً من أن أجد نفسي وقد استُبدلت ذات يوم بحارسٍ آخر أكثر مهارة وأكثر جنوناً مني. لقد أصبحت ولعي وهواي من أجل الرحيل والغياب، وكنت أعرف أكثر منها الصواعق والمصائب التي كانت تهدّد «أمبراطورية السرّ».

كانت هناك أيضاً «هنيّة»، امرأة بدينة انحنت علي «سَبَتي» لتقبّلني. كنت أشعر بالضيق، وبيديّ النحيلتين حاولتُ إيقافها كما لو أنها مصراع ضخم في أحد الأبواب الكبيرة يكاد يطبق عليّ

ويسحقني. كان رأسي محصوراً بين نهديها، إنها تتصبّب عرقاً على الدوام، حتى في فصل الشتاء. عند ذلك بدرت مني تكشيرة وأخذتُ أبحث بعينيّ عن نظرات «رقية» التي كنت قد أقمت معها تواطؤاً صامتاً وملحوظاً. «هنيّة» كانت زوجة ثانية، تعيش بمفردها وتستقبل زوجها في الأيام الزّوجية. وقد توصلتْ إلى اتفاقٍ مع الزوجة الأخرى لكي تترك لها الزوج في تلك الأيام التي تكون هي في العادة الشهرية. وكان ذلك يتم بالتناوب وبصورة سرّية، وقد أقسمت الزوجتان على ألّا تتركا للزوج ليلةً واحدةً يرتاح فيها إلى أن يستنفد قدرته على الاحتمال، ويضطر إلى الخضوع والاعتراف بأنه ليس في مقدوره مجابهة امرأتين شابّتين، خاصة وهما شهوانيتان. وكانتا تتبادلان الوصفات والنصائح لإنهاكه ولجعله يفقد شيئاً فشيئاً، ليس سُلطته وحسب، بل طاقته وقدرته أيضاً.

كانت «هنيّة» تخيفني، فهي الغولة البيضاء، مع بوادر شاربٍ تبدو لها. صوتها يرعبني. وعندما تصعد إلى السطح لتشاهد غروب الشمس فإنها تلهث وتتصبّب عرقاً فتسخر النساء الأخريات منها عند ذلك. وكانت تضحك وتمزح كأنّ شيئاً لم يكن، ثم تروي لهنّ كيف أنها تحبس رأس زوجها بين فخذيها وتفركه بقوة إلى أن تؤلمه، وكيف أنها تقلبه بعد ذلك وتسيطر عليه جسدياً حتى تكاد تحطم قفصه الصدري، وتجعله يصرخ من المتعة بإدخالها شمعة في مؤخرته. كانت تتحدّث وهي تشير وتُمثّل المشهد بالإيماء. إنها امرأة خطيرة وتجيد أيضاً إثارة العواطف عندما تتذكر عدم قدرتها على الإنجاب.

إن نظرات «رقيّة» وحدها تجعلني أرحل بعيداً. كنت أخشى بكل عصبية وهياج زياراتها، فهي الوحيدة التي تستطيع الانضمام إليّ في البرّية أو بالأحرى التي بإمكانها أن تصطحبني إلى حديقتها السرّية. ورغم كل ذلك فقد كنت سيء التهذيب أو غير مهذب بالمرّة ـ لم يكن هنالك وقت لهذا الأمر ـ وأوّل ماكنت أفعله عندما نذهب، هو

إدخال يدي في سروالها ووضعها على عانتها. فتدعني أفعل ذلك دون أن توافق بشكل واضح على فعلتي. ذات يوم لامست أصابعي شفار فرجها وكان مبللاً، فشعرت بإحساس غريب، فقد اعتادت يدي أن تلمس شيئاً حاراً شديد النعومة. سحبتها بسرعة فرأيت أصابعي ملوّثة بالدم. أخذتُ أبكي وأطلب منها أن تصفح عني لأني لم أقصد إيلامها، خاصة أني لاأريد أن أجرحها. إذ كيف يمكن لأصابعي النحيفة أن تمزّق أو تخدش أغلى وأثمن ركن في الحديقة؟ أخذت تضحك، ولكي تطمئنني، قالت لي: «إنها خالتي... لقد وصلت البارحة... لم أكن أتوقع قدومها بهذه السرعة... وهي ستسافر بعد ثلاثة أيام، وعند ذلك سيكون بإمكانك أن تضع يدك، بل ورأسك أيضاً إذا شئت دون أن تتلوّث!» ثم مسحت لي أصابعي بمنديل مطرّزٍ، ورفعته إلى شفتيها.

طيلة أربعة عشر يوماً لم تأت إلى بيتنا. وللمرّة الأولى شعرت بالألم الذي يسبّبه الفراق. ولم أعد أفكّر بآلامي الجسدية التي كنت قد ألفتها بطريقة أو بأخرى. وتجاوزتها معتبراً إياها من الأمور اليومية العادية، لكنّ تلك التي شعرت بها لمجرّد غياب «رقية» لم أكن أستطيع تحمّلها خاصة وقد زاد من حدّتها أنّ العهد بيننا قد اتّسم بالسرّية التامة، ولذلك فإني لاأستطيع أن أستفسر أو أن أسأل عنها، بل عليّ أن أعاني وأتألم بصمت، وأنا أنتظر. كنت أنام مهملاً الحبل، إذ لم تكن حالتي النفسية تسمح لي بالقيام بالبهلوانيات التي كنت أقوم بها. كنت ضائعاً في الرمال، آكل التراب، ولا أرى أية حديقةٍ في الأفق. وذات ليلةٍ، عندما كنت أتهيّأ للنوم، قرّرت عدم تناول الدواء والبقاء مفتّح العينين محدقاً في الظلام حتى بزوغ الفجر. بقيت مستيقظاً أنتظر. وظهرت. صورة نيّرة، متلألئة، عجيبة غريبة. فهل هذه هلوسة؟ ربّما. لم أكن أرغب معرفة المزيد. اقتربتْ من «سَبَتي»، ومدّتْ لي يدها. نهضتُ أو بالأحرى، جُذبت بنوع من القوة المغناطيسية. اقتادتني بعيداً، بعيداً جداً، لا إلى حديقة ولا إلى صحراء. شعرت بأننا نهبط بهدوءٍ نحو ينبوع ماءٍ أو نحو مصدر

نور وضياء. كان ذلك بئراً عميقاً جداً، ماؤه حارّ ينبعث منه بخار عذب. سقتني كوباً من ذلك الماء الذي لابد أنّ له خواصّاً نافعة، ثم عرّتني من ملابسي وغسّلتني جيداً، ولا أدري فيما إذا كانت تفرك جسمي وتنظّفه أم أنها تداعبني وتلاعبني، وبعد ذلك رفعتني على ذراعيها، ثم مرّت بشفتيها على بطني وعلى ذراعيّ وعنقي وتوقّفت بهما هناك. ولم تقبلني على شفتيّ أبداً.

غيابٌ طويل ومؤلم إلى تلك الدرجة يستحق أن يُمحي أثره بمكافأة خاصة واستثنائية. وبسبب قيامي بالهروب ليلاً، الذي كنت أبدأه أحياناً منذ فترة العصر، تخلّيت عن ألعابي البهلوانية على الحبل. وكنت أُمضي النهار بالانتظار وبالتحضير لذلك الهروب السرّي.

كنت أحبّ اسمها: ثلاثة مقاطع، أردّدها عدة مرات بأشكال ولهجات مختلفة، فيتيح لي ذلك إثارة خفيفة تنتشر في جسدي. «لوبابا». لو ـ با ـ با. جربوا ذلك فترون أنّ التلفّظ بهذا الاسم تصحبه لذة شديدة «لوبابا أجي دابا، لوبابا هاك هادا، لوبابا خود هادا، لوبابا هاهو جا، لو ـ با ـ با، با ـ با ـ لو، با ـ لو ـ با، لو ـ با ـ لو ـ با». لم يكن لـ «لوبابا» صدر بارز أو شعر طويل. هي ابنة جارية أتى بها من السنغال أحد تجار مدينة «فاس» الأغنياء، بشرتها كامدة وشديدة السمرة. عيناها الصافيتان حادّتان، وخجلها المفرط يجعلها تبدو رعناء ومنزعجة في بعض الأحيان في وسط تلك المجموعة من النساء. وهي تجلس دائماً بشكل منحرف على طرف الفراش، قرب الباب تماماً، ضامّة ذراعيها إلى صدرها وطاويةً ساقيها، مجمّعةً جسمها هكذا، ومستعدة دائماً للانصراف دون أن تزعج أحداً. كانوا قد زوّجوها إلى حرفيّ أعور، أنجبت له ولدين، ثم هجرها واختفى. تعيش مع أمها التي كانت لاتتكلم العربية، لكنها تتفاهم معها بوساطة إشارات الصم البكم. وأمي كانت تحبها كثيراً وتعطيها الثياب التي لم تعد ترتديها وتدعوها إلى

منزلنا في معظم الأحيان. وعندما تذهب أمي إلى الحمّام أو إلى حفلة أو عرس تتولّى «لوبابا» حراستي، فتأتي وتجلس قرب «السَّبَت» وتلعب معي بالورق وتلهو كما يلهو الطفل الصغير. كانت بشرتها تسحرني، فأتظاهر بأني أريد أن أغيّر وضعيتي كي أتّخذ من ذلك ذريعة لأستند على ذراعها العاري وأُبقي يدي ملتصقة به. كنت أحبّ ملامسة تلك البشرة الشديدة النعومة، ومداعبتها وأنا أتهجى الاسم. وأعرف أنّ ولديها يربكانها، وربّما لهذا السبب لم أذهب معها أبداً أثناء الليل. لقد طلبتُ منها ذات يوم، بعد أن تعبتُ من بقائي مستلقياً طيلة الوقت، وكنّا وحدنا، أن تحملني على ظهرها. وبحركة سريعة وناجعة، انحنتْ فصعدتُ فوقها ووضعتُ أولاً ذراعيّ حول عنقها وبعد ذلك دسست يديّ تحت ثوبها حتى بلغتا صدرها. كان نهداها صغيرين وصلبين. وهنا اكتشفت أجمل وأشد إحساس بالنعومة والعذوبة. فوضعت رأسي على كتفها واستسلمت للنّوم، والواقع أني أغمضت عينيّ وتخيلت نفسي منطلقاً في الغابة الوحيدة التي استطعت إقامتها بالقرب من حديقة «رقيّة». أخذتْ تدندن بأغنية رتيبة وحزينة تبعث علي النوم، لكني لم أنزعج أو أضجر منها. كان يوجد ينبوع ماءٍ في ركن خفيّ من تلك الغابة. وعندما وصلتْ إلى هناك وضعتني قرب إحدى الأشجار وأخذت تتهيأ لإصلاح زينتها. تحوّلتْ عند ذلك من فتاة خجولة ومتحفّظة إلى شابة حرّة، مرحة، بل وسعيدة أيضاً وكأنّ رؤية الماء والأشجار هي التي أحدثت هذا التحول العجيب لديها. خلعتْ فستانها برفق وهدوء وعلقته على أحد الأغصان، ونزعت سروالها فطوته ووضعته على حجر كان هناك. تقدّمت ببطء نحو الينبوع، وأخذت تملأ حفنة يديها بالماء وتسكبه على جسمها، وهي تقهقه ضاحكةً بينما يتناثر الرذاذ على وجهي ويبلّل ملابسي. وظلّت هكذا طيلة الوقت دون أن تفكّر بأن تستر عريها في أية لحظة، وبقيت أنا أنظر إليها فاغر الفم، جاحظ العينين، أتململ في مكاني، وقد نفد صبري شوقاً إلى لمس هذا الجسم وإلى مداعبته وغسله، ثم الاحتماء به. لقد شوشت هذه

الإثارة القوية الرؤية في نظري، فأخذت أرى الأشياء مزدوجة، ولم أعد أستطيع البقاء في مكاني. امتدّت يديّ إلى ردفيها، وانسابت فوق ظهرها فأخذت أمسّده وأنشّفه. طلبت مني أن أمسّد لها عمودها الفقري، ففعلت ذلك جاعلاً أصابعي تنزلق بين ردفيها لأفركهما بقوة بدلاً من لمسهما ومداعبتهما برفق وهدوء. لأني، بالحقيقة، أصبحت عصبياً وفقدت صوتي فلم أعد أقوى على النطق بالكلام. وبحركةٍ سريعةٍ، أبعدث يديّ ووجّهث نحوي نظرة قاسية، وهكذا انتهى اللعب. ارتدت ملابسها بسرعة وحملتني على ظهرها. ولأني كنت متعباً وخائباً فقد استسلمت لنومٍ عميقٍ.

«لوبابا!» تلك الكلمات التي كنت تتلفظين بها، كانت تبلغ مسامعي، وأنا مستغرق في نومي، معطرةً، ناقصةً غير مكتملة. أحبّ صوتك الدافئ، المستتر، صوت وحدتك وتشرّدك. وتظلّين تحملينني عندما تصعد تلك النسوة إلى السطح، وتستمرين عند ذلك بمداعبة شعري.

إنّهن ينظرن إلى السماء ويقمن بعدّ النجوم، ينذرن النذور، ويجهرن بالأمنيات. يتحدّثن فيما بينهنّ بصوت منخفض ويأكلن الحلوى وهنّ يشربن الشاي. ينسجن بساطاً واسعاً من أشياء صغيرة لاتكاد تذكر، من أكاذيب مثيرة اختُلقت ولُفّقت حديثاً مُزيّنة بأزاهير البرتقال، وكل واحدة منهنّ تقوم بدورها، كما يحدث في الطقوس والشعائر الدينية، وتأتي بحصتها من الأحلام فتضعها على ذلك البساط الممدود بين الأسطحة، واضعة فيها كلاماً ممنوعاً ومحرّماً، متناسيات الصمت الذي يفرضه الرجال عليهنّ. وأنا، العاقل، الراقد في سَبَتي، بجانب أمي، أصغي إليهنّ، لم أعد أحلم، بل أنظر إلى كلّ منهنّ وأتابع حركاتهن. كان غروب الشمس يبعث السكينة في نفوسهن ويجعلهنّ حُرّات واثقات من أنفسهن. وذات يوم رأيت إحدى الجارات تمد يدها من فوق الجدار وتقدّم إلى أمي سيجارةً بعد أن أشعلتها، فكاد الدخان يخنقها. ضحك الجميع، أمّا

أنا فقد شعرت بالخجل ولم أضحك. يجب أن تظل أمي بمعزل عن كل ذلك، لايجوز أن تُمسّ، غريبةٌ عن أحلامي وعن تخيّلاتي. وانزعجتُ: أمي تدخّن! يا للجرأة! لقد تهرّبتْ مني وتجرّأتْ على القيام بهذا العمل، فشعرت أنها قد استبعدتني وأنها لم تعد توليني أو تولي فعلي أيّ انتباه أو اهتمام. أمّا بقية النساء فقد تجاهلنني وأخذن يتبادلن السجائر. ونهضت «عائشة» فرقصت، وأمسكت «رقيّة» قامتها وقامت بحركات غامضة. كانت هؤلاء النساء في خلوتهنّ، يقمن على التوالي بدور الرجل وبدور المرأة. بسطت «رقيّة» يدها على صدر «عائشة» فأخذت هذه تضحك. كانت الجارات على السطح المجاور يصفقن ويغنّين. أخذ الظلام يخيّم شيئاً فشيئاً. وعند ذلك انتهت الحفلة.

«عائشة»، «زينب»، «رقيّة»، «هنيّة» و«لوبابا» لن يظهرن بعد الآن في هذه القصّة. فقد فتحت وجوههنّ طريقاً. وإذا أبقيتهنَّ منتظرات، فسأصبح مضطراً للقيام بمزيدٍ من البحث والتنقيب في تلك السنين التي مضت وأصبحت بعيدةً بحيث تكاد تفقد حقيقتها. ربّما برزن فجأة من تلقاء أنفسهنّ في وقت لا أتوقّع ظهورهن فيه، وقرّرن رواية الوجه الآخر للقصة. فأنا أفضّل البقاء في الوقت الحاضر في «السّبَت» مستلقياً على ظهري، أنظر إلى السقف، وأصغي إلى صخب وضجيج الحياة عند الصباح. علمت اليوم أن أبي قد دعا أزواج «عائشة»، «زينب» و«رقيّة» لتناول طعام الغداء. فأتت «لوبابا» صباح اليوم لكي تساعد أمي. وبينما أنا راقد في ركني، مهملاً وكئيباً، سأبذل بعض الجهد لكي أتفرّس في وجوه هؤلاء الأزواج. لقد سبق لي أن حدثتكم عن الزوج العجوز الذي يضرب الشابة «عائشة»، هاهو قد وصل للتوّ. إنه نحيل الجسم. خلع حذاءه، قال «بسم الله» ودخل إلي الصالون. مازال وحده حتي الآن. أخذ ينظر إليّ كما لو كنت رزمةً ملقاةً هناك أو شيئاً غريباً يلفت النظر. أخذت أراقبه وأحدق به، فخفض بصره وتظاهر بأنه يبحث

عن شيءٍ ما في جيوب سرواله، وأخرج منها منديلاً مطوياً وتمخّط. نظر إلى السقف وسعل، ثم وضع ساقاً على أخرى ودسّ يده اليمنى في جيبه. يداه صفراوان. أخرج مسبحة وأخذ يطقطق بحباتها بعصبية ظاهرة. لماذا كانت يداه بهذا اللون؟ فهل هو صبّاغ، نجّار أم عطّار؟ فأنا منذ وصوله أشمّ رائحة التوابل والبهارات. ربما كانت رائحة الزعفران، بل إنّ هذا مؤكد. نظر إليّ من جديد ثم خفض بصره. إنّ هاتين اليدين هما اللتان تتلمّسان جسد «عائشة» البالغ. وهذين الذراعين النحيلين هما اللذان ينهالان عليه ضرباً. وهاتين العينين الذّابلتين هما اللتان تحدقان طويلاً بجسمها العاري دون أن تحتفظا بشيء من بريقه أو جماله. إنّ هذا الرجل المنغلق يشك بامرأته ويتهمها بأنها لاتحبه ولاتطيعه إلّا تحت التهديد والوعيد. وهو يرتاب بها ويتهمها دون أن يكون مخطئاً في ذلك. فعائشة تستحق مصيراً آخر، لكنّ الأمور هي هكذا. فهي تنتظر موته، لكن يبدو أنه غير معرّض للموت. إنّ هاتين اليدين المصفرّتين تبعثان الخوف في نفسي، فليس لهما رائحة الخشب، إنه ليس نجاراً، ولارائحة الكمّون أو الزنجبيل، بل تفوح منهما رائحة الزعفران. لقد أدركت الآن ماذا يعني ذلك. إنه يعمل في غسل الموتى. وهي مهنة نادراً ما يبوح بها من يمارسها. هاهو قد نهض. إني خائف، لقد اقترب مني، أخذتُ أرتجف. انحنى عليّ فخنقتني الرائحة. سألني عن الجهة التي تَوجد فيها «مكّة». دلَلْتُه على الباحة، وأشرت إلى مكان قرب شجرة الليمون. أبعدته، أخرجته من الصالون. إني أكرهه وأفكّر بعائشة التي يجب عليها أن تتحمّل هذه الرائحة الجنائزية. تناول سجادة الصلاة وخرج إلى الباحة. اغتنمت الفرصة لأنتقل من مكاني. أخذت أدفع «السَّبَت» وأتقدم بصعوبة تحملني ساقاي بصعوبة، وبعد جهدٍ كبير وصلت إلى المطبخ. كانت أمي منحنية تنفخ على الموقد والدخان منتشر في الجو. و«لوبابا» كانت تنفخ أيضاً وهي منحنية. الاثنتان لم تعيراني أيّ انتباه. اندفعتُ فقلبتُ سطلاً مملوءاً بالماء، فغضبت أمي. هي لاتحبّ هؤلاء المدعوين، وأنا

أفهمها. قلت لها إن العجوز يصلّي، ثم أضفتُ: إنّ عمله هو تغسيل الموتى. تظاهرت أمي بأنها لم تسمع ماقلته. وأنا لاأريد أن أبثّ الرعب في قلبها، لزمتُ الصمت وعدت إلى الصالون. وصل رجل آخر، وأخذ يتحدث مع العجوز. إنه بدين بعض الشيء ومترهّل الجسم. فهو يتغذّى جيداً وراضٍ عن بطنه، ولابد أنه زوج «زينب» وهو الذي يتمتّع بـ «إرادة العصفور». يجب أن يكون عضوه صغيراً. إنه ليس ضخماً، بل مليئاً بالدهن. وهو يحرك يديه عندما يتكلم. يداه ضخمتان. جسمه يتصبّب عرقاً. أشعر بذلك وأشمّ رائحته. لقد جلس وباعد مابين ساقيه. لاأدري هل هو يتعتع أم أنه يتكلم بسرعة. لابدّ أنه يمارس العملية الجنسية بمثل طريقته في الكلام: بسرعة وبشكل سيّء. أي أنه لايقضي وقتاً طويلاً فوق جسم «زينب» الرائع. إنه صائغ، يبيع الحلي والمجوهرات، وهذا أمر غريب، فهو لايتمتع بأية صفة يتطلبها بيع الذهب، كالدقة والنعومة. ولابدّ أن النساء لايتوقّفن كثيراً عند دكانه. أنا أعرف ذلك، لأنّ خالي جواهري يبيع الحلي، وهو قبل كل شيء فاتن يغوي النساء. بينما هذا لابدّ أنه ينفّرهن بسبب صوته الأجشّ والعرق الذي يتصبب على جبينه. فإذا كان له عميلات يشترين من عنده الحلي، فلا بدّ أنهنّ من القرويات القادمات من الأرياف، وليس لديه أية فرصة أو حظ مع نساء مدينة «فاس»، البرجوازيات المرهفات. «زينب» هي أيضاً من أصل ريفي، لكنها تأقلمت مع حياة المدينة.

ثم وصل رجل متميّز، معطّر، يرتدي الملابس البيضاء. وعندما اجتاز الباحة غطى وجهه بقبعة برنسه كيلا يرى زوجات الآخرين. ربّت هذا الرجل المتميّز على خدّي وأعطاني ورقة مالية من فئة العشرين ريالاً. ثم حيّا الجميع وسلّم على أبي مقبّلاً كتفه. إنه رجل خبيث، لابدّ أنه يجيد إغواء النساء. أظنّ أنه زوج الجميلة «رقية» بل أجزم أنه زوجها، فهو يستحقها. أخذوا يتحدثون في أمور الدين وتطرقوا إلى صلاة الجمعة الأخيرة التي ألقى الإمام خلالها خطبة جريئة. ثم كفّوا عن الكلام وانهمكوا بتناول الطعام. أخذتُ أراقبهم

وأفكّر بورقتي المالية ذات العشرين ريالاً: هل أشتري بها فستاناً لـ «لوبابا»، زجاجة عطر إلى «رقية»، وشاحاً لزينب، منديلاً إلى «هنيّة»، حزاماً مطرّزاً لـ «عائشة»... أم قطعة أرضٍ صغيرة أواري فيها عظامي وعينيّ.

أيام طويلة بكاملها في «السَّبَت»! كان هذا الوضع يتيح مجالاً لمنحي أجنحةً ودفعي عبر كل ماهو غريب وعجيب في مختلف أنماط الحياة. وهكذا تعلّمت النظر والتطلع إلى الأمور والأشياء والإصغاء والرفرفة والتطاير من مكان إلى آخر. لم يعلّمني أحدٌ شعور الهشاشة. كنت أشعر به وأعاني منه بشكل يوميٍّ. لم أكن سوى مسافر يعبر مرحلة الطفولة.

في تلك الفترة كان أمهر أطباء حي المدينة في «فاس» ممرضاً مخلصاً أرسَلَته إلى «مكة» لتأدية فريضة الحج بعض العائلات التي يعالج مرضاها. كان رجلاً طيباً. فحصني بدقة ثم اعترف بأنه لم يفهم شيئاً عن مرضي، ونصح أهلي بأخذي إلى «الدار البيضاء». فباع أبي بيتاً صغيراً كان قد ورثه عن ذويه، وذهبنا فقمنا بجولة على أطباء البلاد. وهكذا، فارقتُ «نسائي» وحبل البهلوان الذي يخصّني. واحتفظت بمنديل «رقية» المطرّز.

برحلتي هذه اكتشفت البحر الذي كان ذلك اليوم رمادياً مكفهراً يغطيه ستار أبيض. بدا لي وهمياً وغير واقعي. وكنت سأغرف منه وأستمدّ بعض العناصر الجديدة لعمليات هروبي الليلية.

الهشاشة، كانت قبل كل شيء، جسمي، وهو الذي لم يعد يستطيع أن يتغذّى، أخذ يميل ليصبح صغيراً، وشيئاً شفّافاً. عيناي وحدهما كانتا تكبران وتلتهمان كلّ وجهي.

الهشاشة، كانت بعد ذلك نظرة الآخرين. فقد كانوا يشعرون أنهم مضطرون لمداراتي ومقابلتي بابتسامات بلهاء يعبّرون بها عن غبطتهم وسعادتهم بلقائي، وأن يقرصوا خدّيّ، متظاهرين بملامستهما لمداعبتي، وبتذكيري طيلة الوقت بأني لاأستطيع أن

أكون كالأطفال الآخرين، كما ليس بإمكاني أن ألعب أو أرقص، أو حتى أن أكسر بعض الصحون. كنت شيئاً صغيراً ملقى في إحدى زوايا البيت، كومةً صغيرةً ما انفكّت تخيفهم لأنّ كل الحياة، المرفوضة والممنوعة قد تركّزت وكمنت في عينيّ. كانت نظرتي المتفرّسة تبث الرعب في قلوبهم. وكما تعلمون، فإني كنت أرى كل شيء، ألتقط وأدرك أي شيء بأدق تفاصيله.

كانت هشاشتي هي ملاذي ووسيلتي للدفاع عن نفسي. وكانت أيضاً وجود الألم الذي يفري عظامي ويقضي على مقاومتي. وعن هذا لم أكن أتحدّث أبداً إلى النساء اللواتي كنّ يصطحبنني إلى الغابة أو إلى الحديقة.

ويبدو أنّ هذه الحالة ستنتهي بصورة تكاد تكون سحرية. إذ أنّ يدين قدِمتا من مكان آخر كانتا تهيّئان لي ولادةً جديدةً. فقد انتزعتاني من مراحل وبراثن الموت لكي توقفاني على رجليّ لأركض وأنضم إلى جمهرة الأطفال المجهولين الذين يلعبون في الحي. لقد أنقذني طبيب شاب مغربي عاد حديثاً من فرنسا. رجل من كوكب آخر، أرسله القدر ليشفي طفلاً أشرف على الموت. ولابدّ أنّ القدر قد فعل هذا بعد أن أقنعه بذلك أولئك الرجال الذين كنت أسرق منهم زوجاتهم. ستتوقّف بعد الآن مشاويري السحرية، فقد انتقلتُ من حالة إلى حالة أخرى. إذ أني قد شفيت، وأصبحت أستطيع المشي، والأكل، وأخذت أنمو وأكبر، ولم أعد أحلم. فالليالي أصبحت فارغة، مظلمة كجميع الليالي الأخرى، لابهجة فيها ولافرح، لاقسوة ولا تجاوزات، يشغلها النوم الذي يريح الجسم ويبدّد الرغبات. أُلقي «سَبَتي» في مستودع المهملات وسُجّلت في إحدى المدارس، ولم يعد لي بيت ولاصديقات.

بعد ذلك ببضعة شهور، استيقظت في بداية الليل على ضجة تبعها انفجار. لقد مات طبيبي الشاب في حادث سير. فقضيت الليل كله أصلّي لراحة روحه. وفي الصباح الباكر أخبرت أهلي بالنبأ المحزن، ورفضت الذهاب إلى المدرسة، لكي أتقيّد بالحداد.

فاعتبروني مجنوناً، ضحيّة الكوابيس التي تعرّضت لها. أنا لم أكن مجنوناً ولاحالماً، أدّعي وأتخيّل الرؤى والأحلام. فكل ماهنالك أنّ جسمي ظلّ على تماسٍّ وصلةٍ مع اليدين اللتين أعادته إلى الحياة.

احتفظت من تلك الفترة بهاجس ظلّ يساورني وهو الخوف من أن أتحطّم أو أن ينكسر أحد أعضائي في الزحام والتدافع، ولذلك لم أكن ألعب ولا أتعارك مع أحد. كنت أرسم، وأقبع غائصاً في ذاكرة الطفل، الضيقة والمحمومة، بعد أن غادرت ذلك الطفل.

وفيما بعد، أي بعد تلك الفترة بزمن طويل عرفت العنف الجسدي، والتعرض للتجربة والاختبار والمعاناة الجسدية، مع أني كنت أحافظ على هذا الجسم، وأتستّر عليه، محاولاً إبقاءه في حالة من الشفافية النافذة والرهيفة.

عندما حملت معلمتنا، استُبدلت بزوجها، وهو رجل عسكري، يدعى «بوجارينيه». لقّبه التلاميذ بـ: «جرانه» أي (الضفدع) كان طويل القامة، بشعاً وقاسياً. ومازال أتذكر يديه الضخمتين اللتين كانتا تنهالان بحركة واحدة بالضرب على خدّيّ بصفعة مزدوجة تترك آثاراً حمراء على وجهي طيلة النهار. كان يروق له أن يضربنا أيضاً على أصابعنا بمسطرته المعدنية. كنّا نمدّ أيدينا فيضربنا عليها بصورة منتظمة. وأخيراً يناول المسطرة لأحدنا ليضرب بها جاره الذي يكون قد قرّر معاقبته. لم أكن أقول شيئاً لأهلي عندما أعود مساءً إلى المنزل. ولكني عدت ذات يوم، باكياً، دامع العينين، لاأستطيع ضمّ أصابعي إلى بعضها. كان عليّ حينئذٍ أن أعترف بكل شيء لوالدي. عند ذلك انفجر غاضباً، وفاق غضبه كل توقعاتي: إنه لم يكلّف أحداً بتربيتي. بل على النقيض من ذلك تماماً، فبينما كان بعض أولياء التلاميذ يعهدون بأبنائهم إلى معلم المدرسة، هامسين في أذنه العبارة التقليدية: «أنت تذبح، ونحن ندفن!»، قال أبي في

حينه: «أرجو أن تعيره انتباهك، إنه طفل ضعيف وهش». لذلك عندما رويت له ماحدث لي، تناول سكيناً من المطبخ وجمع بعض الأقارب وأسرع الجميع إلى المدرسة. فطلب منه البواب أن يعود في صباح اليوم التالي. كان أبي يريد أن يقتل العسكري. فعارضه في ذلك جماعة من أقاربه وأقنعوه بالإقلاع عن ارتكاب هذا العمل الجنوني. تدخّل في الأمر رئيس شعبة حزب الاستقلال، فأخذت القضية طابعاً سياسياً، عند ذلك أعيد المعلم إلى ثكنته، وحلّ محلّه شاب مغربي.

رغم أني كنت أعيش فترة نقاهةٍ متأخرة فقد أحببت المدرسة، لأنها ساعدتني على الانعتاق من «السَّبَت»، ولأني معروف بكوني هش، فكنت أتصرّف في حياتي، وأسير على أصابع رجليّ. وعندما أخرج إلى الشارع كنت أختار جانباً أكون آمناً فيه، أستطيع أن أنظر منه إلى الآخرين وهم يلعبون ويؤذي بعضهم البعض الآخر.

كان في حيّنا نوعان من الأولاد: الضعفاء، الذين يسلّمون مؤخرتهم، (بل أُستهم) والأقوياء الذين يأخذونها. يدور كل شيء حول هذا الانقسام. ويبدو أنّ الأقوياء أكثر عدداً من الضعفاء. أمّا أنا فكنت خارج اللعبة: أراقب مايجري وأنا قابع في زاويتي. وأسمع عبارات المزاح والشتائم التي تحمل دائماً طابعاً جنسياً: «مهبل أمك، كتاب خالتك المفتوح، ديانة أُست أختك، الذي يعطي، يبيع أسته ومؤخرته...».

كان هناك «حميد» شاب حليق الرأس، أتى من ضواحي «فاس» وفرض نفسه زعيماً على الشارع مدّعياً أنه حظي بجميع مؤخرات الحيّ المجاور. يقول أيضاً بأنه كان يقتادهم إلى المقبرة ليكون مطمئناً. وغالباً ما يضع يده على فتحه بنطاله ويروز أعضاءه التناسلية لكي يهدّد الذين يمكن أن يشكّوا في أقواله. عند مروره كان يضع عضوه الوسيط بين ردفي الصبيان والبنات ويضحك ضحكة ماجنة تنم عن الرضا والسرور. وهو يحبّ الذين يقاومونه

ويدافعون عن أنفسهم. إنه سمج، لم يكن يتردّد في إظهار عضوه لكي يخيف الفتيات الصغيرات اللواتي كنّ يذهبن ليجلبن الماء من المنهل العمومي. لم أكن أدرك لماذا كان بعض الأولاد يسمحون لهذا الشخص بأن يلمس مؤخّراتهم ويربّت عليها. أمّا أنا فكنت أشعر بالخوف ولا أتدخّل أبداً، وأظلّ ملتصقاً بالجدار الرطب. وذات يوم قال لي: «أنت شاحب ونحيل، لكن أليس لديك أخت تعطيني إياها؟». واختفى لبعض الوقت. علمنا فيما بعد أنه اعتدى بالضرب على صبيٍّ من حيٍّ آخر، فأمسكه والد الصبي وكاد يذبحه، بعد أن أحدث له جروحاً في وجهه بواسطة موسى حلاقة.

لكي ألهو صنعت صندوقاً من الخشب ـ كدكان متنقلة، أستطيع فكّها وتركيبها ـ كنت أبيع منها وأنا جالس على عتبة باب منزلنا بعض السكاكر والعلكة والمصّاصات والألعاب التي يشتريها الأطفال عادة. كنت قد اشتركت مع أخي الذي يذهب إلى حي المدينة ليشتري هذه المواد. وكنّا نتقاسم الأرباح. لم أكن أدري فيما إذا كنا نربح نقوداً أو نخسر. على أية حال، كنّا نلهو ونشغل وقتنا، آخذين على محمل الجدّ، عملنا كبقّالين صغار.

ذات يوم تلقيت طلباً ضخماً بكميةٍ كبيرةٍ من السكاكر المطعّمة بالنعنع من رجل عجوز، يعمل حارساً لدار كبيرة وجميلة. وقد ألحّ الولد الذي جلب الطلب لكي يكون تسليم البضاعة في الدار المذكورة. فأدخلت «الدكان» إلى المنزل، وذهبت حاملاً السكاكر للرجل العجوز. فأعطاني مبلغاً يزيد قليلاً عمّا هو مدين لي به ودعاني للجلوس بقربه. لكني لم أكن مغفّلاً، فقد لاحظت الخبث في نظراته وانزعجت من ذلك. مرّ بيده على ظهري ثم أخذ يُنزلها نحو ردفيّ. فقمت بحركة عنيفة كي أهرب، لكنه ظلّ يمسكني بيده الأخرى. فصرخت بأعلى صوتي وبكل قوتي، عند ذلك تركني، وألقى بالسكاكر في وجهي، وهو يكيل لي الشتائم. ثم ركضت بسرعة كبيرة لدرجة أني تجاوزت منزلنا دون أن أنتبه لذلك. شرحت لأخي كيف

أنّ العجوز حاول أن يلمس مؤخّرتي. عند ذلك نظّمنا حملة بمساعدة بعض أقاربنا لكي نلقّنه درساً. تسلّحنا بالمقاليع والعصيّ، وهاجمنا مدخل الدار التي يعمل فيها، وأشبعناه ضرباً. لم يدافع حتى عن نفسه، بل أخذ يضحك ويقول: «تعالوا. اقتربوا يا ملائكتي، اضربوا، فأنا أحبّ ضرباتكم!».

ومنذ ذلك الحين، أصبحت حذراً، أخشى النظرات الدّاعرة.

II

لم تكن صحتي على مايرام. ولكنّ المرء يعتاد على كل شيء، حتى على مسكنٍ من القش المجدول. أصبحتُ آسفاً على زمن «السَّبَت» حيث كنت أكثر حريةً، سيدَ إيقاع حركاتي وتصرفاتي، ساحرَ وحارسَ أحلامي. لقد شفيت ورجعت إلى جمهور الأطفال الذين يركضون في الشوارع أو في أروقة المدرسة. وبعد أن تعبت ومللت من الحنين إلى ذلك الزمن، اكتشفت الخوف، الخوف الجسدي. الخوف من السقوط، الخوف من أن يدفعني أحد، من أن أفقد توازني، من أن تدوسني بغلة أو أن يسحقني جمل، الخوف من أن يعضني حمار يركبه مجنون، يمكن أن يكون قد أثاره بإطعامه بعضاً من أعشابٍ غريبة.

كنت أخاف من أن يراني أو يسمعني الله، عندما يحدث لي أن أذكر اسمه في دورة المياه. وكان يستولي عليّ الذعر، لأنه قيل لي أنه موجود في كل مكان، وأنّه يسمع ويرى كل شيء ولايفوته شيء. كنت أركض في البيت، أبحث عن وكرٍ أختبئ فيه: اختفيت في صندوقٍ كبير. وألصقت أنفي في ثقب القفل لكي أتنفّس. بدا لي المنزل هادئاً. لابدّ أنّ الله كان لديه من الأعمال أكثر مما ينبغي في أماكن أخرى، لكي يأتي ويعطي صفعتين عقوبة لصبيّ يشكُّ بوجوده في كل مكان. قضيت النهار بطوله في الصندوق. كنت أنتظر لكنه لم يظهر أبداً. غادرت مخبئي لتناول طعام العشاء مرتاحاً، ولكني كنت

محبطاً بعض الشيء. كان من الممكن أن ينقصني الهواء والقوة لرفع الغطاء كي أنجو من الموت. شعرت بأنها لم تكن سوى قضية مؤجلة، وأنه في يومٍ ما، سوف يستدعيني إلى الأرض الباردة. لم يكن الموت يخيفني، بلْ طقوسه هي التي تخيفني. فلماذا لايقوم الموت بعمله بصورة معقولة ومريحة؟ ولماذا يعهد للأحياء بأمر تكفين الرجال والنساء الذين يقرّر أخذ أرواحهم؟ لماذا لايقوم بالعمل بكل بساطة، دون ضجيج ودون أن يزعج الأطفال أثناء نومهم؟

لم يغلقوا لي عينيّ أمام الميت. كنّا جميعنا هناك بملابسنا الرسمية وبكامل عددنا، الأصدقاء، والأعداء، اللامبالين والفضوليين شديدي الاهتمام، متجمّعين في باحة المنزل. كانت نافورة الماء ضعيفة: وراح الزوّار المعروفون والمجهولون يذرفون الدموع أو يتظاهرون بأنهم يفعلون ذلك. والمتسوّلون يتدافعون لكي يأكلوا من وجبة الطعام التي تُقدّم عن روح الميت.

كان هنالك عمي الشجاع، بادي النشاط، يذهب ويجيء، يرتّب أدقّ الأمور، يساعد بخاصة أولئك الذين يغسّلون جثمان الميت. وهاهو ينقل الماء الساخن في أوانٍ خشبية، يدخل ويخرج من الغرفة التي يحضّرون فيها الميت. يقوم بذلك بكل راحة وبساطة. لم أكن أعرف ما إذا كان عليّ أن أُعجب به أم أخشاه. كنت أقف على أصابع رجليّ لكي لايصيبني الماء الوسخ الذي يسيل من الغرفة. وأقوم ببعض البهلوانيات والقفزات لكي لا أطأ تلك المياه التي كانت تسيل عن جثة الميت. كان يجب على الموت أن يعفينا من هذه البلبلة. بقيت هناك أستنشق رائحة بخّور الجثّة وأصغي إلى تلاوة وترتيل المصلّين ورجال الدين المحترفين. كانت الغرفة مغلقة، لأنّ عملية تحضير الميت وتزيينه لم تكن قد انتهت بعد. وفي وسط الباحة مُدّت السجادة، وحصير القش ليوضع عليهما الجثمان. وعلى هذه الحصير كان يصلّي أتقى المؤمنين. وفيها كانت تلفّ أجسام الأطفال. أنا لم أكن أحبّ أبداً هذه الحصير التي يصنعها الحرفيون، وأرفض أن ألمسها. كنت أتخطّاها لاعناً من تركها ملقاة في

الصالون. فهي تشكّل جزءاً من ديكور وطقوس الموت. هكذا كنت إذن هناك، لقد توقفتُ تقريباً عن الحركة عندما رأيت يداً مصفرّة تظهر من بين درفتي الباب، يد الذي يغسل الميت، وقد أصبحت صفراء بلون الزعفران الذي يدُهن به جثمان الميت. إنها تتحرك وتهتزّ وهي مفتوحة تنتظر. وصوت أجشّ يطلبُ تمرة، لقد نسُوا التمرة، والميت سيذهب بدون عينين. إذ عندما يغطّي الكفن كل الجسم، يمكن أن يلتبس الأمر فيصبح من الصعب التمييز بين الرأس والرجلين. لذلك يضعون على الجانب الذي يضمّ الرأس، مكان كل عين نصف تمرة. وُضِعَ الجثمان المغلّف بالكفن على الحصير، وأنا مازلت أقف هناك جاحظ العينين. يجب عليّ أن أرى وأسجّل كل شيء، فهذه تجربة فرضتها على نفسي. الموت هو هذا: النساء المتجمعات على السطح يبكين، يصرخن ويولولن. وهناك رجل يأمرهنّ بالتزام الصمت. وأحد رجال الدين يتلو القرآن. يسود الصمت والخشوع. النساء مازلن يبكين بهدوء دون أن يسمع لهن صوت. والرجال يسهرون على النظام. وأنا كنت منذهلاً، مرعوباً، وأخذت أفكّر منذ تلك اللحظة بالليلة القادمة الصعبة، بل المستحيلة، التي لايمكنني تلافيها. هاهو الليل قد أقبل، وأحاط بي الظلام، فرأيت نفسي أركض في نفقٍ، تلاحقني جثة الميت وهي في كفنها. ولكثرة ماركضَتْ فقدتْ نصفي التمرة. أصبحت الجثة عمياء. أخذت تئنّ. على كفنها يوجد قليل من التراب. والنفق طويل، وطويل جداً، لاتبدو له نهاية. وفي اللحظة التي رأيت فيها مخرجاً، تبينّ لي أنه يؤدي إلى نفقٍ آخر، إلى وكرٍ أشدّ ظلمة وأكثر طولاً. ماتزال خلفي تلاحقني تلك البقعة البيضاء وهي تركض متعثّرة ومرسلةً الأنين والحشرجة. لم يكن لديّ أية فرصة للنجاة والخلاص منها. فأنا أعرف أنّ يداً قاسية وقوية، يداً باردة وبيضاء ستمسك بكتفي وتتشبّث به وتشدّني نحو مصيدةٍ أكثر عمقاً وأشد ظلاماً من المتاهة.

أغمضت عينيّ ورأيت بريّة تغمرها أشعة الشمس، ينتصب فيها تمثال مدهون باللون الأزرق، ينحني ليقطف ويجمع شقائق النعمان.

الذراع الأزرق أصبح أخضر اللون وهو يناولني باقة من تلك الزهور الصغيرة. رفعتها إلى أنفي. لم أشم لها أية رائحة، لكنَّ نوراً باهراً غمرني وحملني نحو بستانٍ بدا لي كل مافيه هادئاً وجميلاً. وكانت تلك هي نهاية الكابوس.

دخل إلى الباحة رجلان قويان يحملان نعشاً فارغاً. فولولت النساء اللواتي على السطح. لقد حانت لحظة الرحيل. نهض الجميع وهم يتدافعون. وُضع الجثمان في النعش. وعندما رُفع على الأكتاف تحرّك الميت، لقد اهتزّ. فهل كانت تلك الحركة تعبيراً عن الرفض؟ أم إشارة وداع؟ أم أنها وعد بالعودة؟ كان لي الخيار. ثبتُّ قدميّ. هل تتحركان؟ هل ذلك الجثمان مايزال مسكوناً؟ يقال بأنّ الروح تنتقل ببطء والجسم يحتفظ بشيء من حرارته، على الأقل حتى تحين زيارة الملائكة. فهل هم مطّلعون على الأمر وعلى علم به؟ لم يخبرهم أحد بذلك. يجب أن يكونوا هنا من أجل نقل الروح، فتلك الاهتزازات هي إذن إحدى مزحاتهم. إن عميّ لم يكن يريد الموت. لم يكن مستعداً لذلك، وظلّ يتفاوض طيلة الليل مع الملائكة الذي كانوا يحاولون إرغامه على أن يُسلم الروح. كان مايزال شاباً وينوي الذهاب إلى مكة لتأدية فريضة الحج. لكنّ الملائكة قاموا بمهمّتهم دون أن يمنحوه أية مهلة. فهذا العمل بالنسبة لهم عبارة عن إجراءٍ روتيني ويوميّ معتاد.

وجد الموكب صعوبة في الخروج من ذلك المنزل الصغير. فالشارع ضيق جداً، يتردد فيه صدى الدعاء والتسابيح. الجميع يتبعون النعش باستثناء النساء اللواتي بقين يبكين في المنزل. انضمّ إلى الموكب بعض المارة، وأناس مجهولون، كانوا يسألون: «من هو الميت؟» وبدا أنّ بعضهم يعرفه شخصياً أو من خلال سمعته، فيقولون: «كان رجلاً طيباً!» ورافقوه إلى مدخل المسجد، حيث يُصلّى عليه الصلاة الأخيرة، ثم انصرفوا. البعض الآخر شارك في الاحتفال حتى نهايته. وشدّوا على أيدي أفراد العائلة وأخذ كل منهم نصف رغيفٍ وحفنة من التين المجفّف. كانت تلك وجبة طعام عن

روح الميت، وجبة تُحضّرها كل أسرة يتوفى أحد أفرادها وتبقى في حالة الحداد. شعرت بالراحة والانفراج عندما رأيت الجثمان يسجّى أخيراً في القبر. لقد حدث كل شيء بسرعة كبيرة. فقد غطوه بالتراب والحجارة، واتّجه الجميع في طريق العودة... لم أكن أريد العودة إلى بيت عمي. وقد تحاشيت حتى المرور في الشوارع التي سار فيها موكب الجنازة. أخذت أتجوّل في المدينة وأنا أدفع بيديَّ الليل كي أمنعه من الاقتراب. لم يلاحظ أهلي غيابي. وسألتهم فيما إذا كانوا يسمحون لي أن أنام معهم في أسرّتهم. فوبّخوني وذكّروني بأني أصبحت رجلاً، والرجل لايجوز أن يخاف إلّا من الله، وليس من الرجال، بخاصة إذا كانوا موتى! في التاسعة من عمري كنت رجلاً فقلت:

ـ بالتأكيد، لست خائفاً، إني أشعر بالبرد وحسب. سأنام مع أخي لأني أعرف أنه خائف، ولكنه لايجرؤ على الاعتراف بذلك فأنا لاحظت أنه يرتعش. لذلك سأرافقه وأروي له بعض الحكايات. لكن قبل ذهابي لأنام هل أستطيع أن أطرح عليكم سؤالاً؟

ـ إذا عاد هذه الليلة، هل أوقظكم، أم أطلب منه أن ينتظر؟

ـ من؟

ـ عمي!

ـ هيا انصرف وكفّ عن التفكير بهذا الرجل المسكين. ودعه يرقد بسلام!

لقد نجحت أخيراً بإخافتهم. والآن أستطيع النّوم مطمئناً فلست الوحيد الذي يرتجف حيال الموت.

ونمت نوماً عميقاً دون أن أرى أيّ حلم أو أعاني من أيّ كابوس. عدنا في اليوم التالي إلى بيت عمي. وهناك تأثرت بوطأة الصمت الذي يخيّم على المنزل، وبالهدوء الذي كانت تلتزم به النساء. كان الجميع يتحدّثون بصوت منخفض لكي لايسيئوا إلى المتوفى وإلى الآثار التي تركها هنا وهناك. فحاجياته ماتزال في

مكانها، ولم يجرؤ أحد على ترتيب ملابسه. وراحوا يذكرون أنّ حياته كانت قصيرة، ويتحدّثون عن مزاياه وطيبة قلبه وصلاحه. كانت النساء يرتدين الملابس البيضاء، دون حليّ وعطور أو خضاب. فالحداد طريقة تقضي بالاستعداد لتخطّي الحياة دون الغرور والمظاهر التي تزيّنها. ومن هذا الالتزام والتماثل في مراعاة الحداد كان يبرز جمالٌ يجعل تلك النسوة أكثر قرباً بالنسبة لي. أما الرجال فيبدو أنهم كانوا فوق هذه المظاهر الخارجية المعبّرة عن الاحترام أو الألم: فهم يدخّنون، ويأكلون بشهية، يتبادلون المزاح ويتحدثون عن الميراث. إذ يجب إجراء الجرد وإحصاء ماتركه المتوفى من أموال وممتلكات وتقسيمها بين الورثة. إنهم يحسبون ويحصون كل شيء، حتى أدوات المطبخ. فهذا مايسمونه روح العدالة. ولم أكن أعلم أنّ التفاهة يمكن أن تختلط ذات يوم بالعدالة. ذكرت لأبي بأنّ أخاه ربما لم يكن يحبّ هذا النوع من العرض والحساب. فأفهمني بأنني مازلت صغيراً، حديث السن، لكني مصيب ومحقّ بهذا الرّأي. في ذلك الوقت كانت الأشياء قد وُضعت جانباً، وأحضروا دفتراً كبيراً لتسجيل كل شيء. وقد جرى ذلك بمزيد من السرعة: يجب الانتهاء من الميت، ومن الموت. أما النساء فبعيدات عن ذلك، لايتدخلن فيه أبداً. لايوجد أي لون على وجوههن أو في ملابسهن. لاشيء سوى البياض المعبّر عن الطهارة والزهد. كنت وأنا أنظر إلى كلّ هؤلاء الناس وهم ينهمكون بالعمل حول رجل غائب، أقول في سري إنهم يقومون بكل شيء لكي يتخلّصوا من الليلة المظلمة في النفق الطويل، وأنني لم أكن الوحيد الذي يخشى مثل هذا العبور. أدركت أنّ الخوف يمكن أن يصيب أيضاً الكبار البالغين. وكان هذا انتصاراً بسيطاً على شكوكي.

III

كل مسقط رأس، كل مدينة يولد فيها المرء تحمل في جوفها قليلاً من الرماد. و«فاس» ملأت لي فمي بالتراب الأصفر والغبار الرمادي، وسخام الحطب والفحم توضّع في قصباتي وأثقل جناحيّ. كيف أحبّ هذه المدينة التي سمّرتني في الأرض وحجبت نظري زمناً طويلاً؟ كيف أنسى طغيان حبها الأعمى، فترات صمتها الثقيل الطويلة الأمد، وغيباتها المضطربة؟ عندما أسير في شوارعها أترك أصابعي على الحجر وأجرّ يديّ على الجدران إلى أن ينسلخ عنها جلدها وألعق دمها. السور يقاوم حتى وإن كان قد أخذ يميل قليلاً. هو لم يعد يحرس المدينة لكنه يحافظ على الذكريات. وكم من الرجال وقفوا على أعتاب تلك الأبواب الضخمة، مقدّمين أجسامهم للأرض وأرواحهم إلى تلف وبلى ذلك الرمل الأحمر!

أمٌّ متعسّفة، فتاة سجينة، مترهّبة، ومع ذلك غير وفيّة، امرأة بدينة آكلة للأطفال، زوجة شابة، بالغة وخاضعة، جسم أحدث فيه الزمن خطوطاً وأخاديد، وجه رُشّ عليه الطحين، نظرة تنقل اللغز من مكان لآخر، تحملها وتذروها الرياح، يد مفتوحة موضوعة على المدينة النائمة، كتفان عريضان يحمل كل منهما مقبرة، شعر طويل عالق في ساعة معلقة على الحائط، سرّة دوّارة؛ رحى أو طاحون تعمل على الماء، بطن متعب، جبين تعلوه التجاعيد، ضجيج عارضات وجسور خشبية وهي تتمدّد وتتمطى، جدول حبيس

متوقف عند أحد الأسوار، سقف مفتوح مطلي بالكلس الحي، نساء جالسات وقد باعدن مابين سيقانهن وأذرعِهنّ، أزقة ضيقة كثيرة الحجارة، جدران خربة مهدّمة، وحلٌ أسود ذو بريقٍ، وظلالٍ خضراء. قمامة ملقاة على عتبات الأبواب، قشور الجبس والبطيخ على رأس عجل متحجّر، أقراص بندورة مهروسة، عش ذباب في شحاطة عتيقة. سطل للماء من البلاستيك ممزّق، حزمة شعر، وحزمة أخرى من شعر نسائي أزيل عن العانة، حمار يحمل صندوقين معبأين بالعنب، دخان الشواء، متسول أعرج، صبي يمتطي قصبة ليركض، شوارع منخفضة، نقص في التهوية، نقص في الإنارة. عامل المخبز يوزّع الخبز، رجل يقرص امرأةً عبر الزحام، موكب جنازة، موكب عرس، امرأة بدينة تسير حاملةً باقة زهر في إناءٍ من الكريستال، خاطبة معروفة ومتكبرة، أشِعة الشمس تخترق السعف المعلقة فوق السوق، فرس أجفلت وتزحلقت على البلاط، كاتب عمومي ليس لديه حبر، «ليلى مراد» في سينما «عشابين»، «فريد الأطرش» بالسّموكن في أغنية: «ماتقولش لحد» الأسبوع القادم، «ظهور الإسلام» يُعلَن عن عرضه في شهر تشرين الأول. على الأسطحة، هنالك جماعة يتقصّون البدر ليروا فيه وجه الملك «محمد الخامس»، صدى قنبلة انفجرت في سوق «الدار البيضاء المركزي»، سيّاح خائفون يضمّون حقائب يدهم إلى بطونهم، إذاعة القاهرة مشوّشة، المياه قليلة، «فاس» مغلقة، متقوقعة في أساطيرها، وهي ذات بيوت فسيحة منفتحة نحو السماء، بيوت جميلة، نديّة، لطيفة الجو في الصيف، باردة في الشتاء، وفي باحاتها أشجار ليمون، أبوابها من الخشب المحفور والمنقوش، ثقيلة وعالية، باحاتها مربّعة، مطابخها سيئة التهوية، ودورات المياه مظلمة. مدينة «فاس» تقسمها إلى مربعات متاهات ذات سبعة منعطفات تؤدي إلى أزقّة مغلقة أو إلى أنهار تفيض مياهها في أغلب الأحيان، وتجرف معها كل مافي مجارير حي المدينة من قاذورات. حصان جامح قلب بسطة الخضار وأخذ يدور بين المصابغ فكاد يسقط في بئر للأصباغ. أخذ

الحرفيون يتضاحكون والحصان الجامح يصهل وينبعث البخار من منخريه، يخرج، يجتاز الجسر ويسقط في وادي «بوخرارب»، ثم ينهض وقد أحنى رأسه وجرفه التيار مع هرّ كان قد نفق ووُضِع في علبة من الكرتون. الصبّاغون يغمسون رزماً من الصوف في الأصباغ، وهم يغنّون وينشدون، وكلب أعمى يسير بمحاذاة الجدار. صبي يبيع السجائر بالمفرّق. أحد الرجال يلعب ببندقية قديمة، وحريق اندلع في «القيصرية»، الجدران تقاربت من بعضها والسماء انخفضت، الأرض تهتز، والرجال يركضون، وجه «فاس» امتلأ بالثقوب، فوّهة فضّية يعلوها الرماد، وجه منتفخ ومتورم تأكله جدري الزمن، وجه قديم أثري، عمل فنّي معروض عند بائعي الآثار والعاديات، تمثال أخرجه من الأرض أحد علماء الآثار، وجه للنسيان، محاط بأسوار عالية وسميكة، العائلة التي ينتمي إليها والسلالة والمرتبة والطبقة والمجد الغابر، كلها محفوظة، مغلّفة بغطاء من الصوف الإنكليزي، غطاء أحمر محزوم بحبل جُدل من خيوط الذهب والفضّة في منأى عن الرياح والشقوق، بعيداً عن الرطوبة والعين الشريرة الحاسدة، «فاس» ابتلعت الحب المجنون، ولن يأتي أيّ فارس ليمنح المصداقية للأسطورة، ولن تلقي أية امرأة فستانها وسلاسلها عند باب المسجد قرب مدخل المدينة، ولن يستولي الجنون على أيّ رجل فيذهب ويحطم مرايا القرون والأجيال ويتغنّى بالبراري المهجورة والمدن التي يولد فيها الناس، والمدن التي ولدْتُ فيها تسير بي وتنبش الحجارة والجماجم، أنا مقبرتها، حقلها المسوّر، المغلق، حيث تتكدّس العظام، حيث لاتتوقف أية روح، ولاتهبط أية سماء، ولايصل أي محيط. أنا بستان محاط بحاجز حيث تأتي لتتزاوج الكلاب والحمير، المدن التي هي مسقط رأسي كالوجوه المتورّمة تنزلق عليها الكلمات، ورشة عمل في أقصى درجة من النشاط والحركة، ضحكة قبيحة، صوت بلا حرارة، لسان ممدود وعينان جاحظتان، هذه المدن تجمّعت وانتظمت في مكان خيالي وفي عصرٍ وهمي مع شخصيات

مخضبة ومموهّة وقامات محجّبة، حيث يوجد صوت يدّعي أنه صوتي ويعتقد أنه يتذكّر، وأنا لاأعرفه وكل مايعلنه بقوة وبمثابرة وحتى بصورة رسمية واحتفالية لايعنيني مطلقاً، ما أعرفه أنا، هو أنّ: مسقط رأسي، المدينة التي ولدت فيها قد ملأت فمي بالتراب، بالرماد وبمقاطع الكلمات، وأنا أعيدها الآن إلى المسافر المستعجل، ليذهب وينشرها في مياه الوادي الذي يغمره الفيضان، عند ذلك أستطيع أن أغادر «فاس» نهائياً وأنام زمناً طويلاً بين ذراعي إحدى المحظيّات، روح ضالة لكنها حنونة وإنسانية، ويمكنني أخيراً أن أسير دون أن تمزّق الحجارة أصابع رجلي، ودون أن تحصرني بغلة إلى الجدار في أحد الشوارع الضيّقة وتسحقني. كم من مرةٍ تعثرت قدماي بالحجارة المغروسة بالأرض، وكم مرةً اصطدم رأسي بجسور وعوارض خشبية منخفضة، بأبواب مقفلة بالمزلاج على أسرار وخفايا عظيمة. النهر العكر تنتشر منه رائحة الفضلات والبراز، رائحة خانقة، تلذع المنخرين. لم يعد ذلك النهر يجرف رأس حصانٍ منحنٍ، بل أعضاء جسمٍ بشري، هذا ما يبدو لي جيداً، فقد تبيّنت ذراعاً ورِجلاً داخل حذاءٍ، وقد عاقتني قوة التيار وسرعته من التدقيق والتحقّق من كل شيء، فانطلقت مع صورة سريعة لجسم متفسّخ يصطدم بالحجارة، أما الحصان الفاغر الفم فكان لابدّ له أن يبتلع الجسم المجهول. سرت بمحاذاة النهر وحاولت إعادة تركيب لغز الجسم الذي أُلقي به من أعلى مجرى النهر، وهو بلا رأس بلا وجه وبلا اسم، يمكنه أن يكون لجميع الناس، فهل يوجد، يا عباد الله، وجه يمكن أن يكون قد فقد جسمه، رأس، ربما فصله أحد عن بقية جسمه، وهل يوجد في تلك السوق التي تباع فيها الأشياء المستعملة والعتيقة، اسم للأعضاء والهيبة الغائبة؟ لاأحد يجيب، أذرع تحمل وتنقل فساتين عتيقة، أصابع تعلّقت بها أحذية قديمة، فم مفتوح يصيح معلناً أرقاماً، خمسة عشر، سبعة عشر، واحد وعشرون، قال واحد وعشرون، وأنت، ماذا تقول، ثلاثة وعشرون، انتهى بثلاثة وعشرين، من يزيد ويقول أكثر، لن

أقول أفضل، خمسة وعشرون... سوق المزاد فردوس بالنسبة لأولئك الذين يستيقظون قبل شروق الشمس، هو يحترق، يذهب ويعود، إنها الحياة التي تصعد وتهبط، أنظر إلى الباعة: إنهم باردو الأعصاب، لايبدو عليهم التأثر، أراقب المشترين: تماثيل نظراتها قلقة. أبحث عن رأسٍ يذهب ليلتقط الجسم من النهر، الرؤوس يمكن رؤيتها بوضوح، وبواسطة قضيب، أتحسّس ماذا تخفي الجلابيات، أوجّه ضربات خفيفة، فأقع على عظام سيقان قاسية، أبحث عن الفراغ، ربما كان ذلك الرأس ذو العينين الذابلتين موضوعاً فوق وتدٍ عالٍ ولايوجد شيء تحت الجلّابية، لماذا يجذبني هذا الرأس وكيف أقول له إن جسمه يمكن استرجاعه، وإني رأيته يدخل في بطن الحصان الميت، الذي كان منتفخاً. الجوّ حار في هذه الساحة التي يمكن أن يُباع فيها الخدم بالمزاد العلني، تأمّل هذا الرجل الذي يحاول جاهداً أن يبيع ستائر ممزقة أو أكلتها العثّة، يبدو أنه على استعداد لبيع أيّ شيء وأيّاً كان. أركض لأسمع خفقان قلبي، أمشي قفزاً على الحجارة، أبصق عندما أرى هرّاً ميتاً، أختبئ تحت عتبة باب عندما أرى حصاناً بلا خيّال. امرأة شابة تخرج باكيةً، طالبةً النجدة. هي قادمة من ذلك الشارع المظلم، تولول وتشتم الأقدار: لماذا أنا بالذات؟ إني لم أتجاوز العشرين من العمر، وجسمي، انظروا إليه، إنه فتيٌّ وجميل. مزّقت جلابيتها ورفعت فستانها. امرأة عجوز ألقت عليها غطاءً: يا للعار، لقد أخجلتنا بعملك هذا، أنا لاأعرفك، لكن لو كنت ابنتي ـ وليحفظني الله من ذلك ـ لأحرقت لك ثدييك وخُطت فرجك، لكنك أجنبية، لابدّ أن أمك ليست صالحة ولاشريفة، فليغفر لها الله، تعالي معي، سأعمل على تهدئتكِ. كلّا، دعيني وشأني، فزوجي مجنون. رأيته يهيّء السكين، سوف يذبحني، أنا أعرف ذلك، إنه القدر سحابة سوداء تخيم على حياتي، ومازلت في العشرين من عمري، أنا وحيدة في هذا العالم، أنتم يا رجال الخير ساعدوني، هبّوا لنجدة هذه الفتاة المسكينة التي يضربها رجل مجنون، لكن لماذا لايتوقف أحد، ليس هنالك مايخيفكم، تعالوا

معي وسترون بأنه مجنون. ياللفتاة المسكينة! ليكن الله في عونها وليأخذ روحها الضالّة! التفتت المرأة الشابة نحو الجدار، وأخذت تبكي بكل قواها وتنطح الحجارة برأسها. فتدخّل أحد الرجال، كان من المارّة، مجهولاً لايعرفه أحد، ربّما كان أجنبيّاً، لم يقل شيئاً، فهو قادم من مكان آخر، من بعيد، اقتادها خارج ذلك الزقاق، ربّما إلى المستشفى. خرج الزوج من البيت غاضباً، قميصه ممزّق، يمشي بصعوبة، بيده اليمنى سكين ويبحث عن زوجته دون أن يتكلم. أوقفه أحد رجال الأمن، انصاع للأمر، ساد الهدوء في الشارع، كان على الحائط بعض آثار الدم وفي إحدى الزوايا شحاطة نسائية.

طلع الصباح. مازالت «فاس» تغطّ في نوم عميق. الأسطحة خالية ليس عليها أحد. لاشيء يتحرك. أشتاق للبحر، لعرض البحر، للأفق، هذا هو أكثر ما أشتاق إليه في هذه المدينة المدفونة تحت الأرض، المحرومة من البحر، المدينة الخفيّة التي لالون لها ولا أفق. وأنا أغادر «فاس» كما يهجر المرء زوجة خائنة أو أمّاً فاسدة.

سافرنا بالقطار إلى «طنجة». كنا على عجلة من أمرنا وسرنا على رؤوس الأصابع عند الفجر، كاللصوص والمجرمين المخطئين حقاً. وأنا أعرف أنّ المرء لايمكنه مفارقة مسقط رأسه أبداً، فهو يلاحقك أينما ذهبت، ويبعث الكوابيس في نومك، والأحلام التي تنذرك وتحذرك مما سيحدث لك، والنداءات التي تطالبك بالانصياع إلى النظام وإلى العودة. يدعك تموت في أي مكان لكنه يصرّ على أن يتغذّى من جسمك. وفي كل يوم تعود الأجسام إلى مسقط رأسها من جميع الجهات الجغرافية، إذ أنّ نداء الأرض مكتوب في صحيفة القدر، ولا مهرب منه.

لم يكن القطار مريحاً. إذا كان في مقصورتنا امرأة بدينة، ظلّت وهي تُرضع طفلها تأكل خبزاً مدهوناً بالزبدة الممزوجة بمسحوق الثوم المسلوق وانتابنا الغثيان الواحد بعد الآخر. كان كل شيء

تنبعث منه رائحة كريهة. فأشعل أبي سيجارة لتنقية الجوّ. فقالت له المرأة بأنها لاهي ولا الطفل يتحملان دخان التبغ، فخرج أبي إلى الرّواق وهو يمسك بخاصرتيه متحاشياً الشعور بالتقيؤ. هيّأت المرأة فطيرة وقدّمتها لي فرفضتها. استاءت وقالت لي وفمها ملآن: طعام الله لايُرفض أبداً! فأخذت أفكّر: إني آمل أن يكون الله أكثر رحمة ولايسمح بمزج الثوم مع الزبدة! وخرجتُ. راحت أمي تضع رأسها بين يديها لكي تقاوم الحنين إلى الأرض الذي زادت من حدتّه تلك الرائحة الكريهة المنبعثة من ذلك الطعام. كان أخي نائماً، وأنا أبذل جهداً كبيراً كي أكفّ عن التفكير في جهنم، حيث لابدّ أنهم يقدمون فيها هذا النوع من الفطائر. طمأنني أبي قائلاً: «في جهنم لاأحد يأكل». قال ذلك بلهجة صريحة وجازمة. فكيف عرف هذا؟ يبدو أنّ الوقت لم يُصنَع في جهنم إلّا لكي يفنى، إذن، فقد كان أبي محقاً ومصيباً فيما قاله. لم تعد المرأة تأكل. لقد استسلمت للنوم وأخذت تشخر وهي فاغرة الفم. كيف يمكن التخلص منها؟ هل نفتح النافذة بكسرنا الزجاج ونقذفها إلى الخارج؟ ربّما استيقظت. كلّا. أنضع خرقة في فمها ونخنقها؟ كلّا. يجب أن نكون واقعيين. إنّ «فاس» لاتغفر لمن يغادرها. وهذه المرأة هي «اللعنة» بل المصيبة الحيّة الموجّهة لنا من قِبَل المدينة الناقمة علينا. يجب أن تكون قد أُرسلت ووُضعت في مقصورتنا من قبل سادة المدينة السرّيين. الواقع أنّ أخي لم يكن نائماً، بل مغمى عليه. عائلة هشة! كنت أنا أحمل شهادة بضعفي وهشاشتي تُعتبر كإجازة مرور عند الحاجة. لابدّ أن أخي يغارُ منّي ويحسدني عليها.

نزلت المرأة وغادرت القطار في محطة «مكناس». فصدر عن أخي تعليق خبيث، من نوع: «لقد كان برّاد اللحّام معطّلاً... ولحسن الحظ فإنها قد انصرفت». احتلّ مكانها مسافران نحيلان وشاحبان. لابدّ أنهما من مدخّني «الكيف»، فقد رأيت غليوناً بادياً من إحدى جيوبهما. لم يتكلّما أبداً، فقد أغمضا عيونهما بسرعة واستغرقا في النوم.

أخرج أبي جوازات السفر وأخذ يتفحّصها. كل مافيها نظامي وقانوني، حتى وإن كان قد حدث غش في تاريخ ولادتي كي أُقبل في المدرسة. فقد كنت متخلّفاً سنةً بسبب مرضي، فشوّش ذلك التاريخ الحقيقي لمجيئي إلى العالم. وحتى اليوم يروق لي أن أحافظ على هذا الالتباس. كان أمراً مسلّياً بالنسبة لي أن أسمع رفاقي في الصف يعلنون بدقة تاريخ ميلادهم. أمّا أنا، فكنت أتردّد دائماً بين 1944 و 1943 ، الساعة العاشرة من صباح يوم خميسٍ، في نهاية أو بداية أحد فصول السنة، ربما فصل الشتاء، وعلى أيةّ حال لم يكن الصيف لأنّ جدتي كانت مصابة حينذاك بالرشح، وزيادة أو نقصان سنة، أية أهمية لذلك! فالوقت بالنسبة لي في ذلك الحين شيء يحدث إلى الأمام. كان يروق لي هذا الغموض في الولادة، فهو يجعلني في منأى عن مظاهر الثقة واليقين.

أنا وأخي كان لنا جواز سفر واحد. كنت أنظر إلى صورة الهوية وأضحك: كانت وجنتاي البارزتان تكتمان ضحكة مجنونة. وهذه هي أول صورة لي، كدت يومها أجنّ فرَحاً، كنت منفعلاً، لاأستطيع كتمان الضحك. رغم أنه لم يكن هنالك مايبعث على الضحك، لكنّ مجرد حصولي على صورة لوجهي كان يثير انفعالي واضطرابي. فأيّ وجهٍ أقدّم لآلة التصوير؟ كنت أعرف بأنه ينبغي أن أبدو جدّياً، وأتردّد بين الولد الوقور الذي كنت والصبي اللاهي واللامبالي الذي أريد أن أصبح. لكن لاهذا ولاذاك. لقد اخترت وجهاً ثالثاً، ذاك الوجه الذي يضحك من لاشيء وبلا سبب، يضحك على نفسه، ويضحك لمجرد أنّ عليه أن يتّخذ تعبيراً معيناً. لم أكن فخوراً بهذه النتيجة لكنّ ذلك كان يلائمني تماماً. وقد تكيّفت وتطابقت مع البديل الذي صنعته لنفسي.

ماهي قصة البديل هذه؟ ولماذا أدّعي هكذا بأني ابتدعت بديلاً؟ أكان ذلك بدافع الرفاهية والسهولة أم بدافع الخبث؟ وماهي جدوى

ذكر هذه الواقعة التي لم أشعر بها إلّا بعد زمنٍ طويلٍ؟ إنّه لمن الأفضل البقاء في القطار ورواية التتمة.

كان القطار سريعاً وخاصاً بالركاب، ينطلق دائماً في الوقت المحدّد، لكن لاشيء يضمن ساعة وصوله، وذلك بسبب الجمارك الإسبانية المتمركزة في «عرباوا»، والحرس المدني الذي يبحث عن الوطنيين ويحتفظ بالقطار بكامله كرهينة، بعد أن يوقفه ويطلب من المسافرين مساعدته في تفتيشه. فكان بعض الأشخاص المتحمّسين أو الذين لايدركون أهمية هذا العمل يشون بجيرانهم في الحافلة نفسها وذلك لكي يحرّروا القطار، ويتابعوا رحلتهم. ونادراً مايحدث هذا. بدا أبي قلقاً خشيَةَ أن يُفتّش. كان يروق للإسبانيين إذلال المغاربة وإشعارهم أنّ تلك البلاد لاتخصّهم لافي الشمال ولافي الجنوب. ورجال الجمارك الذين يضعون القفازات في أيديهم، كثيراً مايدخلونها في جيوبنا بكل خشونة وعنف. فقد أخذوا ساعة أمي ذات السوار الذهبي واقتادوا معهم أحد الرجلين اللذين كانا نائمين قبالتنا. هدأ روع أبي. فهو قد خبّأ في زنّاره كل ثروته. وهي ليست ضخمة. قليل من النقود. أمّا أمي فكانت منزعجة وخاصة عندما قال لها لمشاكستها قليلاً: «ليس الأمر خطيراً، على أية حال فأنت لاتجيدين القراءة!» ولم يكن ذلك صحيحاً تماماً. فهي قد تعلّمت من تلقاء نفسها قراءة ساعة الجدار في بيت ذويها. ووصلنا إلى «طنجة» في ساعة متأخرة من الليل.

كانت المدينة تشعّ بالأنوار، والبحر يبدو كبقعة كبيرة سوداء، تنيرها أشعة القمر الذي كان بدراً في ليلة تمامه. الأنوار تتلألأ من المرفأ إلى الجبل. سماء مزدانة وكأنها في عيد، وتكاد تكون اصطناعية. كلّ شيء يشع ويتلألأ في هذه المدينة. عند ذلك نسيت الغثيان وكل ماعانيتُه من مشقة في تلك الرحلة. وأخذت أرى في هذا المنظر سحر اللعب، الكذب والهروب. كنت أتنفّس بعمق وأستنشق رائحة البحر كطريقة تجعلني أشعر بنشوة السكر، وبالعمل على

الخلاص. التحرّر من وجود «فاس» الرّطب والدّبق، من شوارعها الكثيرة الحصى والحجارة، ومن مسيلها في ذلك الوادي الذي يشق الأرض كأنه القدر، أو إشارة تنذر بالموت.

كنت مستعداً للمغامرة، نوع من الحرية يدفعني إلى الجرأة: النظر إلى البحر، لمس الزّبد، ملامسة صدور النساء، تخزين الصور من أجل سكنى الليل والهروب من العزلة والوحدة.

رائحة طحالب، عطر غريب وأحياناً لاذع ينبعث من أمواج البحر الأبيض المتوسط الأخيرة. أسماك ضخمة مشقوقة، مقطّعة شرحات، ملقاة على طاولات مغطاة بالتوتياء، نظرات تائهة تبحث عن غزوٍ وصيدٍ جديد، أيدٍ رشيقة تلوّح في الهواء بحزم الأوراق النقدية، أيدٍ تبيع وتشتري النقود، صائغون يبدّلون العملات الصعبة، بحارة يبيعون تحت ستار جلّابياتهم السجائر الأميركية وزجاجات الكحول، حاخامات ينزلون في شارع «الصاغة» يسيرون ببطء شديد، صبيان يمتدحون السعادة والعذوبة في أوتيل «باكيتا» الذي استقبل لتوّه مجموعة لامثيل لها من الفتيات الجميلات، جميعهن لم يتجاوزن العشرين من العمر، بيض وشقراوات قادمات من جزر «الكناري»، وسيّاح يتبعون دليلاً كبير الكرش. أيدٍ باحثة تمر على أرداف الأجنبيات، رجل يذبح ديكاً عند مدخل المسجد، إنكليزية تصاب بالإغماء، شرطي إسباني يشرب البيرة في المقهى المركزي. شاعر أميركي يدخّن «الكيف» ويداعب صبياً يجلس على ركبتيه، رجل عجوز يرتدي الملابس البيضاء، يمتدح بأعلى صوته الفضيلة والأخلاق الإسلامية، وآخر ينادي إلى الصلاة ويدعو لمقاطعة المنتجات الأميركية وفي مقدمتها «الكوكا كولا» التي تموّل الصهاينة، مكبّر للصوت يذكّر بمباراة الموسم: «طنجة» تقابل «تطوان»، امرأة بقميص النوم تنزل من سيارة جيب للشرطة، تشتم فرج أمّ الشرطة الاسبانية التي ترتدي سراويل ممزّقة، بائع متجول يمتدح نعنع وحمّص «الفهس»، هندي يُشعل قضبان البخور على باب دكّانه، شارع يتجه صعوداً وساحة تدور، شجرة حور كبيرة تلقي

ظلّها على مقبرة الكلاب. حشد من السيّاح يركضون وراء دليلٍ أصيب بالنسيان وفقدان الذاكرة، جدار صغير بني بحجارة دون ملاط بمحاذاة شارع «باستور» يجلس عليه الكسالى والخاملون، صبي يبيع أربطة أحذية، «اسماعيل ياسين» في الجيش فيلم أُعلن عنه في سينما «فوكس»، وسينما «روكسي» لاتعرض سوى أفلام «م.ج.م»: (مترو جولد ماير)، وقد أُعلن عن «رواية مارغريت غوتييه» وفيلم «لافيوليتيرا» يُعرض في سينما «غويا»، أحد حراس السيارات يرتدي جلابية ويضع على رأسه قبعة مستديرة يتمشّى على الرصيف، وهو يردّد: «إني أحد الرعايا الإنكليز وأنا تحت الحماية البريطانية، والسفير السرّي لصاحبة الجلالة الملكة!» وأحد ماسحي الأحذية يقذفه بالحجارة، هناك شارع يتجه نزولاً، أشجار نخيل تنحني، نوافذ تُغلق، الغسيل يطير من على الشرفة، فقد وصلت الليلة الرياح العاصفة، أغلَنَ ذلك البارحة في المقهى أحد البحارة، ولابدّ من حدوث ذلك عندما يكون القمر بدراً، وهي تبدو وتعلن عن قدومها بإحداث تموجات صغيرة بيضاء في المضيق. صاحب المقهى ثائر الأعصاب، الشاطئ مقفر، كان من المتوقع أن تهبّ في نهاية الأسبوع، لكنها وصلت كأنّ الشواطئ الإسبانية قد طردتها ودفعتها بقوة، الأبواب تنصفق بعنف، ونساء «الفهس» يمسكن بإحدى أيديهن قبعاتهن المصنوعة من القش، وباليد الأخرى يعرضن جبن البقر، الرياح الشرقية تعصف بشدة، وتهيمن على المدينة، تنظّف الجدران والشوارع، تكنس الساحات، وتقذف ذرات الرمل في العيون، تقتل الجراثيم وتثير أعصاب التائهين. الرياح الشرقية تقلب كل شيء يكون في طريقها، وتقيم نظاماً جديداً آخر، تُضخم الاشاعات وتجعل المدينة أسيرةً، مستسلمةً للدوخة والدوار، إنها ليست أسطورة، عنفها يبعث على الجنون، وهي تغطي الميناء بأمواج عالية ضخمة بيضاء، وهبّاتها تعصف، تارة طويلة يُسمع لها صفير، وتارة سريعة وقصيرة تضرب وتصفع بعنفٍ، تقلب كل شيء، تمزّق الجو والهواء وتزعزع القبور، حتى الموتى يُبعثون من أبديّتهم، بفعل هذه البليّة

العنيدة وغير المنظورة. وهي تلفّ وتدور إلى مالانهاية، تتوقّف لحظة ثم تستأنف سيرها، وقد مضى على ثورتها عشرة أيام، فعرقلت وشوّشت مخطّطات المهرّبين، بينما يؤكد البعض أنهم استغلّوها ليُنزّلوا البضاعة عند أسفل الحاجز الصخري الساحلي، وقد عُرف ذلك فيما بعد، ووجدوا جسمين ممزّقين على الصخور بعد هدوء الرياح، ولاتجرؤ شرطة الشواطئ على مجابهتها، ولحسن حظ المهرّبين أصبحت السجائر الأميركية نادرة الوجود في الأسواق، والذنب يعود للرياح إذا كان جدار الكسالى لايشغله أحد. فالجميع ينتظرون فترة الهدوء، ويصلّون ويدعون كي تهدأ تلك العاصفة المخيفة. في اليوم الثالث عشر يبدؤون بلعنها، وعندما تنصرف يخيّم على المدينة هدوء غريب مشوب بالحذر، كالجو الذي يسود بعد عاصفة عاتية تدوم طويلاً، أو بعد حادث غرق، ويصبح الناس وديعين، يتبادلون المجاملات والعبارات الوديّة، فقد روّضتهم الرياح، ويبتعد القمر، وتُعاد الموائد والكراسي إلى الأرصفة، يتعانق العشاق المتخفّون في البقاع المهجورة، ويفتح الناس النوافذ من جديد، يستبدلون الزجاج الذي تحطّم، وينسى بعضهم كلّ ذلك، بينما يشعر آخرون مسبقاً بالزيارة المقبلة ويتوقّعونها، فهل ستكون مخيفة كالزيارة السابقة، وهل سيتحملّون طويلاً هذا الدخيل الذي يحطّم كل شيء؟ هل سيأتي ليفسد فصل الصيف، ويجعل السيّاح يهربون؟ والريح الشرقية هي الشخصية الوحيدة التي تتمتع بالدعابة في هذه المدينة التي تُباع وتُشترى، وهذه الريح أمينة وقاسية، تبذّر الشكّ وتُحدث فجواتٍ في «الروتين» والعادات المتّبعة. إنها الحدث المرتجل والمفاجئ الذي يمزق سجف الليل، ويترك قليلاً من الراحة لأولئك الذين يحبّون أن يحافظوا على أنفسهم، ويضنّون بأجسامهم وأحاسيسهم وانفعالاتهم.

روائح العشب المقتلع من الأرض تفوح وتنتشر من الحدائق والمقابر، وعندما تختلط برائحة البحر المعطرة، تسبّب الدوخة والدوار. كنت أمسك رأسي بين يديّ، سعيداً بالدّوران حول نفسي،

مأخوذاً بأنغام موسيقية آتيةٍ من بعيد. كنت أمشي في المدينة ولديّ نيّة أكيدة عليّ إغوائها وامتلاكها، وعلى الأقل أن أجعلها تتبنّاني.

في المدرسة، عوملنا، أخي وأنا كـ «فاسيّين» (من مدينة فاس) أبيضين وأقرعين. وكان آخرون يقولون لنا إنّنا من الجماعة التي تسلّم مؤخّرتها، وهنالك أخيراً من يعتبرنا يهوديّين. الغريب في الأمر أننا لم نتأثر بهذه العدوانية، بل تركناهم يغتابوننا ويقولون مايشاؤون. أما الأمر الوحيد الذي كان يمكن أن ينسبوه لنا ويلوموننا عليه فهو أننا كنا تلميذين صالحين، مجتهدين وملتزمين بالنظام، لم نكن متمرّدين بل تلميذين نظيفين، نعتني بدروسنا وبوظائفنا، ولم نكن لاهيينْ ولاغريبي الأطوار. من باحة المدرسة كنا نرى البحر، بإيقاع أمواجه وألوانه المتغيرة من وقت لآخر. وبدلاً من اللعب مع الآخرين، كنت أطيل التأمّل فيه بإعجاب. كان النظر إلى البحر والتأثر بخفاياه وأسراره يشكّل لديّ إثارة صامتة.

كنّا نسكن في بيتٍ مظلم، جدرانه مخرّبة وسقفه مشقّق. ولكي نرى الشمس علينا أن نصعد إلى السطح وننتظر هناك. وقرب مدخله توجد غرفة كبيرة، جعل منها أبي دكاناً له. جارنا المباشر بائع حليب، عُرف عنه أنه يغش الحليب. وفي الجهة المقابلة دكان «داوود» وهو خياط يهودي من أصل إسباني تربطنا به صداقة هادئة وحذرة، لكنها مؤكّدة. ولم تكن تلقى تعبيراً لها بالعناق المطوّل أو بالمجاملات، بل بتبادل أطباق الطعام مرة في الأسبوع، فيوم الجمعة كان يأخذ إلى بيته طبقاً من «الكسكوس» أو «الطاجن»، ويوم السبت، يرسل لنا مع خادمته، وهي عجوز مسلمة، قِدراً من «الشخِينة». وهكذا كنّا نتواصل بانتظام. وعندما حدثت حملة السويس، أغلق دكانه لبضعة أيام، ثم أتى لزيارة أبي وقال له: «مهما حدث نظل أصدقاء، أبناء عمومة وأخوة!» ثم استمر تبادل الطعام بصورة طبيعية إلى اليوم الذي اختفى فيه دون أن يخبر أحداً، الأمر الذي شكّل لنا مفاجأة وسبّب لنا بعض الضيق. لقد أخبرنا بائع الحليب بأنه رآه ينقل حوائجه أثناء الليل.

كانت الأوقات عصيبة ولم يكن مزاج أبي دائماً على مايرام. فقد عمل طيلة حياته، وهاهو يجد نفسه وقد بلغ الخمسين من عمره، فقيراً كما كان في بداية عمله. فقد غادر منزل أهله وهو في الثانية عشرة ليلحق بأخيه الأكبر الذي هاجر إلى «مليلة» التي يحتلها الإسبانيون. هناك أخذ يعمل مع المهرّبين الذين ينقلون السكّر والطحين من القطاع الإسباني إلى بقية المناطق المغربية. وقد تعرّض أثناء ذلك للجوع والبرد. عن تلك الفترة من حياته، مايزال حتى اليوم يتحدث بحسرةٍ وغضبٍ. إذ بعد حفظه القرآن في «الكتّاب» كان عليه أن يهجر كل شيء، ويُغادر لكي يكسب معيشته.

كنّا، أخي وأنا، حبّهُ بل همّه الوحيد. أمّا أمي فكان يعاملها بخشونة ودون مداراة. لم تكن تجد ماتقوله، بل تختزن وتصبر على صراخه وعلى نوبات غضبه. وكنا نشهد صامتيْن وقائع ومظاهر تلك الحياة الزوجية المضطربة التي لايحسدان عليها. كان يأتي لزيارتنا، من وقت لآخر، ابن عم لنا غريب الأطوار، ويمكن القول أنّ به مسّاً من الجنون. يعيش على هامش الأسرة، المؤلفة من أفراد مقتصدين يحسبون حساباً لكل شيء ولذلك كان يمثل بينهم عنصراً طريفاً وجذاباً. وكثيراً ماكان يقول بأنه تزوج امرأته ليتمتع بحضنها الدافئ حيث يضع رأسه وينام. عندما يأتي يجلب معه بعض تخيّلاته إلى خلفية تلك الدكان وذلك البيت المظلم والرطب. كان يلهو، وهو المعلم، بإضافة آيات من نسج خياله، بل وبعض الكلمات السمجة إلى القرآن الكريم. ولم يكن يمتنع عن صيام رمضان وحسب، بل يتناول الكحول أيضاً، ويصرّح بذلك علناً على مسمع جميع أفراد الأسرة. كانت جرأته تروق لي. وذات يوم أتى وقال لأبي: «قدّم لي التهنئة! هيّا هنّئني! لقد انتهى زمن العسر والضيق! وارتحت من العمل في الدكان! لقد وجدت وظيفة لولدك، وهي تليق بذكائه وجدّيته. وسيتناول في بداية عمله، خمسين ألف فرنك في الشهر، أي مايعادل تقريباً أكثر من سبعة آلاف «بيزيتا» (وحدة العملية الإسبانية) بالسعر الحالي. إنها مهنة عظيمة، فسوف يصبح ابنك «موزع بريد»، يوزع رسائل الحب والبطاقات البريدية القادمة

من جميع أرجاء العالم، حتى تلك المرسلة من الصّين. وسوف يصبح رجلاً محترماً، محبوباً، تنتظر قدومه جميع البيوت، وتتمنّى الزواج منه كلّ البنات الجميلات. فما رأيك في ذلك؟ إنه أمر عظيم! أليس كذلك؟ هيا عانقني!...».

فنظر إليه أبي طويلاً، ولم تضحكه تلك القصة. ثم قال له: «لابدّ أنكَ شربتَ كثيراً صباح اليوم! هيا، انصرف، ولاترجع إلا بعد أن تسترد وعيك وعقلك... إن ولديّ سيذهبان بعيداً عن كل هذا... طبيب أو مهندس!».

ياله من مسكين! لقد اعتَقَد بأنه يقوم بعمل من أعمال الخير. ولم يجرؤ، بعد هذه الحادثة أن يأتي إلى بيتنا، فاشتقنا إلى دعاباته. لكنه عاد ذات يوم هادئاً متحفظّاً، يرتدي جلّابية بيضاء وفي يده مسبحة الصلاة. كان ذلك يوم عيد المولد. وشارك معنا بالاحتفال بذلك اليوم المقدّس، يوم مولد النبي محمد.

أنظرُ إلى البحر تَلَخْبَطَتْ تسريحتُهُ، تحيط به الأنوار الخافتة المنتشرة على الشواطئ الإسبانية، وقد تدثّر بغطاء أبيض يمتد من رأس «مالاباتا» إلى صخرة «جبل طارق»، أثبّت منظره على صور عذراء وأصطحبه معي أثناء عبوري فترة النوم. أسكن البحر، منزوٍ في غرفة رطبة، أصب على نقرته عاطفة الرمال المشبوبة، جسدٌ علويٌ أتخطاه وأنا أقلّب الفصول وأقاطع الروائح، فمي الممتلئ بشعره يمسك بثوبه، أسير على شاطئ يتلألأ فيه الحلم ويرتجف الطائر المهاجر، أستلقي، وجهي كنبات السرخس، مستندٌ إلى جبين البحر المتجعّد، أفتح الأبواب للنساء اللواتي ألمحهنّ على الشاطئ، تغمرني الموجة ذاتها حتى الفجر، في هذا السرير الذي أشعر فيه بالبرد على هذه الوسادة المكوّنة من الرمل والزّبَد.

أنظر إلى البحر وأحلم بأجساد الفتيات.

أجّرني أحد رفاقي في المدرسة ليوم واحدٍ مجلةً فيها صور نساءٍ عارياتٍ، مقابل «بيزيتًا» في اليوم. احتفظتُ بها وخبّأتها تحت قميصي. أطلعت أخي عليها على السطح وفي زاوية منعزلة. شعرنا بخيبة الأمل لأنّ النساء لم يكن لهنّ فرج، بل يوجد مكانه مثلث صغير بلون البشرة وكثيراً ما أثار دهشتنا وحيرتنا. ولحسن الحظ كانت تبقى لنا الأفواه اللدنة والجميلة والصدور البارزة. راحت المجلة تنتقل من أحدنا إلى الآخر، وكلّ منّا يقوم بزيارة مطوّلة لدورة المياه. فالجنس هو تلك الصور الوردية المبتورة التي كنت أتفرّس فيها وأكتشفها في العزلة. كان أيضاً جميع النساء اللواتي أراهنّ يمررن في الشارع وأحضرهنّ إلى سريري في المساء قبل أن أنام. كانت هنالك زوجة بائع الحليب وهي فتيّة، لكنها فظة وسوقية، تدير الدكان في غياب زوجها. تقدّم لي كوباً من الحليب، وأنا واقف وراء المكتب، وأثناء ذلك تقوم بمداعبة شعري بيدها المبتلة... ثم يحدث لي أن أندسّ في الزحام بين الجمهور لأشمّ رائحة أجساد النساء، وأظلّ منتبهاً ليديّ خشيةً أن تخونانني وتمتدان للتفتيش تحت جلبابٍ أو فستانٍ. كنت أتحدث عن ذلك مع أخي الذي كانت تساوره الوساوس نفسها. لم أعد أطيق تلمّس جسمي تحت الأغطية، وكبت الرغبات وإرجاءها دائماً إلى ذروة الانتظار. لذلك قرّرت أن أقع في الحب وأصبح عاشقاً.

اخترتها شقراء وأجنبية. كنت أتفرّس في صورتها وأستغرق في الأحلام. إنها طالبة في الثانوية الفرنسية، وأنا في المدرسة الثانوية المغربية. كنت أسرع كل يوم لأنتظرها ساعة الانصراف. كانت تتجاهلني فأحمرّ خجلاً عند مرورها وأعجز عن الدنو منها أو قول كلمة أو سؤالها عن الساعة. خجلٌ مرضيّ يسمّرني في مكاني. وقد اخترتها لتهدئة هيجاني الجنسي الذي كان يضيع في عملية استمناء مفرطة ومنتظمة تلك العادة التي تسمى «العادة السريّة» أو «Paille»(1) الترجمة الحرفية لكلمة «Paja» الإسبانية. كنت أنشد

---

(1) paille : تعني قشة.

الهدوء فاكتشفتُ العار. فهذه الفتاة خُلقت للحب العذري الطاهر وليس للجنس. كانت تحمل اسماً معبراً: «أنجيل». على أية حال، كنتُ عاجزاً عن لمسها. الخجل. الخطأ، كنت أشعر أني مذنب عندما أستذكر صورتها في دورة المياه عندما أتخيلها وأكتشفها رويداً رويداً فأمرّ بشفتيّ على نهديها وعلى عانتها، بمثل ماكنت أشعر به عندما أنساها بصورة متعمّدة، مفضلاً عليها الصور الفاحشة والمبتورة التي في المجلة. وأخذت أحلامي طابع التكرار وألوانها أصبحت باهتة وذابلة. لم أعد أستطيع الانتظار، وقرّرت التصرف فكتبت لها رسالة كان على أحد جيراني، وهو تلميذ في صفها، أن يسلمها إياها:

آنستي العزيزة

أنا شاب مغربي يأمل بالتعرف عليك ليقدم لك صداقته آملاً أن يحظى بصداقتك. ليس لديّ أية أفكارٍ أو نوايا سيّئة. أرجو أن أتلقّى منك جواباً إيجابياً ومشجعاً.

أرجوكِ يا آنستي أن تتقبّلي فائق تقديري.

وبالطبع لم أتلقَّ أبداً أيّ جواب. كنت أعرف أني سخيف ولكن مع ذلك كان يجب الانتهاء من هذا الموضوع. لقد خاب أملي، ولكن ممّا يدعو للاستغراب أني كنت مرتاحاً. فقد عملت ما يجب عمله كي أصبح عاشقاً. الفشل لم يكن يسوؤني. وكل مافعلته هو أني قلبت محبرة على دفاتري كي أبرهن لنفسي بأنني كنت غاضباً.

التحقت فيما بعد بالزمرة العالمية اللاهية واللّامبالية في الثانوية الفرنسية، آملاً في سرّي أن أحظى هناك ببعض اللقاءات الغرامية. كان التلاميذ الأوروبيون يترافقون فيما بينهم، ووجدت نفسي من جديد بين جماعة «العرب». حصل هذا في زمن حرب الجزائر. وكان بعض رفاقنا الجزائريين يذهبون للالتحاق بجبهة التحرير الوطنية، والفرنسيون يعيشون هاجس إرسالهم لتأدية خدمتهم العسكرية في جبال «الأوراس». أما العلاقات فيما بيننا

فعدوانية في معظم الأحيان. وأنا الذي كنت أعتقد أنني حقّقت تقدماً اجتماعياً بانتقالي من مدرسة إلى أخرى، اكتشفت بدلاً من ذلك عنصرية وقسوة التاريخ. رفاقنا الجزائريون الذين كانوا يذهبون لم يعودوا ولم يصلنا أي خبر عنهم. لم أعد أفكر بفتيات المستعمرة الفرنسية الجميلات. وعلاوة على ذلك فقد أخذت أهتم بالسياسة، وشعرت بولهٍ شديدٍ بمدرّسة الفلسفة، وهي شابة متميزة لم تكن تكتم آراءها السياسية. كانت ماركسية، تدعو الطلاب العرب إلى الاجتماع في منزلها. كان بيننا فرنسيان أو ثلاثة يؤيّدون قضية استقلال الجزائر. والمرة الأولى التي سمعت فيها حديثاً عن «العالم الثالث» حصلت في منزلها. وكثيراً ما كانت تقرأ لنا صفحاتٍ من أعمال الكاتب «فرانز فانون». كنا نتبادل كتابه: «المعذّبون في الأرض» وننسخ بعض فصوله. فأثيرت ضدها حملة من الوشايات والاتهامات. اتّهمها بعض أولياء الطلاب بالتخريب وسوء الأخلاق. وندّدت الكنيسة بإلحادها. وقد أحزنها ذلك وأساء إليها كثيراً، بل سبّب لها ألماً شديداً، فمرضت وماتت من جرّاء ذلك، فأصبحنا أيتاماً. بكيتها كما يبكي الطفل الصغير، وحلّ محلها أستاذ كان يدرّس اللغة اللاتينية سابقاً، وهو على مايبدو تقليدي شديد التقيد بالأنظمة والتعليمات. وقد انزعج كثيراً من جِدادنا على مدرّستنا السابقة، ومن عدم اهتمامنا بدروسه.

لقد أتيح لتلك المرأة الوقت الكافي للتاثير على عدة أجيال من الطلاب، ومن بينهم طالب نحيل طويل القامة سبقنا بعدة سنوات، ووقع في سنّ مبكرة في شباكٍ قذرةٍ كانت تغطي المستنقع السياسي. كان يبحث عن والده الذي اختفى، بعد أن اختطفه خصومه السياسيون. وأذكر أن هذا الطالب النشيط، الذكي والمتذمّر، الذي كان أسرع من الزمن قد استطاع إقناعنا بسهولة بوجوب تشكيل رابطة طلابية للدفاع عن المبادئ الديموقراطية. وبعد هذا الإرشاد السريع في التوجّه السياسي، الذي تلقيناه كضياء يؤدّي إلى التحرر،

لم يكفّ ذلك الشاب عن السعي والركض، هارباً من رجال الشرطة، من بعض الأخطاء أو من نفسه هو. إن غياب والده وجرأته، وكذلك كبرياؤه وطموحاته، كل هذا أدى به أخيراً إلى المنفى.

لقد ظل يركض طيلة عشرين سنة، لكن دون أن يضحّي بالدعابة هذه المرّة، لأنه خلال ذلك كان قد تخلّص من بعض الأوهام وأصبح بوساطة قوة الأشياء رجلاً نافذ البصيرة ويائساً إلى أقصى حدّ.

لم أعد أنظر إلى البحر، كان هنالك ظلٌّ من الصمت وطبقة كثيفة من الغياب توضّعت على الأمواج المتوقفة في مكانها، وقد أمسكت بها الأضواء الليلية. أيدٍ عارية تدهن بالكلس الحار جدراناً هشة، وأطفال عاقلون يتبادلون حجارة وصوراً على عتبات البيوت. وبعيداً يبحر الظل لتهدئة السماء. من المقبرة المزدانة بالزهور تنطلق عصافير الدّوري نحو أراضٍ حيث مايزال الرماد حاراً. تنزل يد الشتاء من الجبل الصغير وتهتز عند لقاء الريح. المحيط يتحرك كنائم غير مرتاح في هجعته. وتتحدّد الأماكن في رؤيتي الانفرادية. تسقط عذوبة الأشياء وتبتعد، هزيلة، شاحبة، أكذوبة. فهي فوق في الأعالي، في أحد الملاجئ، محاطة بالمرايا.

يدٌ توضع على كتفي، إنها يد أبي.

IV

لماذا لاتحبّ أباك كثيراً؟ لقد حدّثتني كثيراً عن أمك ولم تقل شيئاً عن أبيك. وعندما رأيتك معه أدركت كم يمكنك أن تكون قاسياً. لاأحد يظنّ أنّ لديك هذه القسوة وهذا العنف، يمكن تبيّن قدرتك على إظهار اللامبالاة ولكن ليس الجفاء في الحديث، وغياب الإشارات والمبادرات التي تنمّ عن روح المصالحة والتهدئة. فأنت عندما تتوجه بالحديث إلى أبيك لاتتكلم بل تصرخ. أنت تلومه على عدم عطفه وحنانه على أمك، وفي الوقت نفسه، تبدر منك تصرفات تُثبت احترامك له: فأنت تقبّل يده ولاتدخن في حضوره، وتقلق جدّياً على صحته. ويحدث لك أن تضحك معه وتمازحه. وتشعر أنك ملاحق ومحاصر بنظراته، منزعج من حركاته وتصرفاته كرجل يعذّبه الحنين إلى «فاس». فقد هاجر إلى «طنجة» لعدم تمكّنه من أن يعمل شيئاً آخر. وقيامه بذلك يشبه عملية النفي. كان يشتاق لفاس ومايزال يشتاق إليها. هو يرفض الاعتراف بأن الزمن قد انقضى وتغيّر، وأنّ «فاس» الحالية لم تعد «فاس» التي يعرفها، ويريد أن تظلّ ذكرياته معطّرةً، مزدانةً بالجمال، لم تمسّ ولم تتغيّر، تنيرها التقاليد. يتحدّث عنها بمرارةٍ. وقد حاول أن يقول لي شيئاً باللغة الإسبانية، فأصغيت إليه. كان سعيداً، وأنا الأجنبية كنت أعير حديثه كل انتباهي. وفي الحال، كان ينظر إليك بحنانٍ، بل بفخرٍ واعتزاز.

لقد اصطحبتني إلى الدكان. فسرّ بذلك وأراد أن يشكرني على زيارتي، وقدّم لي هدية. أنت كنت على عجلة من أمرك وتفكّر في شيء آخر. لقد أعطاني قالب سكر وبعض البرتقالات. وكنت تبدو منزعجاً بعض الشيء. ثم عاد ليحدثني عن «فاس». فهل هذه المدينة تفصلكما عن بعضكما وتُباعد بينكما أم أنّ نزاعاً ما قد حصل، وهو الذي يُربك علاقتكما؟ لقد تخلّيت عن الرغبة بمعرفة ذلك. فأنت تريد المرور بسرعة على هذا الجانب من حياتك. ورغم قوة حدسي وصدق إحساسي وانفعالاتي، فإني كنت أشعر أنّ هنالك سرّاً خفيّاً ولغزاً يصعب حلّه.

وأريتني، ذات يوم، بعض صورك وصور أفراد أسرتك. وقد أحببت بشكل خاص إحدى الصور وأنت تجلس فيها بجانب أمك في الصالون الكبير. هي تبدو جميلةً بملابسها البيضاء وتنظر بعيداً عن العدسة، وأنت وجهٌ ينمّ عن سكينةٍ وصفاءٍ عميقين، وجه طفل صغير، تنظر إلى جهة أخرى. والانفعال هنا يبدو مكتوماً. لست ملتصقاً بأمك، بل تفصل بينكما مسافة صغيرة جداً. ربما يكون هذا هو الحياء: مسافة صغيرة تُبعد وتُقرّب. أنت جالسٌ تمسك ركبتيك بيديك ومستسلمٌ لصمتٍ عميقٍ.

وفي صورة أخرى، تبدو واقفاً على عتبة الباب بجانب والدك، وقوراً جدّياً، متوتراً. ووالدك يقف أمام العدسة كشيخٍ جليل، رافع الرأس، كأي شخص فاضل. وأنت، كأنك تقف لتشاهد ذلك، عليك أن تكون هناك، تشعر بالملل، تفكيرك يتجه إلى مكان آخر. وجسمك يقوم جيداً بدور الممثل الصامت.

ومن صورة إلى أخرى نجحت بتخطي البحر. ومن وجود يتّسم بالصفاء والسكينة وبشيء من التواطؤ والتحريض، تحوّلت إلى شفافية مجمّدة ومسمرة في موضعها.

في ذلك اليوم نفسه أريتني صورة لك مع فتاة سمراء، وأنتما متعانقان على الشاطئ. كان في مجمل الصورة شيء يدعو إلى

التأثر. أخذت أنظر إلى ذينك الشخصين الفتيّين والجميلين وأتفرّس بكَ: لقد تغيّرت كثيراً. عيناك وحدهما ظلّتا طافحتين بالنور. لابدّ أنك كنت في العشرين من عمرك، وهي في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة. كانت تبتسم وقد وضعت رأسها على كتفك. وأنت تبدو منزعجاً وقد افترّ ثغرك عن ابتسامة خفيفة. ووراءكما البحر. أثرٌ، بل ذكرى للحظة سعيدة. التفتُّ وقلت لي: «هذه هي خطيبتي الأولى!».

على مستوى الذكرى، فقدت شجرة الليمون أوراقها. شجيرة جافّة، يحاصرها موتٌ بعيد يرسل لها الظلّ. وهي تقاوم في باحة البيت الكبير المهجور، المحكوم عليه بأمر المهندس الذي يريد إعادة الشباب إلى وجه «فاس» المتغضّن والمتعب. ربما كانت هذه الجدران التي تخترقها مياه قوية وقذرة ستنهار عند اقتراب اليد الحاسمة عبر الصمت الذي يبدّد حلم الطفل. هذا نفسه الذي فقد حب ومذاق الدموع، يساورهُ اليوم هاجس الامتداد الواسع والمتغطرس للأضواء الجديدة، وهو جالس على مقعدٍ من الرمال، يشحذ ريشةً من القصب سيغمسها في حبر السّبيدج ليكتب مقاطع مقلوبة، وحروفاً مبعثرةً وتائهةً على لوح خشبي صُقل بقليل من طين الفخّار.

V

خطيبتي الأولى، امرأتي الأولى! الجسد الأوّل الذي ضممته، عانقته، داعبته وأحببته. ارتجفتُ إزاء هذا الجسد، جعلته لي. امتلكته واحتجزته طويلاً بين ذراعيّ. أوجعته. كنت أضمّه طويلاً إليّ وقد أغمضتُ عينيّ وأنا أشدّ عليه بقوة إلى أن تضيق أنفاسي، ثم أتركه وأعود فأضمّه ثانية دون أن أتلفّظ بكلمة واحدة، وحتى دون أن أنظر إلى تلك العينين الجميلتين. وهي لم تكن تقول شيئاً، بل تدعني أفعل ذلك. كانت ساقاها مقوّستين قليلاً، ولكن كان لها أجمل نهدين وجدا في جميع أرجاء المنطقة الشمالية من الكرة الأرضية! نهدان صلبان وثقيلان. لم أكن أداعبهما بل أشدّ عليهما، ولا أقبلهما بل أعضّهما وأمصّهما. كنا نتبادل الغزل في الأماكن والمناطق المهجورة المجاورة للمقابر، ونُفضّل أن نفعل ذلك عند الغسق في الوقت الذي يصبح فيه الضوء خافتاً ويدخل جسدانا في ظلام خطوات الليل الأولى. إذ لا بدّ لنا من أن نختبئ ونضيع بين جذوع الأشجار الدّاكنة، بحيث لا يمكن رؤيتنا، ونتوارى عن أنظار المستائين والحسّاد. كنت أمسك ذلك الجسد بكلتا يديّ فأشدّ عليه وألتصق به بقوّة كما لو كنت أقتحم أحد الأبواب، كما لو كنت أطأ بقدميّ قطعة أرض أو كتلة تراب، وأحاول ضرب الرأس بقوة كما لو أني أرغب بالدخول إليه، وأجعله يتجرّعني ويبتلعني، لأجد فيه ملاذاً وملجأً، أستقر فيه وأتمتع به على هواي بعيداً عن نظرات الآخرين.

أريد أن تحملني في جوفها، فتخرج يداي من داخلها لتضمّا نهديها. أنا الجائع العطشان، المفطوم منذ عدة قرون، المحروم من المتعة، المتعلّق بصوري، المرتد إلى أحلامي الرطبة، المتدثر بأغطية ملطّخة بالمني المبعثر على شكل قشور جافة، وقد أُمسك بي في حالة الانتظار، حيث يتلألأ ضوء خافت بعيد، وأنا متجمع ومتقوقع على نفسي إلى درجة أني أصبحت أكره يدي وهما يمنحان نفسهما لبعضهما أمام مرآة بالية، غائصاً في أفكاري التي تظل هي نفسها لاتتغيّر، ومجمّعاً الصور نفسها المأخوذة لبعض أفراد الجمهور، لأحد إعلانات السينما، أو عن صفحات المجلات، كنت مراهقاً رأسه ثقيل، أصبح مستودعاً للعبارات الجاهزة والمعادة التي تتدافع، تفقد ألوانها، تختلط ببعضها، تختفي وتزول لكي تعود ثانية وقد تبدّلت فلا يمكن التعرف عليها، أصبحت قذرة، جريئة، وقد تحوّلت بسبب إقامتها في آلية الحلم، التي لم تكن تتّسم بالغزل والحب المحرّم، بل بالخلاعة والإباحية.

وهكذا كنت أتقدّم من تلك الفتاة التي لم تكن تدرك كل مايختفي وراء هاتين اليدين، وهذا الرأس النافد الصبر. لم أكن أشعر بالخجل.

كلّا. فلم يكن لديّ وقت للتفكير وللتصور وتحليل سلوكي البهيمي. كنت أستغل ذلك الجسد وأتمتع به دون أي شعور بالذنب أو بتبكيت الضمير. لم نكن نمارس الحب بشكلٍ فعلي. كنا نختبئ وراء الأشجار، وأفرك عضوي على بطنها ونحن واقفينْ، في البرد، خائفَينْ من أن يفاجئنا أحد. فأقذف بسرعة وأنا ألتقط أنفاسي، واضعاً يدي على فرجها، دون أن يبدر مني أي صوت. وهكذا كنا نحصل على المتعة بصورة غير متساوية ونحن مستندين على إحدى أشجار السنديان. يحدث لها أحياناً أن تبكي وهي تضمني بذراعيها، فتسيل دموعها الحارّة على يديّ. لم أكن أفهم لماذا يحدث لها ذلك. وبقيت أهتم بنهديها أكثر من اهتمامي بعينيها الجميلتين السوداوين والحزينتين. كانت نظراتها، في معظم الأحيان، مثقلة تنمّ عن الكآبة.

وكثيراً ما ألاحظ أنها ترتجف تأثراً وانفعالاً عندما أذهب إلى لقائها فأتجاهل ذلك وأتصنّع اللامبالاة. أحياناً أحاول إضحاكها. فتضحك لإرضائي أو لتسخر مني، ولم أكن غريب الأطوار، أو لديّ مايثير الضحك والسخرية، بل ربّما كنت ثقيل الحركة بعض الشيء، وبخاصة، أرعن. هي تعرف ذلك ـ لم يكن من الصعب معرفته ـ لذلك يروق لها أن تثيرني أحياناً من أجل الضحك. فتضحك وهي تكتم المذلة والانتظار، ثم تبكي بصمت متجهةً بوجهها نحو الشجرة، وقد أسندت رأسها على جذعها الخشن، باحثة عن قليل من العطف والحنان، عن يدٍ تلامس شعرها وتداعب برفقٍ مؤخرة عنقها، عن فم يلتقط وشوشتها، ونظرة تلتقي بنظرتها، في لحظة يلفّها الصمت وتُقابل باللامبالاة.

فأين كنت في ذلك الحين؟ كنت أمضي منزعجاً.

كنا نقوم بنزهات إلى الجبل القديم، لوحدنا أو في مجموعة. نلجأ إلى أحضان الطبيعة لكي نلهو ونداعب بعضنا. كانت عذراء ويجب أن تبقى هكذا. وعندما يحدث لنا ـ ونادراً جداً ماحدث ـ أن نلتقي في سرير، كنا نمارس الحب في حدود معينة، ومع احترام هذا الحظر والتحريم: كان جسدانا يلتقيان، يتعانقان، يتواجهان، يثوران، ثم يقنعان ويكتفيان بما هو مسموح به. فوجود التقاليد، والأعراف الاجتماعية، فرض علينا أن تظل حياتنا الجنسية مشوّهة، مبتورة ومكبوتة. حتى أنا الذي أملك أسباباً أقلّ للشكوى، كنت أشعر بعمق، بشدةٍ آثار هذا النقص. كنت أرغب بممارسة الحب بشكل تام وكامل، ولكني كنت معاقاً، ممتنعاً، وأصبحتُ المراقِب الرئيسي لاندفاعاتي الخاصة. لم تعد لديّ أية جرأة ولم أعد أقوى على القيام بأية مبادرة. كانت مقاومتها طبيعية، من نوع طبيعة الأمور ولم تكن محافظتي على عذريتها بدافع من احترامي لشخصها أو لقناعاتها. فقد كنت أنا نفسي ملتزماً بقيود وعراقيل الأعراف والتقاليد. كنت

أشعر أنها جاهزة وعلى استعداد لكل شيء، شاردة اللب عبر نظراتي. وكثيراً ماحدّثتني عن أسرتها بتواضع وتحفظ. فهي تعيش بعيدة عن أمها التي يبدو أنها مسيحية أو يهودية. ونادراً ماحدثتني عنها. وأنا لم أحاول معرفة المزيد بشأنها. إذ يكفيني ما أشعر به من حبٍّ أنظر إليه بتعالٍ. فأنا أمتلكها كسيد لها، كذكر عربي يستغل المرأة ممتنعاً عن أي تعبير عن العطف والحنان، والذي سرعان مايفسّر على أنه دليل ضعف. ولكوني كنت سخيفاً هكذا، وعديم الشعور بالمسؤولية، على الخصوص، فقد تركتها تتولّه في حبها لي. ولم يكن هنالك من مثيل لرعونتي سوى تَبَجُّحي، وأنانيتي الخرقاء.

كانت تُعرّض نفسها للمخاطر، وتتحدّى سلطة والدٍ قاس. تختلق الأكاذيب وتلفّق الحيل المتّبعة عادة في سلوكها مع أسرتها. وفي شهر رمضان تأتي لملاقاتي، في وقت متأخر من المساء، في منطقة مهجورة، فنجلس فوق صخور عالية حيث تبدو لنا أضواء مدينة «طريفة». هناك كانت تبكي وهي تضمني بين ذراعيها بقوة وعنف. فهل تريد بذلك أن تخنقني وتؤلمني، أم تريد القول لي بأنها تتألّم كثيراً؟ وتضع يديها على صدري كما لو أنها تحاول إيقاظ من يمكنه أن يكون نائماً في داخله. لم تكن تداعب جسمي، بل تتلمّسه تلمّساً. ولاتتلقاه وتتقبله، بل تدفعه دفعاً.

كنت شارد الذهن، غائباً عن كل ذلك، أبتعد عن ذاتي دون شعور مني. أذهب على رؤوس أصابع رجليّ وأجلس على أرض بعيدة، على سطح من أسطحة الطفولة. وقد أصبت بفقدان الذاكرة ونسيت نفسي. وكلّما تطوّر الوضع كلّما كنت أفقد ثقتي بنفسي وأكْتشف مواطن ضعفي. لقد أحطت منطقتي الصغيرة بسياجٍ وجلست متدثّراً بقماش رقيق وناعم، وعندما أتنقل أصطحب معي هذه المعدّات إلى أيّ مكان أذهب إليه، جاعلاً بيني وبين الآخرين مسافةً عازلة. أقيم في قفص من زجاج، مستلقياً داخل قنينة، جالساً على كرسي متحرك، أدفع إلى الأمام الهشاشة التي زرعها المرض في عظامي كأثرٍ يرتجف. لايمكن الوصول إليّ. لأنّ الأيدي التي تمتدّ نحوي

عليها أن تعبر الألواح الزجاجية. فتصاب أحياناً ببعض الجروح. والرياح العنيفة وحدها كانت تدفعني وتقلب قفصي وتكسر ألواحه الزجاجية فلا أُصلحها. وهكذا أترك بعض الأجسام تقترب، وأنا عاجز عن تحذيرها. كان عليها، هي، أن تتبينّ العائق. وكانت تأتي، حتى وهي مثخنة بالجروح، وتبقى بجانبي.

وفي أواخر السنة، بدأت أفضّل عينيها على صدرها. ظلّ جسمها يجذبني ولكني كنت أشعر أنّ علي أن أخرج من قفصي. وأفكر بها لأني كنت متأثراً بانفعالاتها، بصمتها وبجرأتها. أعلم أنّ عليها أن تناضل ضد أفراد أسرتها لمجرد تمكنها من الخروج، وأنها تعتمد على الحيل، وتتعرض في كل مرة للضرب من قبل والدها أو للوشاية ضدها التي كثيراً ما تقوم بها زوجة أبيها. أنا أعرف كل هذا وأتبيّنه، لذلك غيّرت موقفي، وأخذت أكتب لها الرسائل وقصائد الحب: نصوصاً قصيرة، رقيقة ولطيفة، لكن ليس لها قيمة أدبية. وأرسل لها قصيدةً كل يوم: قصائد سيئة جداً من الناحية الأدبية، ولكنها صادقة. بدأت علاقتنا تصبح موجودةً في غير اللقاءات السريّة في الأماكن المهجورة. وأخذنا نقوم بالنزهات يداً بيد، كعاشقيْن متحابيْن، متعاهديْن على الخطوبة عن حب من أجل الزواج عن حب أيضاً.

كانت تأتي لتقضي معي ليلة أو ليلتين في غرفتي في «الرباط» التي أقيم فيها كطالب يتابع دراسته. تقوم بالرحلة ليلاً كيلا تضيّع الوقت. هناك ينكشف جسمانا لبعضهما ويتعارفا بكل شغفٍ وهوسٍ. وتتلامس أعضاؤنا وتحتك ببعضها، لكنها لاتتداخل أبداً. وحدثت بيننا عدة أزمات ثقة وخلافات وحوادث، سبّبها سوء التفاهم والغيرة. فقد أصبحت تعبّر بطريقة مختلفة عمّا مضى، وصارت متشدّدة واثقة من نفسها ومتسلّطة. أخذت تهدّد بأنها ستهجرني أو ربّما تقتلني إذا دعت الحاجة لذلك. وتذكرتُ عندئذٍ امرأة عجوزاً كثيراً ماكانت تذهب لمقابلتها في «تطوان». وهذه العجوز كانت قد تخلّصت من أزواجها الثلاثة بالتوالي، فمات أحدهم

بسبب احتقان في الدماغ، والثاني اختنق وهو يتعرض لصعوبة في البلع، أما الثالث فقد مات بعد أن أصيب بالتسمّم بسبب ماتناول من طعام. ميتات مشبوهة، ومع ذلك لم يفكّر أحد بأن يزعج هذه المرأة! وكما يقول الجميع، الحياة والموت بيد الله. كم من الزوجات اللواتي كنّ يتعرضن للضرب انتقمن بوضعهن مسحوقاً ما في وجبة الزوج التي يتناولها على انفراد، فدفعن به إلى الجنون أو إلى الموت.

طردتُ بعنفٍ هذه الصور. قائلاً في سرّي بكل سذاجة بأنّ من يُحبّ لايقتل! أقول ذلك لنفسي، دون أن أصدّقه أو أؤمن به، بل لأطمئن وحسب. ذلك بالحقيقة لأنها تحبني بشغف، بل بهوس وجنون. وهذا الأمر يسبب لي الذعر. فكيف أتخلص منه؟ كيف أوقفه؟ وما العمل لكي أثبت لها أني شاب طيّب، لاأتقن الخصام والعراك، وأني هش، دعيّ ومغرور وليس هنالك شيء غير ذلك؟ أخذتْ تزداد قسوة، وتحلّ في غرفتي فجأة في أية لحظة، فتفتش حوائجي، وتشمّ رائحتها، تقرأ رسائلي، تسألني وتستفسر مني عن أتفه الأمور. ثم تتعرّى وتفتح النافذة، مهدّدة أياي بمناداة المارة ليجتمعوا كي تعرض عليهم جسمها العاري. عند ذلك أكاد أجنّ، ولاأعود أعرف كيف أستطيع تهدئتها ومنعها من أن تفعل ذلك، خلال نوبة الهستيريا، هذه التي أصابتها. بعد ذلك تأتي إلى قربي لكنها تمنعني من أن ألمسها، بينما تقوم بحركات تمثل بها العملية الجنسية. تعطيني قطعة حلوى مصنوعة بعجين اللوز وتقول لي: «يمكنك أن تأكلها وأنت مطمئن تماماً، فليس فيها سوى الطحين واللوز، والعجوز هي التي حضّرتها لك!» تريد بذلك إخافتي وإدخال الرعب إلى قلبي. فأشعر بالراحة وهدوء البال عندما تنصرف، وألقي بقطعة الحلوى بعيداً وأحاول وضع خطة للخروج من هذا المأزق. وعندما لاتأتي كنت أعاني وأتألم بسبب غيابها، وأتصورها في سرير شابٍ أغواها عارضاه فذهبت معه. وقد قالت لي، ذات يوم، بأنها لاتعارض الحب بين النساء، فأتخيلها تضاجع إحدى صديقاتها. وأجد تحمّل هذه الفكرة وتقبّلها أكثر صعوبة. أخذت

أكتب لها رسائل تعبر عن جنوني، أتوسّل لها فيها أن تعود لتصبح الفتاة الصغيرة الحنونة والمثيرة التي عرفْتها قبل عام مضى. ولم تكن تردّ على رسائلي أبداً. كانت تهمل تلميذاتها وتأتي لتعذّبني. وكما لو أنها تريد تضليلي تسرع لتجثو أمامي وتطلب مني أن أصفح عنها، وهي تبكي والدموع تنهمر من عينيها. فأصدّقها، وأقول لها بأنني أحبها وأريد أن أعيش معها، ولن أفارقها أبداً وأرغب أن أتزوجها. فتقهقه ضاحكة ساخرةً مني. وذات يوم وقفت عارية تماماً، وضعت يدها على عانتها وقالت بلهجة حادة: الآن لم أعد عذراء، ولكنك لن تنالني! لقد نجحتُ بإحداث جرح عميق في قلبي، ففقدتُ صوابي. هل سلّمتْ نفسها لأحد أولئك الغواة المحترفين الذين يتصيّدون الفتيات؟ كان ألمي أشدّ من أن يُتيح لي الشك بذلك أو أن أحمله على محمل الدعابة والمزاح. ولكم كنت أودّ أن أحوّل إلى السخرية تلك الخلافات والحوادث، لكني كنت عرضةً لانفعالٍ جنوني، تُطبق عليّ حلقاته تماماً وتُمسك بي من كل جانب.

كان والدها عاملاً، يشتغل في الميناء. وأهلي ظلّوا على الدوام ينظرون نظرة الشك وعدم الرضا إلى علاقتي بهذه العائلة ذات المنشأ الغامض. ونحن ربما كنا متواضعين بل وفقراء مثل هؤلاء الناس، لكنّنا ولأننا أتينا من «فاس»، مدينة المدن، الأمر الذي يُعتبر برأي أسرتي دليل رفعة وعلوّ قدرٍ وشأن، لم يكن وارداً الاختلاط مع أناس «أغراب» والتشتّت، أي فتح البيت والقلب، وإزاحة الستار عن جسم العائلة، وعن أسرارها وتقاليدها. وكلٌّ يجب أن يبقى في موقعه. لأنّ التفاوت الاجتماعي لاينجم عن التفاوت الاقتصادي وحسب، بل يعود أيضاً إلى الأصل والمنشأ، وإلى طموحات وتاريخ كل عائلة.

أساساً، لم يكن أحد يريد تلك الخطوبة أو يوافق عليها. وأنا أخذت أرتكب الأخطاء المتوالية، ممزَّقاً بين ذلك الحب الذي يتجاوز قدراتي وطاقتي، وبين رأي العائلة التي تقول بأنها تريد أن تقيني

من عقد صفقة خاسرة ومن الوقوع في مشكلة سيئة. استمرّت المفاوضات عدة أشهر. وساد حفلة الخطوبة جو من الكآبة والمذلة. ونُظّم عقد الزواج بمنتهى السرعة. كل ذلك جرى دون أن يكون أحد مقتنعاً به أو متحمّساً له. ووجبة الطعام التي قدّمت بهذه المناسبة كانت باردة، لم يتخلّلها غناء أو موسيقى ولابهجة أو فرح. شعرتُ برغبة في البكاء وتمنّيت بأن يكون هنالك من يختطفني، أن أختفي في مصيدة، في بئر أو في متاهة تؤدّي إلى طريق طويل لانهاية له أزرق اللون، يغمره النور.

الحواجز قائمة، وهي عالية جداً، لايمكن اجتيازها. فالعائلتان تجهلان بعضهما، وكل منهما لاتعرف الأخرى، والجميع تساورهم الشكوك. ولم يكن أحد في حالة نفسية تسمح له بأن يفرح أو يحتفل بأي شيء.

شعرت بأني بائس وتعيس. أمّا خطيبتي فكانت غاضبةً، ثائرة. لأن الفشل بدا تاماً. لقد عشنا، كلٌّ من جهته، أول تجربة تعرّضنا فيها للمذلّة. ولم يتح لي الوقت للتحدث إليها والقول لها بأني أريد أن أبرهن لها على حبي، وبأني على استعداد للسير معها حتى النهاية، لكنّ الظروف لم تسمح لي بذلك. ففي اليوم التالي، باكراً جداً، استدعتني الشرطة. وأبلغتني أنّ عليّ الالتحاق في اليوم نفسه ـ قبل الغروب ـ بمعسكرٍ تأديبي، يُحتجز فيه الطلاب المعارضون. ففكّرت أنّ هذه الخطوبةَ قد أرغم القدر على تحقيقها وأنها تمّت دون رضاه، لذلك فإني قد وضعت إصبعي في مسنّن البؤس والشقاء.

أرجو أن يُسمح لي بإيقاف سير الأحداث لبعض الوقت. فأنا أشعر بأني قد محوت وجه تلك الفتاة. ومازال أسمع صوتها وأتبينّ أفكارها. عثرتُ على شيء حميمي، ليس رسائل بل يوميات خاصة. فهي لم تكتب لي أبداً، على وجه التقريب، بل كانت تحتفظ في أحد الدفاتر ببعض القصائد، وبعض الجمل القصيرة الحسّاسة، بعض

الملاحظات وبعض الرسوم، ومساحات بيضاء محاطة بخطوط حمراء، تواريخ مشطوبة وعلامات استفهام..

كانون الأول: كالتراب الذي ينهار على أحد الأجسام أنا وحيدة. أجد صعوبة بالتنفّس. لقد بلغتُ السابعة عشرة وأنا لاأعرف وجهي في المرآة في ظلام الليل.

إنني أختبئ كي أكتب، لكني أشعر بالرغبة في الصراخ. ليس لديّ أحد أسلّمه الرسالة التي تمليها عليّ الليالي الطويلة والباردة.

«طنجة» شارع واحد: خط مستقيم بين البيت والمدرسة.

أعرف أنّ أبي يراقبني.

لماذا إذن ابتدعت رجلاً لكي يشغل صوري وأفكاري. إنّ هذا غريب! لقد نحتُّه من الغرانيت: تمثالاً جميلاً. عيناه صَبَغْتهما باللون الأزرق، شعره رشّيته بالرماد والذهب. كتفاه عريضان جداً. إنه من بلاد أخرى. أردته أجنبيّاً لكي أحلم بشكل أفضل. عندما يكلّمني أسمع صوتي.

لقد حان الوقت لمغادرة هذه الأحلام المستحيلة. لقد بدأ حزني يتحرك.

11 كانون الثاني: لقد التقيت به. رأيته. إنه مُجدّ، رأسه منحنٍ على كتاب جدّي. إنه تائه، ربّما كان مغروراً. ليس له علاقة مع لوني الأشقر الرخامي، وهو لايهتم به. إنه يتحرك وينظر إليّ بشكل جانبي وبصورة غير مباشرة. إنه ضائع! يمكن أن أجعله يقع بوضع رجلي بين ساقيه. وهو خجول، يحمّر وجهه عندما يراني. عاهدت نفسي أن أدنو منه في المرة القادمة. فإذا نجحت في ذلك، سأكون فخورة وقوية!

13 كانون الثاني: وجدته قرب المنضدة نفسها. جالساً وقد ضمّ ذراعيه إلى صدره. عيناه مستغرقتان في أحد الكتب، أو متظاهراً بأنهما مستغرقتان فيه. المكتبة الفرنسية هادئة. كلّمته بذريعة. أعارني قلماً. لم ينظر إليّ أو يحدقَ في عينيّ. لقد أثّر به صدري.

لابدّ أنه لايعرف أية فتاة. إذ أنّ الشباب هنا مقيّدون. وأنا أشعر بأني أكثر حرية حتى وإن كان أبي يراقبني.

أحبّ التواجد في الصمت الذي يسبق النوم، فأشعر بأن لديّ الوقت، وجميع الحريات لأنتسب إلى الليل وإلى الرجل الذي يمكن أن أكون قد اخترته في الأوقات الفارغة من وحدتي.

14 كانون الثاني: لم أخرج اليوم. غسّلت شعري. حاولت أن أكتب. فكرة واحدة لم تتبدّل لازمتني طيلة النهار: الرجل العربي عنيف مع المرأة لأنه يعرف أنه خاسر!

17 كانون الثاني: ذهبت إلى المكتبة. لم يكن هناك. عند انصرافي التقيت به على الدرج. دفعته برفق ضاحكةً. نزل معي ورافقني في نزهتي. أمسك بيدي. تركته يفعل ذلك. توقفنا في مكان معتم قرب أرض مهجورة. داعب نهديّ. قبّلته.

19 كانون الثاني: الموعد نفسه. المكان نفسه. جئت متأخرةً قليلاً، خصّيصاً لكي أرى ماسيكون ردّ فعله. مازحني. دفعني إلى جذع شجرة ووضع يده على فرجي. ضمّمت فخذيّ، ثارت أعصابه. روى لي حكايات يعتقد أنها مضحكة. إنه يلهو. أعتقد أنّ هذا الشاب يثير اهتمامي.

2 شباط: حاولت الكتابة له في المساء. استحال عليّ ذلك. أرغب أن يداعبني. نمت واضعة يدي بين ساقيّ.

3 شباط: رأيته في السينما. للمرة الأولى داعب فرجي بيده. نهضت وانصرفت. أعتقد أنّ أحد أصدقاء أبي قد عرفني. عدت إلى البيت بمنتهى السرعة قبل وصول أبي.

4 شباط: وجّه لي أبي صفعتين، دون أي تعليق. أسناني تؤلمني. لاأستطيع الخروج بسبب الأثر الذي تركته أصابع أبي على خدّيّ. أنا خجلة. هذا الشاب لايستحق أن أُصفع بسببه. سأجعله يدفع الثمن.

8 شباط: أتى ينتظرني عند خروجي من المدرسة. أشعر

بالخوف، ولكني فخورة بالظهور معه. إنه غاضب. قلت له بأنّ أبي يمنعني من الخروج. اتفقنا على موعد نلتقي فيه يوم الأحد. جعلته ينتظر نصف ساعة. اختبأت وراء أحد الأبواب وأخذت أراقب طريقته بالانتظار. إنه لايجيد الانتظار. فهو برم، نافد الصبر، يسير جيئة وذهاباً، ثائر الأعصاب. يروق لي أن أراه هكذا وهو ينتظرني. دنوت منه في اللحظة التي نفد فيها صبره وقرّر الانصراف: سبعة وثلاثون دقيقة. ليست قليلة. آمل أن أصل في المرة القادمة إلى ستّين دقيقة. فإذا انتظرني لمدة ساعة، فهذا يعني أني أمثّل بالنسبة له شيئاً هامّاً.

15 آذار: انْتَظَرَ ساعة وخمس دقائق. عندما ظهرتُ ورآني حدّق بي وانصرف. لقد بالغت كثيراً. أسفت لذلك وندمت على فعلتي عندما وجدت نفسي وحيدة.

16 آذار: هاتفته. ردّت عليّ أمه. فظّة كريهة. عاودتُ الاتصال. طلب مني ألّا أتصل كثيراً. أنهيت المكالمة وقرّرت ألّا أراه طيلة أسبوع بكامله. اشتقت إليه. أعتقد بأني عاشقة. ولكنّ الأمور لن تجري كما يشتهي.

نيسان، أيار وحزيران أشهر فارغة إلّا من بعض الرسوم. وهنالك صفحات ممزّقة.

4 تموز: متى سيمارس الحبّ معي بشكلٍ حقيقي؟

15 تموز: ليلة في «سوتا». كنت قد قلت لأمي بأني ذاهبة لزيارة خالتي في «تطوان». فذهبتْ للتّحقق من ذلك بناءً على طلب أبي. وضُبِطْنا في أحد مقاهي «سوتا». فتظاهر بأنه لم يكن معي. استفزّته أمي فلم يردّ عليها. وتبعتُها دون أن ألتفت إليه. كنا قد اتفقنا على ذلك. وقد مثّل جيداً دور اللامبالي. ضربني أبي وكلّف أخي بمراقبتي عند خروجي من المنزل. واستدعى إحدى القابلات فتحقّقت من

عذرّيتي. وهذا الوضع الذي يعتمد على السرّية لايمكن أن يستمر بعد الآن. فقد مللت من التّخفي، واضعة قناعاً، أو حجاباً ومرتدية جلباباً بشعاً كي أثبت لأبي بأني خاضعة ومطيعة، وتعبت من خلع جلبابي في إحدى زوايا شارع خالٍ من المارة لأصبح فتاة أخرى، بدعوى أني متطورة وغير خاضعة. وحلُّ هذه المشكلة يقضي بجعل هذا الوضع طبيعياً: الخطوبة والتحضير للزواج؟ أخشى أن يتحول هذا المشروع إلى قضية خاسرة...

أحلامي رتيبة وباهتة. الشتاء في عينيّ وقليل من الرمل في قلبي. أجد صعوبة في التنفس. أشعاري حزينة. حياتي مزيّفة. لماذا أنا تعيسة إلى هذه الدرجة؟ فأنا لست حتى فتاة ثائرة أو متمردة. إنّي برجوازية صغيرة ضعيفة الإرادة ومتردّدة، كانت ترغب كثيراً أن تصبح طفلة مدلّلة أمّا هو فبرجوازي صغير، طموح ومغرور، لايتحلّى بالشجاعة الكافية. حياتي تافهة لاطعم ولا لون لها، إنها رتيبة، كل شيء فيها رُسم، وخُطط له مسبقاً: أذهب من البيت إلى المدرسة، ومن المدرسة إلى البيت. ومن حسن الحظ أن التلميذات يدعمنني ويقوّين عزيمتي بابتساماتهن وبلطفهن. لكم أرغب بالسفر إلى أوروبا. إني أنتظر أن يأتي أجنبي جميل، متحضّر، قوي ومغرٍ، فيأخذني. عند ذلك سأصبح فتاة أخرى وأعيش حياة مختلفة.

الخريف: البارحة مساءً ظهر أمامي بشكلٍ مفاجئ شخص في زاوية الشارع الذي يتجّه صعوداً نحو حي القصبة: امرأة عجوز، متسوّلة أو مجنونة، اقتربت مني بوجهها الذي ينمّ عن الألم والعذاب، وإحدى عينيها مغطاة بقشرة صفراء، وقد مدّت يدها نحوي، وأخفت الأخرى وراء ظهرها. كان تعرج أو تتظاهر بأنّ إحدى رجليها أقصر من الرجل الأخرى. تقف كالبهلوان الفاشل على أطراف أصابع رجلها اليسرى، وتجرّ الأخرى جرّاً يُسمع له صوت. كان جلبابها عبارة عن غطاء عسكري كثير الرقع. أخذت تنظر إليّ بعين واحدة مهدِّدة، سبّابتها موجهة نحوي كالسهم. شعرت

بالخوف، وفي الوقت نفسه علمت بسرعة أني لاأستطيع النجاة من عين القدر. ولم أدرك حتى الآن تفسيراً لمنشأ هذه الفكرة القوية والعنيفة التي هزت جسدي. أخذتُ أرتجف وشعرتُ بأني محاصرة. كان الشارع مظلماً وبالمصادفة لم يكن يمرّ به أحد في ذلك الوقت، حتى الأولاد الذي يلعبون عادة في الساحة المجاورة لم يحضر منهم أحد. وعين القدر، هل هي الموت؟ والموت هل هو هذه المرأة العرجاء التي تحاصرك في شارع مقفر؟ لكن قيل لي بأن الموت ليس شيئاً. وبعد أن سمّرتني على الحائط بسبّابتها الممدودة، قالت لي بلغةٍ عربيةٍ تشوبها لهجة منطقة «الرّيف»:

«هيا اذهبي، اذهبي إلى الينبوع، ضعي شعرك على الحجر اليسرى، كلي كبد «الحردون» القادم من الصحراء، أمضي بمفردك ليلةً في حمّام «دار بارود» ولاتتحدّثي عن ذلك لأحد.. وسيكون لك!» وعند انصرافها مرّت بيدها على صدري واختفت وهي تركض بسرعة، وفي الليل أُصبت بـ...

وتوقّفتْ الكتابة في الدفتر هنا. لابدّ أنها أكملت جملتها وتابعت تدوين مذكراتها في دفتر آخر. بقيت متوقّفاً، معلّقاً، عند ذروة السرّ العليا. ماذا سأقول بكل هذا وماهو رأيي فيه بعد عشرين عاماً؟ تمرّ بذهني من وقت لآخر فكرة مؤدّاها بأني قد دُفعت إلى مصير سيء أو أنني اقتدت إلى متاهة الإفلاس، ولكني أرفض الإيمان بهذا النوع من الأمور، ببساطة لأني شاب أنيق وعصري، يساورني هاجس حب البقاء والمحافظة على نفسي، فأنا مستعد للهرب عندما يكون هنالك أي تهديد أو خطر، مثبّتاً رجليّ على الأرض، متأمّلاً بإعجاب الجنون والتخيلات لدى الآخرين ولكني أظلّ متحصّناً في قفصٍ زجاجي، بعيداً عن مثل هذا الدليل، مراقباً الحياة بالمنظار ومدوناً حركة الأوراق ومزاج الأشجار في دفاتر تصبح كتباً فيما بعد.

أستأنفُ الآن هنا قصتي قبل أن أنساها أو أن يسرقها أحد أولئك الرواة، من مؤلّفي الحكايات الخبثاء، القادرين على أن يختلقوا لك ذكريات تعود إلى بلادٍ بعيدةٍ، إلى الصين أو إلى القطب الشمالي.

VI

وأنا جالس على المقعد الخشبي في القطار، كنت أشعر أنّ كل جسمي متوتر، وعضلاتي متقلّصة، وأنّ نظراتي تقع على طريق مرصوف بالحصى، وأنا حافٍ، موثق اليدين، مربوط بحبلٍ إلى عربة تجرني كي أُلقى في هوة عميقة. كنت أشدّ الحبل كما لو أني كنت أريد تخفيف سرعة العربة التي لم أكن أرى فيها أولئك الذين يتولّون تعذيبي. كنت أصرخ، ولم أعد أشعر بأن لي رجلين لشدة ألمي من كثرة الجروح فيهما والتمزق الذي أصابهما من رقائق الحصى المتتالية التي شُحذت خصّيصاً من أجل ذلك. يداي كانتا أيضاً مشقّقتين، وأشعة الشمس تبهر عينيّ.

كانت هذه إذن هي الحديقة المغروسة فيها الحجارة الحادة، وقطع القناني الزجاجية التي يجب المرور عبرها قبل الحصول على سكينة وصفاء الصمت الأبدي. والموت يأتي إليّ مرة أخرى، في هذه الرؤيا التي يوسّعها ويضخّمها ضجيج القطار القديم والتوالي المتباطئ بعض الشيء، والذي ربما كان غير واقعيّ، للأشجار القائمة على جانبي الخط الحديدي.

وبحركة من يدي، كما لو كنت أطرد ذبابة، أمحو هذه الصورة وأخلع حذائي لأرى حالة رجليّ. إنهما حمراوان، متورّمتان قليلاً، بل وحارّتان. لاأستطيع إبقاءهما في العراء، لأنّ هنالك سيدة قبالتي تماماً، تأكل بيضاً مسلوقاً لم يكن قد نضج تماماً، وصفار البيض

ينتشر على شفتيها وعلى يديها، بل ورأيت أيضاً بعضاً منه على فردة حذائي اليمنى. ويرقد على ركبتيها طفل فتح فمه، بينما يشد بيده على قطعة نقود ويسيل من منخريه سائل أبيض اللون.

أشعر الآن ببعض التشنّجات في ساقيّ وبالتنميل في رجليّ. حاولت أن أتحرك، لكني كنت محصوراً بين جاريّ من اليمين ومن اليسار. والاثنان يشدّان عليّ بقوة كما لو أني أسيرهما أو سجين قد أمسكا به. قمت ببعض المحاولات للإفلات منهما لكنّ سيطرتهما عليّ كانت قوية ولم أجد جدوى لتلك المحاولات، ولحسن الحظ كنت أستطيع التمتّع بمشاهدة المناظر الطبيعية، وإغماض عينيّ من وقت لآخر كي أرى بعين الخيال وجه خطيبتي.

ولم تكفّ أمي عن البكاء منذ أن أبلغني رجال الشرطة تلك الدعوة، وهي، كعادتها دائماً، لاتتصور سوى أسوأ الأمور، الموت والغياب، موتها وغيابي أو موتي وغيابها. وكثيراً ماقالت لي وهي تكفكف دموعها: «أرجو أن أموت وأنت ماتزال على قيد الحياة.. وأن يقدّر الله ألاّ أعيش أبداً في اليوم الذي لاتكون فيه أنت هنا!» والمشكلة المباشرة بالنسبة لها هي معرفة ماذا سآكل في ذلك المعسكر، لأنّها ترى أنّه ليس هنالك طعام يصلح للأكل سوى الطعام الذي تحضّره الأم. وربّما وجدت من الطبيعي جداً أن ترافق الأمهات أبناءهنّ إلى هذه الأماكن كيلا ينقصهم شيء. ولأنها لاتستطيع مخالفة القوانين ولا التغلب عليها، فقد ملأت كيساً بالحلوى الجافّة، وأضافت إليها بعض البيض المسلوق والخبز واللحم المحفوظ، ووعاءً معبأً بالعسل ومنديلاً مطرّزاً مبلّلاً بعطرها لكي أشمّه في الأوقات العصيبة، عندما أشعر بالحنين الشديد. هذا الوداع الذي ذُرفت فيه الدموع، بحضور والدي الذي مرّ بيده على ظهري وهو يقرأ سورة من القرآن لكي يحفظني الله ويعيدني إليهم سالماً معافى، وبيده الأخرى دسّ في جيبي ورقة كتب عليها أحد أحاديث الرسول، والخادمة التي أتت لتواسي أمي أخذت تبكي أيضاً، ولكني كنت أعرف أنها إنّما تبكي لأنني لن أذهب بعد الآن لإيقاظها عند منتصف

الليل، لكي أضاجعها بهدوء واضعاً يدي على فمها لكي لاتصرخ من فرط شعورها باللذة. وجارنا البقّال المعروف ببخله الشديد خرج من دكانه وقدّم لي علبة سردين، قائلاً: من يدري، عندما يكون الطعام غير كافٍ، اقبل هذه الهدية، فهي مجانية وبلا مقابل. والممرض الذي يعمل في المشفى المجاور لمنزلنا، والذي يلاحق الخادمة، اغتنم الفرصة ليأتي ويدسّ في إحدى جيوبي علبة «أسبرين»، ثم ضمني بين ذراعيه كما لو كنا صديقين قديمين، ولاحظت أنه يتصبب عرقاً وتفوح منه رائة الأدوية، وحارس السيارات الأعرج والأعور، جرّ ساقه واقترب مني ليعطيني برتقالة، في تلك اللحظة أخذ الهاتف يرن: أختي وخالتي تحدّثتا من «فاس» واقترحتا أن تذهبا إلى مقام «مولاي إدريس» لتضعا هناك مبلغاً صغيراً من المال، لكي يحفظني أبناء القديس والولي والروح القدس نفسه، وهذا يُشكل نوعاً من الحماية ضد كل شيء، ودرعاً واقياً غير منظور ولكنه موجود دائماً. وخطيبتي أين كانت في ذلك الوقت، وماذا تعمل، لماذا لم تحضر لتعانقني وتبكي كما يحدث في الأفلام، لم تركض وراء سيارة الأجرة كأنها تقول لي سأنتظرك طيلة حياتي، لكن لابدّ أنّ خطيبتي تجفف دموعاً أخرى، هي دموع خيبة الأمل وزوال الأوهام. أمّا أخي، فكان يقف جانباً، إنه متأثر ولايريد أن يُظهر ذلك، لقد صعد إلى السطح وأخذ ينظر إلى البحر.

منذ ذلك الحين كرهت منَاسَبَات الوداع.

أردت تناول قطعة حلوى، لكنّ الكيس كان معلقاً وعالياً فوق رأسي، ولاأستطيع الوصول إليه. وحركة القطار المتقطعة، بالإضافة إلى الجوع والقلق، كل ذلك جعل ألم رأسي - وهو يُشكّل ظاهرةً عائليةً - يتزايد تدريجيّاً. شعرت مع اشتداده بأني لن أستطيع تهدئته. كانت معي أقراص الأسبرين التي أعطاني إياها الممرّض وهي في جيبي، لكن كيف أخرجها وأين أجد كأساً من الماء؟ فالقطار البطيء بمقاعده الخشبية في حافلات الدرجة الثالثة ذات الزجاج الذي يغطيه الدخان والبخار الناجم عن أنفاس المسافرين،

السيدة الجالسة قبالتي، جيراني اللامبالون، الطفل الذي استيقظ وأخذ يلعب بإحدى لعبه، العسكري الذي يجلس على المقعد المقابل بكل هدوء وانضباط، اقتراب حلول الليل بظلامه، فترات توقف القطار الطويلة في حقول تحرقها الحرارة، جسمي الذي أصبح يؤلمني، وعيني المغطّاة إلى النصف بجفن متعب، كلّ هذا لم أكن مهيأً له، وقد عانيت منه وتحملته عبر صمت ثقيل.

ومن جديد بدت خطيبتي مرتديةً فستاناً من الحرير الشّفاف وعيناها السوداوان، بل الشديدتا السواد والحادّتان أخذتا تحدقان بي. كنت جالساً على قبرٍ مغطى ببلاطٍ من الرخام وقد أسندت رأسي على الشاهدة وباعدت مابين ساقيّ، وبكل هدوءٍ اندسّت بينهما وأخذت تقرأ ماكتُب على الشاهدة: «حاج عبد السلام الشريف، ولد في طنجة سنة 1301 للهجرة وتوفي في الثاني من شعبان سنة 1373 تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه الخالدة...» كانت تقرأ هذه العبارات بنوع من اللذّة المرَضيّة وبسخرية مقلقة، بينما يدها تتصفح وجهي. وقد وضعت رأسها على بطني وأخذت تحركه برفق كما لو أنها تريد تدفئة خدّيها الباردين. شعرت بالخجل لأني تهيّجت وأصبحت في حالة انتصاب وتركتُ الأمور تأخذ مجراها. هبّت ريح شرقية عنيفة وسريعة اقتلعتني من مكاني. كانت المقبرة مقفرة، ولمحت بعيداً شكلاً كالشبح لم أتبيّنه جيداً، يجتاز الجدار الصغير الذي يحيط بمقام المزار. كانت عيناي اللتان لم أكد أفتحهما تريان الأشياء بصورة مشوّشة. عادت السيدة الجالسة قبالتي تأكل من جديد. وبدا كأنّ القطار قد زاد من سرعته. وعليّ أن أبقى مستيقظاً كيلا يفوتني النزول في محطة «مكناس»، حيث يجب أن أستقلّ الحافلة أو سيارة أجرة عمومية للذهاب إلى المعسكر.

وقرية «داوتييت» تقع على مسافة ثلاثين كيلومتراً من مدينة «مكناس» وهي قرية فقيرة، وعرة الطريق، هواؤها نقي، منزرعة في أعلى كتلة صخرية، بجانب غابة من أشجار الأرز والصنوبر. وقد أقام فيها الفرنسيون مخيماً عسكرياً في مطلع الثلاثينات.

لم أكفّ عن تحريك ونقل التلال والأبواب. عليّ أن أتصوّر القرية في أدق تفاصيلها. كنت أبني، أمحو وأهدم. وكنت هكذا مستغرقاً ومنهمكاً في أعمالي عندما وُضعتْ يدٌ على ركبتي اليسرى. فالجندي يريد شيئاً ما. أشار إليّ طالباً مني الخروج إلى الممرّ، نهض وأخذ ينتظر. وبإشارة مني أفهمته أني محصور. بيديه الاثنتين أبعد عنّي جاريّ فأصبحت طليقاً فقال لي مؤكداً على الفور:

ـ أنت ذاهب إلى هناك!

ـ نعم، وكيف عرفت ذلك؟

ـ من سيمائك كمدنيّ تائه وخائف..

ـ كلّا، لست تائهاً، فأنا أعرف إلى أين أنا ذاهب ولكني أشعر بشيء من الخوف... وأنا هشّ بعض الشيء... ولد مريض...

ـ تعني أنك ولد مدلّل!

ـ كلّا، كلّا، إني حقّاً مريض، ولكن إذا أردت فقل: «مدلّل بسبب المرض»...

ـ كم تظن بأني أبلغ من العمر؟

ـ ثلاثين، أربعين...

ـ خمسين ماعدا الهند الصينية... ذلك يعني تسعة وأربعين! لأني لم أعش في الهند الصينية... لقد قبّلت وضاجعت ولكني لم أعش... فقد جُرحت في الأسبوع الأول، هنا في بطني، كلا في الأسفل، وأكثر انخفاضاً... كلا، لم أضاجع. لقد مكثت في المشفى، كنت أنظر إلى السماء وإلى النباتات. وأنا أكره السماء والنباتات. وعندما أشعر بالألم، كنت أرى عناكب عملاقة تهبط من السماء وتمدّ نحوي أذرعاً متعدّدةً تختلط مع أغصان الأشجار.. إنه شيء فظيع.. وأنا لاأقول لك هذا لكي أخيفك، ولكني منذ قليل، رأيت في مقصورتنا أذرعاً تمتدّ فشعرت برغبة في الخروج كي أتخلص منها، ورغبة بالكلام... ألا يمكن أن يكون معك سيجارة.. لقد أقلعتُ عن التدخين منذ أن ذهبت زوجتي، كلا هذا ليس صحيحاً، فأنا ليس لي زوجة ولست جندياً... وما أهمية ذلك؟! سيأتي الموت ويرتّب كل هذه

الأمور، وسأصفّي لها الحساب تماماً. سأصفّيه لتلك المرأة، ولكني لست في عجلة من أمري... آه! أنت لاتدخّن، إذن هيا اذهب واطلب سيجارة من جارك، إنه يدخن سجائر أميركية. فهي أغلى من السجائر الأخرى... حسنٌ، اصغ إليّ، هناك، فوق، عليك أن تكون رجلاً، لاتدعهم يتحكّمون بك، عليك السلام، أنا نازل في المحطة القادمة. كلّا، ولماذا أنزل وأنا لست رجلاً ولاجندياً ولاحتى نخلةً. فأنا تلاحقني لعنة الأهل... وكنت أحد أبطال العصيان! أمعك سيجارة؟ آه، أنت لاتدخّن... هل تتكلم اللغة البربرية؟ لو كنت تتكلمها لأدهشني ذلك، وأنت «الفاسي» ذو البشرة البيضاء والمدلّل الذي يتناول الغذاء الجيد...

ـ كلّا، أنا لاأتكلم اللغة البربرية، وهذا لاعلاقة له بلون بشرتي...

ـ تحاشى لعنة الأهل... إنها الأسوأ... فمنذ أن لعنني أبي وتبرّأ مني، أصبحت بلا روح كشجرة أرزٍ جوفاء. وفي أوردتي لايوجد دم، بل ماء، ماء ملوّث... وكم كنت أودّ أن أكون لصّاً، ولكن لصّاً كبيراً، ليس مثل أولئك الصبيان الذين يهاجمون العجائز والطاعنين في السن ويسرقونهم... لكن ليس لديّ الشجاعة الكافية.

ـ ولماذا تسألني فيما إذا كنت أتكلم اللغة البربرية؟

ـ لأني أردت أن أقول لك عبارات اللعنة التي أملاها عليّ أحد «الأصوات» حينما كنت نائماً في إحدى دور البغاء الكائنة في الجبل. وإليك ماقاله ذلك الصوت:

(نترك لك المرض)	nfel - ngim tamadunt
(نترك لك الشقاء)	nfel - ngim zzeld
(نترك لك الحمّى)	nfel - ngim taula
(نترك لك قملنا)	nfel - ngim tilkin
(نترك لك الشرّ والسوء)	nfel - ngim taykra

ـ ولكن لماذا تروي لي هذه القصّة؟

الحاضر، لأنّ هنالك في أعماق جمجمتي توجد كلمة، وهذه الكلمة معلّقة ومتوقّفة، بل محصورة بين وريدين، وإذا أطلقت لها العنان، إذا تلفّظت بها، بدأت ميتاتي المتتالية. إذن اذهب، هيا انصرف، من الأفضل أن تنصرف، لقد قلتُ من الكلام أكثر مما ينبغي، وأنت تعرف منه الكثير، هيا انصرف وانسَ لقاءنا... أنا أيضاً سأذهب ولكني لاأعرف إلى أين، وليس لذلك أية أهمية، فأنا المسافر الأبدي، المتنكّر اليوم بزيّ جندي، وغداً بزيّ معلم في مدرسة لتعليم القرآن، أو بزيّ طيارٍ في الجيش الأميركي...

ما أزال أتذكّر وجه ذلك الرجل، الذي لايُعرف عمره، والذي ينمّ عن القلق والألم. ويكاد المرء يظن عندما ينظر إلى بشرته أنه قادم من الصحراء، مازلت أتذكر أيضاً بكل دقة نظراته المطوّلة وصوته. كان يتكلّم بلغة عربية تكاد تكون أدبية وفصحى، يشوبها بعض التكلّف. وأذكر يديه الطويلتين، النحيلتين، المستعدّتين للعمل. كانت عيناه صغيرتين ترفّان باستمرار. كنت مسحوراً وخائفاً في آن واحد. فقد نُصحت مراراً بتحاشي اللقاء مع أناس مجهولين. وعندما انصرف وجدتُ نفسي محتاراً وقلقاً بشكل مفاجئ، يشغلني شيء ما أيضاً. كان صوته الحارّ والمبحوح يغوص كثيراً وبقوة في رأسي، لدرجة أنّ ضجيج القطار أصبح ثانوياً بالنسبة له. عدت فجلست، إنه لم يعد هناك. في مكانه جلس ضابط شاب، ملازم على ما أعتقد، منهمك بمطالعة إحدى الصحف وهو يدخن سجائر «كازا سبور زرقاء». لم أعد أنظر في الوجوه المحيطة بي، أخذت أحلم شارداً في أماكن أخرى، كما لو كنت قد دخنت «الكيف»: وجوه معروفة، وأخرى لم أرها سابقاً أخذت تمرّ أمامي. ومنها بالتأكيد وجه خطيبتي بملامحها المتناسقة وبشرتها النديّة بشفتيها الرقيقتين الناعمتين، وأسنانٍ صغيرة بيضاء، ذقن عالية، شعر أسود تبدو عليه تموجات وانعكاسات حمراء أحدثتها الحنّاء، حاجبان رفيعان غير متصلين تقريباً، عنق طويل، ونور حاد في النظرات. هذا الوجه

الحاضر، لأنّ هنالك في أعماق جمجمتي توجد كلمة، وهذه الكلمة معلّقة ومتوقّفة، بل محصورة بين وريدين، وإذا أطلقت لها العنان، إذا تلفّظت بها، بدأت ميتاتي المتتالية. إذن اذهب، هيا انصرف، من الأفضل أن تنصرف، لقد قلتُ من الكلام أكثر مما ينبغي، وأنت تعرف منه الكثير، هيا انصرف وانسَ لقاءنا... أنا أيضاً سأذهب ولكني لاأعرف إلى أين، وليس لذلك أية أهمية، فأنا المسافر الأبدي، المتنكّر اليوم بزيّ جندي، وغداً بزيّ معلم في مدرسة لتعليم القرآن، أو بزيّ طيارٍ في الجيش الأميركي...

ما أزال أتذكّر وجه ذلك الرجل، الذي لايُعرف عمره، والذي ينمّ عن القلق والألم. ويكاد المرء يظن عندما ينظر إلى بشرته أنه قادم من الصحراء، مازلت أتذكر أيضاً بكل دقة نظراته المطوّلة وصوته. كان يتكلّم بلغة عربية تكاد تكون أدبية وفصحى، يشوبها بعض التكلّف. وأذكر يديه الطويلتين، النحيلتين، المستعدّتين للعمل. كانت عيناه صغيرتين ترفّان باستمرار. كنت مسحوراً وخائفاً في آن واحد. فقد نُصحت مراراً بتحاشي اللقاء مع أناس مجهولين. وعندما انصرف وجدتُ نفسي محتاراً وقلقاً بشكل مفاجئ، يشغلني شيء ما أيضاً. كان صوته الحارّ والمبحوح يغوص كثيراً وبقوة في رأسي، لدرجة أنّ ضجيج القطار أصبح ثانوياً بالنسبة له. عدت فجلست، إنه لم يعد هناك. في مكانه جلس ضابط شاب، ملازم على ما أعتقد، منهمك بمطالعة إحدى الصحف وهو يدخن سجائر «كازا سبور زرقاء». لم أعد أنظر في الوجوه المحيطة بي، أخذت أحلم شارداً في أماكن أخرى، كما لو كنت قد دخنت «الكيف»: وجوه معروفة، وأخرى لم أرها سابقاً أخذت تمرّ أمامي. ومنها بالتأكيد وجه خطيبتي بملامحها المتناسقة وبشرتها النديّة بشفتيها الرقيقتين الناعمتين، وأسنانٍ صغيرة بيضاء، ذقن عالية، شعر أسود تبدو عليه تموجات وانعكاسات حمراء أحدثتها الحنّاء، حاجبان رفيعان غير متصلين تقريباً، عنق طويل، ونور حاد في النظرات. هذا الوجه

المألوف، المحبوب، الحزين والمتوتّر في معظم الأحيان، انحنى واستند على كتفي، من أجل شيء من العطف والحنان وقليل من البهجة والفرح. وأنا، بلا مبالاة، كنت أبحث عن انفعالات أخرى.

توقّف القطار لساعة، وربّما لساعتين. نهض جيراني لينظروا من النافذة. هنالك حمار قد استلقى على الخط الحديدي، وأصبح من المستحيل إزاحته عنه. تطوّع بعض المسافرين ونزلوا لمساعدة العاملين في القطار. لم يتمكن أحدٌ من عمل أي شيء. فالحمار يقاوم وقد بقي مستلقياً بكل ثقله. أحد جيراني اقترح حلّاً ناجعاً: إدخال كمية مناسبة من الفليفلة السودانية، الحارّة جداً، في أست الحيوان. فهو سيقفز عند ذلك ويركض كالمجنون ولن يتوقّف إلّا بعد يومين. ورأى جار آخر أن الفكرة رائعة فقال بأنه ذاهب لينقلها إلى المسؤولين عن القطار. في تلك اللحظة بالذات، كما لو أنّ الحمار قد شعر مسبقاً بتلك النية «السّادية» لتعذيبه، نهض مسرعاً وعَدَلَ عن الانتحار. فربما سيساعده أحد الرعاة كي يشنق نفسه ذات يوم.

«أن يكون جندياً، حلم جنديّ، شجرة ذات جذع أجوف، تهتز مع الرياح، تنحني وتقع على الحشائش، ولكنّ الجندي لايقع ولايستلقي أبداً، إنه يصرخ، يصيح ويغنّي بصوت مرتفع، يُصدر الأوامر، يقيم النظام، ولايضحك أبداً على نفسه...».

هذه الكلمات كان يتلفّظ بها صوت أجشّ، صافٍ وهادئ آتٍ من بعيد، وقد سمعتها متقطعة، نتفةً بعد نتفةٍ، شاكاً في صِحتها. فالرجل الذي قالها لم يَعُد هناك. لقد حلمت كثيراً، وابتدعت بعض المواقف، وسرت تائهاً في دروب رسمتها بنظراتي القلقة، وهاهي نهاية الرحلة تداهمنا. إن معظم المسافرين قد وقفوا وحقائبهم بأيديهم. وأنوار المدينة تمرّ تباعاً منعكسة على زجاج النوافذ. نهضت أنا أيضاً وتناولت كيسي. محطة «مكناس» صغيرة، كئيبة وكأنها أقيمت بشكل مؤقت. أخذ المسافرون يتدافعون للنزول من القطار، وأيدي الحمالين تمتد. ورجال الشرطة يتأملون المشهد

دون أن يتحركوا. اتخذتُ لي مكاناً في إحدى سيارات الأجرة العمومية التي تؤمن المواصلات بين المدينة والقرى المجاورة. قلت: «داوتييت» فقال لي السائق: «آه، أنت أيضاً!» ثم لزم الصمت. أما الركاب الآخرون فألقوا عليّ نظرات تنم عن الشفقة أو الدهشة والذهول.

وصلت إلى المعسكر مساءً، متأخراً بضع ساعات عن الموعد المقرر. أي أنني منذ وصولي كنت في وضع مخالفٍ وغير نظامي! نزعوا عني ملابسي المدنية وأعطوني كسوةً عسكرية. بعد ذلك حلقوا لي شعر رأسي بشفرة حلاقة كانت قد استعملت كثيراً. أخذ الدم يسيل من رأسي وأنا صامتٌ لاأجرؤ على الاحتجاج. ورأيت شعري يتساقط خصلة بعد أخرى ويغطي الأرض. هذا الشعر الذي كنت أعتني به وأدعه ينمو بدافع الكسل أو تمشّياً مع الموضة.

السماء مرصعة بالنجوم. استلقيت على سرير المعسكر الضيّق، وحاولت تجميع أفكاري المبعثرة في جميع الاتجاهات، والتي كانت مشوشة تختلط ببعضها وتتعبني. وأمضيت الليل أطرد الأشباح التي كانت تعذّبني وتذلّني وتجرّ جسمي على الأحجار. شاب صغير مسكين أمضى طفولته مدلّلاً، ليسقط بقسوة على أرضٍ من الإسمنت البارد! وَضَعتُ يدي على جمجمتي، إنها باردة. انتقلت من جسم إلى آخر، مُبعَداً من حياةٍ كان لديّ فيها قليل من الجرأة، فوجدت نفسي ملقى، ومتروكاً في ليلٍ طويل، لم تكن تلك سوى بدايته.

من أية حقيقةٍ، ومن أية شروط ومتطلبات صنع ذلك الليل؟ فهو يشعر أنه أصبح شيئاً كامداً وكثيفاً، أصمَّ ومحروماً من حاسة البصر. وفي الوقت نفسه، كما لو أنه عن طريق الكشف والتجلّي ـ انقلاب في حواسّه ـ أصبح يلمس بأطراف جسمه العالم والأشياء. وأصبح يتلقاها مباشرة بوجهه، ويفتح عينيه: لم يكن لديه مايعطيه. كان يتلقى وهو صابر. كانت سنواته العشرون منتهية ومغلقة على

بقعٍ من الظلام. وكلماته تدور حول نفسها وتُلقى بعد ذلك على أعشاب المقبرة. ولأنه كان مستبعداً، فيجب أن تكفّ صورته عن إقلاقه. عليه أن يتكيّف ويتلاءم مع متطلبات بيئته ومحيطه، أن يتظاهر بأنه يعيش ويلتزم الصمت، وألّا يفكّر بعد الآن، بل عليه أن يطيع ويعتاد النسيان.

لم يكن يريد أن يَقنَع ويعتاد على وضعه الجديد. فقد اختار المقاومة دون اعتراض أو احتجاج. كان يستنكف ويمتنع عن المشاركة بأي عمل. وجهه يبدو هنا، لكنّ فِكره في مكان آخر. مايزال يرى الرجل الذي تعرّف عليه في القطار ويسمع صوته، بل لقد اعتقد أنه عرفه بين صف الضباط الذين يسهرون على النظام في المعسكر. فهل سيقومون بعزله، ويصادرون له أوهامه وقصصه الخيالية؟ أيقظوه عند الفجر وألحقوه بفصيلة تجمّع فيها بعض رفاقه. أراد ألّا يلفت الأنظار إليه، أن يختلط بالآخرين ويضيع بينهم وألّا يظل ذلك الولد ذا البشرة البيضاء الذي لم يكونوا يُظهروه إلا بكل تؤدة وحرص، بعد أن أحاطوا حياته بألواحٍ زجاجية ومرايا لايحصى عددها. وأفضل بكثير من البداية، استطاع أن ينمّي اللامبالاة ويعتمد عليها ليس بالنسبة للآخرين بل لنفسه هو. ولم يستطع، مع ذلك، أن يمتنع عن التفكير بخطيبته. أخذ يكتب لها رسائل تنم عن اليأس. ولم تردّ على رسائله. بعد بضعة أشهر، أتت لزيارته، يوم أحدٍ بعد الظهر. فلم تعرفه، لأن صورته قد تغيرت لدرجة كبيرة: أصبح حليق الرأس والذقن، نحيلاً، لوّحته الشمس، بنطال قصير من القماش، وحذاء ثقيل، لقد أصبح شخصاً آخر. حتى ابتسامته التي كانت تحبها لم تنجح بتبديد الشكوك لديها. عند ذلك أسمعها صوته. فلاحت على ثغرها ابتسامة سريعة وأشاحت بوجهها. كانت قد جلبت له بعض الحلوى والمعلّبات. وانصرفت بسرعة دون أن تقول شيئاً، متذرّعة بمواعيد الحافلة. فأخذ ينظر إليها وهي تخرج من المعسكر وعرف في تلك اللحظة أنها لم تعد خطيبته. كان دوره قد أتى الآن لكي يصبح غير محبوبٍ.

ولأنه محتجز كان ذلك يعطي لمعاناته وآلامه بُعداً مأساوياً.

خمسة أحجار ثقيلة في كيس من القماش الرمادي، خمسة أحجار يجب أن ينقلها من إحدى التلال إلى جبل يقع في الطرف الآخر من المعسكر. خمسة أحجار على الأقل تقتلعها أيدٍ أخرى من الصخور، جدار سميك لافائدة منه يجب أن يُبنى ويرتفع في وسط حقل مهجور لتشغيل الرجال وحسب، لتعريضهم للشمس فقط، لتلويح بشرتهم وتقسية عضلاتهم وإيقاعهم في شرك العبث. لجعلهم يضيعون عبر الغبار المتصاعد. صدرية صوف قصيرة خشنة، يرتدونها على أجسامهم مباشرة، تمتص العرق، قبرٌ محفور قبالة الشمس مغطّى بمشمّعٍ سميك وثقيل، وعلى الأرض مباشرة رجل مستلقٍ مكشوف الوجهِ تحرقه أشعة الشمس، ساكنٌ، صامتٌ، أربعة وعشرين ساعة تحت المشمع الثقيل، وآخر يقوم بالحراسة وأفكارهما تلتقي دون علمهما، وإن كانت نظراتهما تشرد في اتجاهات مختلفة، حتى وإن بدأ الرجل المستلقي يفقد القدرة على الرؤية لكثرة التحديق بالشمس، لن تمتد أية يدٍ لتغطي له عينيه، ولن يقترب منه أيّ جسم ليمنحه بعض الظلّ أو ليقدم له كأساً من الماء، الأرض تحتفظ بالحرارة والأفكار تدور وتدور إلى أن تحدث الدوخة والدّوار، خمسة أحجار ثقيلة توضع قرب كومة من أحجار أخرى، الظهر يتقوّس، يتمطّى الكتفان، وتلتقط اليدان المتيبّستان والمجروحتان قطعة القماش الرمادية وتستأنف الساقان الرشيقتان السير على طريق الرابية، ويمتلئ الحذاء بالرمل. والكلمات قليلة، بل نادرة لأنها غير ذات جدوى. فالبعض منهم ينظرون إلى البعض الآخر ويتابعون السير. يتوقفون ليتناولوا الطعام: ربع رغيف خبز وعلبة سردين.اللسان الجاف يلحس السماء. والأيدي المدعوكة والمصابة بالرضوض تتلمّس هنا وهناك.

هاهو جالس، يسند ظهره على جذع شجرة وقد أمسك رأسه الذي امتلأ بالريح والغبار وباقة من الأعشاب اليابسة. لقد انتفخ وسقط. وهذا بسبب... بسبب الجرح الذي لايسمى. فعندما يتّسع

الجرح، يمكن أن يطفح ويمتد، ويتجاوز كل الجسم ويتسلّل إلى أجسام أخرى فيختلس منها الوقت الذي تحتاجه للنضج والبلوغ، وللتفتيش في حيز النسيان عن حبٍ تُرك مهجوراً، دون أن يُفهم أو أنه قُتل وحسب وغلّفه النسيان، بل العار أيضاً. إنّ نقل الحجارة يروّح عن نفسه، يزيح أفكاره وينقلها من مكانها، والألم الجسدي الذي يشعر به في ظهره يشغله بما فيه الكفاية حتى أنه يجعله يحلم، لحظات قصيرة، صور سريعة يخترقها بصيص حاد آت من هناك، سماء ملوّنة، صفحة مكتوبة تُركت تحت الوسادة، خُبِّئت تحت الفراش، كلمات منقولة رُسمت رسماً، كتاب مفتوح يُقرأ من اليمين إلى اليسار، ويده المبلّلة بالماء تروح وتجيء على رأسه الحليق، والدم الذي تجمّد وأصبح بثوراً رقيقةً أخذ يغطي ويغلق الجروح الصغيرة، إنه يظنّ بأنّ الروح يمكنها المرور من هذه الفوهات والفتحات المتألّمة، ويصرّ على الاعتقاد بأنّ الروح ليست سوى غبار ملوّن يتخذ شكل حشرة شفّافة لااسم لها، تلقي بنفسها إلى الرياح كي تحملها نحو أعالي السماء، وهو يعلم أنّ هذا سخيف ومضحك، لكنه يريد العودة إلى سذاجة الطفولة، وقد أخذ ينظر إلى السماء البيضاء التي تغلّفها سحابة واحدة هي بمثابة كفنٍ للسماء، والروح يمكن أن تعبر هذه الشاشة البيضاء، بعد أن تطهّرها السحابة، وتُغسل، ثم تدفعها نحو حدودٍ ونهاياتٍ أخرى يد أو إصبع. لقد بنى لنفسه عدة مساكن في السماء يمكن أن ترقد فيها الروح نهائياً أما الجسم بعد أن فارقته الروح فيصبح فارغاً تماماً، ثم يجفّ ويفنى إلى أن يصبح من جديد ذلك الغبار العالق بتلك الحشرة الشفّافة، كان هكذا قد تدبّر أموره ورتّبها مع ألغاز الحياة والموت، في الفترة التي أمضاها مستلقياً في «السَّبَت»؛ وهاهو الآن يجلس مستنداً إلى جذع شجرةٍ، رأسه الخفيف يتأرجح وردفاه يتشبّثان بالأرض، وهو في حالة من النُّعاس مستسلماً لجذور الشجرة كي تجذبه إلى الأسفل ويُبتلع ببطء، ويمكن أن يرتفع التراب ويرتفع مستوى الأرض، أما هو فلن يتحرك. إنه لم يعد يحلم، لقد

أغمض عينيه وأخذ يبحث عن وجهٍ، عن يدٍ، عن صوتٍ. سمع صراخاً، حشرجةً، ثم لهاثاً منتظماً. الصوت الذي كان يصرخ يجب أن يكون صوت شاب، فتى مراهق بشرته بيضاء ووجهه أمرد ملتصق بالأرض، يداه تطلبان المساعدة والغوث وقد تشبّثتا بحزم من الحشائش والأعشاب، بينما أخذ صوت آخر يهدّده: «اسكت وإلاّ زدت في إيلامك... أغلق فمك وإلّا ذبحتك!».

أخذت الحرارة تُحدث ثقوباً في جلده، فتجعله أكثر حساسية: رؤية مشوّشة، تتخلّلها صور لافائدة لها، تتكدّس وتتجمّع مشكّلة طبقة سميكة. هذا هو الاختبار الصعب. فهل سيقاوم أم أنه سيستسلم ويموت؟ أخذ صوت ذلك المراهق يلاحقه من بين أدغال العلّيق. وعلم فيما بعد أنّ القضية كانت خطيرة، وأنها أُخمدت بسرعة. أُرسل الفتى إلى المشفى، ومرتكب جريمة الاغتصاب قد اختفى. ولم يعد أحد يتحدّث عن تلك القضية. إنها هلوسة مؤكّدة سبّبتها الحرارة الشديدة التي ترهق الأعصاب.

أتى بعض الشباب الذين رأوه يكتب وطلبوا منه أن يساعدهم في كتابة رسائلهم: رسائل إلى الأهل والعائلات، رسائل حب وغرام، طلبات توظيف وعمل، تصحيح بعض الجمل، تلفيق عدة جملٍ أخرى، إعادة قراءة قصائد وأشعار ساذجة في معظمها، ولكنّها مؤثّرة في بعض الأحيان. كان يشعر أنه قريب من أولئك الشباب الذين أتى أكثرهم من المناطق الجبلية. فهم يساعدونه على تحمّل الاختبار والتجربة. وهو يحبّ كثيراً أن يكتب لهم رسائلهم.

«أبي العزيز

بسم الله وبسم محمد رسول الله، أتقدّم منك لأقبّل يدك وأتلقى مباركتك. وأرجو أن تصلك رسالتي هذه وأنت بتمام الصحة والعافية. أنا مشتاق لرؤية وجهك فأنا بصحة جيدة وأموري على مايرام. وقد أسرعت بكتابة هذه الرسالة لأقول لك إن الطبيعة هنا جميلة والسماء في معظم الأحيان بيضاء. الجوّ حار جداً، وبشرتي أخذت تقسو. لاتقلق من جهتي. فنحن هنا نأكل جيداً ونقوم بكثيرٍ من

التمارين لتقوية أجسامنا. لقد قالوا لنا بأننا سنصبح رجالاً عندما نخرج من هنا، وإننا حتى الآن لسنا سوى «نسيوات». أنا برفقة عبد السلام، ابن جارنا الأكبر. وهو أيضاً يهديك السلام. أُرسل لك رقماً لكي تكتب لي. أرجو ألّا يساورك أي قلق بشأني فكلّ شيء يسير سيراً حسناً. نحن نتعلم الغناء أيضاً، وعندما نقوم بمسيرات نغني كثيراً. الهواء نقي، ولاينقصني سوى مشاهدة وجهك ووجه أمي. أهدها سلامي، سلّم لي أيضاً على أخوتي وأخواتي، علي خالتي وابنها، وعلى موزّع البريد وقل له إني صفحت عنه. وختاماً، لم يبق عليّ سوى أن أحيّيك وأقبل كتفك ويدك اليمنى.

ولدك المطيع: عبد القادر

كان هنالك أيضاً صبيٌ خجول يأتيه كل يومٍ تقريباً بقطعِ أوراق صغيرة يخربش عليها جملاً غير مكتملة:

الخميس: سأصعد على الشجرة وسأستقلّ أول مركب...

الجمعة: في قبعة جلبابه سأضع بعض ثمار الكرز والتين...

في يوم آخر: أعبر الليل على الجفون.

الثلاثاء: أنا وحدي، أنام وحدي. أحلم وحدي.

الأحد: أنا على الشجرة، وصلت متأخراً، المركب أقلع. أُمسك بأحشائي. وهذا كل مابقي لي. أنا على الشجرة وأتبوّل.

هنالك أيضاً شخص يدعى «بوشايب» يريد بكل تصميم أن يعثر على زوجة عن طريق المراسلة، لأن ابن عمه قد تزوّج بهذه الطريقة بامرأة من قسطنطينة بعد أن تبادل معها الرسائل والصور بوساطة مجلة «الكواكب» السينمائية المصرية.

«أنا شاب مغربي في الثانية والعشرين من عمري، بصحة جيدة،

أمامي مستقبل جيد. أودّ الزواج بك، وأنا جادّ في ذلك. أحب الرياضة والأفلام الهندية والمصرية. أنا لاأدخّن ولاأتناول الكحول. إني يتيم وأسرتي تسكن هنا. وأنا يسعدني، يا آنستي العزيزة، أن ألتقي بك أمام القاضي الشرعي. وأنتظر من عطفك الكريم جواباً بالموافقة».

وكان هنالك شخص آخر طويل القامة كبير الشارب، يلقّب بـ: «الفولكسفاجن» بسبب الشبه الشديد بينه وبين السيارة الألمانية، وهو يسير دائماً حاملاً راديو «ترانزستور» كبير بعد أوقات العمل. ويحب أن يرسل رسائل فارغة، أو تحوي قليلاً من التراب، وإلى أيٍّ كان، فهو ينسخ العناوين عن المغلّفات التي يلتقطها من صناديق القمامة. إنه شخص لطيف يتّصف بالبساطة وسرعة التأثر والانفعال. وقد أراد، ذات يوم، أن يكتب إلى جمال عبد الناصر، ليعرض عليه خدماته والعمل لديه كوزير أو سفير، وعلى الأقل كجاسوس. ويظل يحمل معه صورة للرئيس تحمل إهداءً كتبه هو لنفسه. ويقول على الدوام بأنّ «ناصر» سوف ينقذ الأمة العربية ويجب تعيينه رئيساً أعلى لجميع العرب. وكثيراً ماكان يتكلم بصوت منخفض مستخدماً اللهجة واللغة المحلية المصرية التي تعلّمها لكثرة ماشاهد من أفلام «فريد الأطرش».

الأيام تبدو طويلة والنوم يصبح صعباً وعسيراً، فقد كانوا خمسة وعشرين في الغرفة الواحدة، لذلك فهو يجد مشقّة في النوم، ويلاقي مقاومة شديدة لابدّ له من التغلب عليها: فهنالك أولاً مزيج من الروائح - عرق وضراط - عليه أن يتحملها،وهنالك أيضاً ذلك الاختلاط مع أناسٍ يقضون الليل كما يستطيعون. أحلام وكوابيس واستيقاظ مضطرب على أصوات وصراخ، منها ماينم عن الخوف ومنها ماينم عن البهجة والفرح. ويظل يفكر بكل تلك الأحلام التي تحتويها تلك الأسرّة التي وُضِعَت فوق بعضها البعض والتي يجب أن تلتقي في لحظة معيّنة من الليل، عبر المجد والتسبيح الذي يصمّ

الآذان والصادر عن الألوان والأحجار، في أعلى جبل تنيره المصابيح الضخمة المعلّقة في السماء، منطقة تحرسها ناقة عجوز عينها ضيقة ومبتلّة، وتحيط بها أشجار الورود البرية والصبّار الذي نضجت ثماره، ويده الملطّخة بالحبر يمسحها بالأرض، وادٍ أو سهل على سطح تجتمع عليه جميع نساء الطفولة حيث يثرثرن وقد أسدلن شعورهنّ على صدورهنّ البارزة والثقيلة، ولم يكن يفهم كيف أنّ هؤلاء الرجال المعاقَبين، الحائرين الذين أُفرغوا من كيانهم لشدة القسوة الانضباطية في معاملتهم، استطاعوا الوصول إلى هذه المنطقة السريّة التي كانوا فيها سعداء وهادئين وهم ينتظرون بكل نظام أن يحظوا بمداعبة غُلْوية من قبل إحدى النسوة، دون أن يعيروا انتباهاً إلى أنقاض الخراب التي يجلسن عليها وقد باعدن قليلاً مابين سيقانهنّ، وأمسكت بعضهنّ نهودهنّ الضخمة وقدّمنها إلى شفاهٍ عطشى، عندما يقترب منهنّ الرجال راكعين على ركبهم، حاسري الرؤوس، في أعينهم بريق المتعة والسرور؛ يمسحون بعد ذلك أفواههم بوريقات الورود البرّية، ثم ينزلون عبر الأخدود والوادي، وكأنهم يهبطون من الجوّ بعد أن أصبحوا أكثر روعةً وجمالاً، كأنهم بعض اللقالق في خفّتهم وأناقتهم، كان يراقبهم وهم يتحررون كأطفالٍ صغارٍ أُرسِلوا إلى الحقول، وجوههم باسمة وقلوبهم هائمة قليلاً. ثم ينظر إليهم وهم ينصرفون الواحد بعد الآخر ويتركونه وحده على ذلك السطح، في أعلى الجبل، فيشعر بالبرد، سيرتجف بسبب البرد أو الخوف، وبسبب الرغبة أيضاً، ويمكن عند ذلك أن تغطّيه تلك الأيدي والسواعد المغطاة بالوشم، وأن ينسدل على رأسه الأملس والمتألم شعر كثيف، وسيكون هنالك في تلك الحديقة أريكة يجلس عليها رجل أعمى يظل يغنّي حتى الفجر، وينشد الأناشيد التي تنصرف النساء على إيقاعاتها واحدة بعد الأخرى كما كنّ قد أتين، أمّا هو فسينصرف مع آخر الألحان، وسينزل، ليس عبر المسيل أو الوادي، بل على ظهر الناقة، وهي سترجعه عند الصباح حتى قبل شروق الشمس، عبر روعة الحشائش والأعشاب المبلّلة بقطرات الندى، فيجد ثانية الغطاء الرمادي، الخشن الذي دعكته الأسفار الكثيرة. سيكون ذلك هو النوم المزدان

بألوانٍ زاهيةٍ والمعطّر بالياسمين والمغلّف بنباتات الزينة والأوراق الخضراء. وستكون هذه هي «منطقة السرّ» في آخر ليل يسوده ظلام دامس، وكأنها شارع مفتوح في مدينة مظلمة، أو معبر محاط بالخفايا والأسرار والأضواء له طعم الطفولة والصيف النديّ، وطابع لحظة الحب وعناق النسيان. وستكون هنالك النافذة التي ستدفعها برفقٍ يد فتاة شابة تضع قفازاً لكي تدعه يمرّ، وكأنه لايهرب، بل يعبر النافذة وحسب لكي يذهب بعيداً، وبعيداً جداً، بحيث أن الحارس الليلي عندما يصرخ لإيقاظ جميع من في الغرفة سيكون هناك لكنه غائب وقد أمسكت به سواعد البراري ووجهها، سينهض دون أن يعترض أو يحتجّ ويقدّم رأسه لجاره لكي يحلقه له، بل ربما بدأ بحلاقة رأس جاره قبل أن يجثو ويخفض رأسه، وشفرة الحلاقة حتى وإن كانت قديمة فإنها تمرّ على الرأس دون أن تجرحه، وسيُصلح زينته وهو يغني، ويَصبح مستعداً لعرض جسمه الذي يرتدي الملابس النظامية، وهو يقف في مكانه ساكناً لايتحرك، منتظراً لحظة العرض والتفتيش. وعند ذلك سيأتي الرئيس ـ كبير الحرس ـ فيمرّ بيده على رأسه ويقول له: «هذا حسن» ثم يمرّ بأصابعه على فتحات جيوب بنطاله، التي تكون مغلقة وقد خيطت بخيوط قوية، فيقول له أيضاً: «هذا حسن»، لايد توضع في الجيب، ها أنت أخذت تصبح رجلاً، فلا مجال للخوف من البرد، لاتكن كسولاً، كن منضبطاً مستقيماً، متقيداً بالمواعيد، أقدامك ثابتة على الأرض، وعليك ألّا تشتغل بالسياسة أو تهتم بها أبداً بعد اليوم، فيصعد المرتفع راكضاً «بخطوات صغيرة»، وقد ضمّ ذراعيه إلى صدره، حاملاً على ظهره الكيس والأحجار، ويذهب بعيداً، وبعيداً جداً، لدرجة أنّ الدهشة تستولي على جميع الحراس وتساورهم الشكوك حول هذا القَدْر الكبير من الانضباط.

في هذه الصورة حاولت أن أبتسم، لكني بعيد. ومن عينيّ ينبعث حزن عظيم وسذاجة تبحث عن النسيان. ووجهي يبدو عليه ظلّ

شعري. وعلى جمجمتي ندبة جرح صغير في الجهة اليسرى، وفراغ في الوسط. وجسمي يتجذّر ويتثبّت في الأرض أكثر من أي وقت مضى.

وفي صورة أخرى، أقف لتؤخذ لي لتقديمها إلى الإدارة. وقد علّقوا لي حول عنقي لوحة كتب عليها رقم، خط منحنٍ، وحرف ثم تاريخ. أنا شاحب الوجه. وقد نما شعري بضعة ميلمترات. وفرغت نظرتي من أي مدلول أو معنى، أو بالأحرى تبدو متجهة إلى عتبة إحدى المقابر. وقد أخذت تنتظر. أنا جادّ ووقور. وأشعر بأني ملاحق يطاردني أحد الحيوانات. ونظرة تنم عن الحداد لايفهم منها شيء. هكذا كانت هذه الصورة التي أُخذت لي عشية اليوم الذي أطلق فيه سراحي. ولم أكن أعرف فيما إذا كانوا سيمنحونني حريتي أم أنهم سيرسلونني إلى مكانٍ آخر لتحسين العمل وإنجازه على عضلاتي وعلى أفكاري وإرادتي. وكنت مستعداً لأن أتحمّل بالحزن نفسه وفراغ العينين نفسه، فترةً علاجيةً أخرى، بما فيها من سجنٍ وحرمانٍ وغياب. سلّموني ملابسي: قميص وبنطال صيفي. كانت السماء تمطر والشتاء برده قارس وشديد. وهو ثاني شتاء. غادرت المعسكر عند الضحى، ولم أكن حتى سعيداً بذلك، كنت غائباً شارد الذهن لامبالياً، أنظر إلى يديّ وقد تغيّرتا: أصبحتا قاسيتين وكبيرتين.

عدت إلى بيت أهلي، وبقيت صامتاً عدة أيام: جسدي هناك وروحي ماتزال هائمة عند سفح الجبل.

وطيلة تلك الفترة لم أمارس الحب. امتناع عن ذلك وتعفّف أُرغمت عليه طيلة عامين على وجه التقريب. وإنّه لأمر غريب كيف يعتاد المرء على كل شيء، حتى على غياب المداعبات. فالمرء ينسى. إذ لم تعد الحياة محكومة بإيقاع الرغبات، حتى أننا لم نعد نشعر بالحنين إليها. ذات مساء، قفزنا من فوق سور المعسكر أنا وبعض الرفاق وذهبنا إلى إحدى دور البغاء. كان البرد قارساً ولم تكن لديّ رغبة حقيقية بمضاجعة إحدى الفتيات. وقد حظيت بمحض

المصادفة بأجمل الفتيات وأكثرهن نضارة وشباباً، ولكنها كانت نحيلة وشاحبة، تسعل وهي تمضغ العلكة. أُطفئت جميع الأضواء، وجذبت كل امرأة زبونها نحوها. جذبتني فتاتي بعنف شديد واستلقت على ظهرها، ودون أن تخلع ملابسها فتحت ساقيها وأخذت تنتظر. كنت أسمع صوت تنفسها الذي كان مضطرباً بعض الشيء، وصوت فكّيها وهما يمضغان العلكة وقد وضعت يديها على ركبتيها، وعندما نفد صبرها، طلبت مني أن أسرع قائلة: «ماذا تنتظر؟» فاستلقيت بجانبها ومددت يدي على فخذيها وعلى عانتها. لم تكن بشرتها ناعمة. كنت أسمع أصوات الآخرين وهم يمارسون الدعارة والفسق، ويلقون التعليقات البذيئة. أدخلث يدها في بنطالي وأخذت تداعبني دون اهتمام أو ملاطفة فقذفتُ بين أصابعها، عند ذلك نهضث وأخذت تلعنني. لم أشعر بأية لذة، بل شعرت برغبة شديدة بالتقيؤ أو بتناول كوبٍ كبير من الماء. لقد فوجئتُ بما حدث لي وحزنت وكأني قد تغيرت وأصبحت في حالة الحداد، بينما كان رفاقي فرحين مزهوّين. وعند خروجهم اصطفوا بجانب الجدار وتبوّلوا وهم يغنّون. قال أحدهم: بعد المضاجعة يجب على المرء أن يتبوّل دائماً، وبذلك تذهب الجراثيم والأمراض! ولكنّ هذا لم يمنع من إصابة اثنين منهم بالتهابات جنسية خبيثة... وأنا لم أكن بحاجة لهذا الاختيار كي أعرف أنّ قدرتي الجنسية كانت غائبة. إذ لم تكن بي رغبة بالجماع. كنت أتلمّس قضيبي من وقت لآخر، فأجده يرقد بارداً، لامبالياً. فقد كان البعض يدّعون أن المسؤولين كانوا يضعون لنا في القهوة أو الشوربة مادة «البرومور» لتهدئة رغبتنا الجنسية وإخمادها. وبينما كان الآخرون يختبئون كي يمارسوا العادة السرّية، كنت أنا أختبئ كي أكتب. فقد كتبت تاريخ «أورفي» و«أثينا»[1] على خلفية تمرّد وانتفاضة. ولكم كنت أحب هذين

(1) «أورفي» و«أثينا»: أسماء شخصيات من الميثولوجيا والأساطير اليونانية.

الإسمين. أهديت هذا النص إلى خطيبتي، دون أن أحاول رؤيتها ثانيةً. فقد كنت أخاف من أن ألتقي بها بعد أن فُسخت خطوبتنا. وكثيراً ماحدث لي أن التقيت وجهاً لوجه بأبيها في الشارع. فكنت أخفض بصري وأتابع طريقي. لأني أشعر عند ذلك بالخجل. علمت، بعد أن أُطلق سراحي، أنها تقيم علاقة غامضة مع شخص هام أتى من بلدٍ آخر، ولم أرغب بمعرفة المزيد عن هذا الموضوع. وقد التقيت بها ذات يوم في قاعة للشاي بمدينة «طنجة». كانت تبدو جميلة وحزينة. أطلعتها على أشعاري. لم تكد تنظر إليها. تحدّثنا قليلاً عن بعض الأمور. شعرت بالحرج، كان الموقف صعباً، فهي ناقمة عليّ كثيراً. وقفتْ كي تنصرف، ثم توقفت لحظة، وكتبت على مفكرتها، المؤرخة في 13 كانون الثاني 1968 جملةً، ونزعت الصفحة ووضعتها على المنضدة: «بدلاً من أن تكتب كان ينبغي عليك أن تعيش...».

VII

«وأنت اخترت أن تكتب!» هذا ماقالته لي «د.» على شرفة أحد المقاهي، في ميناء «خانيا»

فهنالك من يكتبون خِشية أن يصابوا بالجنون، وآخرون لأنهم لايجيدون عملاً آخر، وبعضهم بدافع الوهم أو الغرور، وأخيراً، هنالك غيرهم يقومون بذلك ازدراءً بالموت وليتركوا خليفةً أو ذِكراً لهم عبر الزمن. أما أنت فتكتب كيلا يبقى لك وجه وكيلا تظهر على الناس. تريد إذابة جسمك كيلا يحجب كلماتك بعد الآن. أن تصبح أنت هذه الكلمات التي تتجمّع، تتناقض وتتبعثر إلى مالانهاية في صور صغيرة أو إلى حفنات من الرماد تتطاير من أعلى شاطئ صخريٍّ عالٍ.

الكلمات ترهقك وتضايقك. وأنت تقول أنها خطيرة، وأنها غالباً ماتمنعك من النوم، لأنها تتحول إلى ذرّات رمل في رأسك، فتسبّب لك شقيقة وآلاماً مبرحة. وأنت تكتب لكي تعبر الحياة، وتصبح في الجانب الآخر (لاتسألني أي جانب) لكي تصبح في مأمن. مجرّد وهم! فالكلمات ستار، نسيج رقيق، هش وشفّاف. أنت تتمنّى ألّا يوجد أحد خلف هذا الستار الممدود بينك وبين العالم، وألّا يُعرَف، على أية حالٍ، أي وجه، أو أي تمثال محا وجهه الزمن، تمثال يمضي ويعود في حقل صُوَرِك المغلق. ويكفي أن تنحني فتلتقط بعضها لكي

تجمّعها وترتبها وتقذفها في وجه أولئك الذين يعيشون على الضفة الأخرى. وهذا الستار، أنت لاتريده مرآةً. ربّما كان لوحاً زجاجياً، لأننا رغم كل شيء، نراك، نَلمَحُكَ جالساً في إحدى الزوايا، وقد أصخْت السمع، واضعاً يدك على خدك. تنظر إلى الأشياء وهي تتحرك وتراقب الناس وهم يروحون ويجيئون، وأولئك الذين يلتصقون بالأحجار الذين يعهدون بأجسامهم إلى البلى، والذين يقودون حصاناً لايمكن رؤيته ويروون قصة «عنتر وعبلة»، القصة التي لم تكتمل ولايمكن إنهاؤها، وأولئك الذين يربّون الضّباع ويطعمونها ثم يطلقونها على جمهور غاضب والذين يمسحون الأحذية ويبيعون السجائر بالمفرّق، الذين ينفردون في أعالي المآذن منتظرين بزوغ الفجر لكي ينحنوا إلى أن يسقطوا على الإسفلت. أنت تصيخ السمع لكي تسمع قلوباً تخفق، صدوراً تختنق، أرضاً تتحرك، مقبرة تنتقل من مكانها، الأرض وهي تَتنفّس وتختنق ثم تقذف أيدٍ احتجزتها الأحجار. فتلملم أعضاءك وتدفنها في الرمال. تثبّتها وتمنعها من الحركة. وذلك الوجه الذي أردت أن يكون غائباً يبرز وحده كالغلطة الظاهرة، ويبدو على مستوى سطح الأرض. يدور حول نفسه. وعندما كنت أقرأ ماكتبت التقيت بك، ولمست صدرك بيديّ، وشعرت بحرارة جبينك، فغمرتني حرارة شديدة، تلك الحرارة التي تسبق الجنون أو الموت. وتوضعت كلماتك على جسدي وأخذ بعضها يحرقني. كنت أحبّ هذا التّماس الحسّي والمسكر معك الذي لم أكد أعرفه. وكثيراً ماتساءلتُ فيما إذا كنتَ قد عشتَ فعلاً الوقائع التي تحدّثت عنها، إذ لديّ رغبة شديدة لمعرفة ذلك. والشكوك كانت تساورني حول هذا الموضوع، لأنّ سكينتك وهدوءك كانا يثيران قلقي.

إني لم أكتب سوى الحكايات الخيالية. وقد بدت لي الكلمات على الدوام باهتة وهزيلة إزاء الانفعالات المثيرة والأحاسيس التي تمتد من أقصى نقطة في الحياة إلى أقصى نقطة في العدم. لقد رأيتكَ. وراقبتكَ وأنت تنظر إلى الطبيعة، على سبيل المثال. فلم يبدر

منك أيّ رد فعل، أو كان ردّ فعلك ضعيفاً حيالها، وبقيت لامبالياً، قليل الاهتمام بما ترى. أمّا أنا فيكفي أن أسمع خرير جدولٍ، أو حفيف أوراق الأشجار الذي تحدثه الرياح لكي يرتجف جسمي، فهذه الأصوات وهذه الموسيقا تدخل في كياني، وتخترق أحشائي وتهزّ جسدي حتى الأعماق... وهذا هو الحب. ومثل هذه الانفعالات والأحاسيس عندما تستولي تماماً على كياني تجعلني أتمتع بالغبطة والبهجة. فالطبيعة تدخل بي وأدخل بها إلى أن تتوقف أنفاسي وأفقد الوعي. بينما أنت تنظر وتتطلّع. فأنت متفرّج مولع بالجمالية وعلم الجمال وتجيد الكلام عنهما، وربّما بسبب ذلك لم تعد لدي القدرة على أن تعيشهما، ولاعلى العيش. وكلّما قرأت ماكتبته، كلما التقيت بك تزداد بعداً عني. ولذلك كان من الأفضل ألاّ أقرأ لك لكي ألقاكَ بدون حجاب الكلمات. فمعها تبدو مشبوهاً، متواطئاً. وأنا أبذل جهداً لكي أذهب بين هذا وذاك، مِن الذي يكتب ويثير الانفعالات في نفسي إلى الذي يقترب مني ولاأشعر به بشكل حقيقي. أوه، إني لست واثقة من شيء! وبعد لقائنا بالضبط، كتبت لك رسالة. لكني لم ارسلها. فقد ساورتني الشكوك، وربما بعض الوساوس أيضاً. وهذه الرسالة، التي كتبتها في مطبخي بمدينة «أثينا»، أقرؤها لكَ اليوم:

«النور مايزال ضعيفاً، الساعة الآن السادسة صباحاً. أفكّر بكَ. وماذا يمكنني أن أصنع أكثر عظمةً وصحةً وعدلاً من أن أعيش كما أستطيع، كما يتاح لي العيش، وأن أشعر كما أشعر وأحسّ بنفسي وذاتي. ويوم أتيت لتناول الطعام معي، دوّنت مايلي في دفتر مذكراتي: لكم كنت أودّ أن أرتدي أجمل فساتيني، لكنه لم يكن قد خِيط بعد. حقاً، إنه لم يكن قد خِيط بعد، ولكن كل لحظة تمر من حياتي كانت تعمل على إنجازه. وسيكون لهذا الفستان ألوان كثيرة، بل جميع الألوان، ولأنّ حياتي تدور وتلفّ دون توقف ـ برقصة تشبه كثيراً رقص الدراويش وهم يدورون ويلتفون حول أنفسهم ـ فهي تبدع البياض واللون الأبيض لأعين النجوم ولأعين الشعراء.

«أشعر برغبة شديدة بأن ألقاكَ ذات يوم وأنا أرتدي هذا

الفستان. ومن أجل ذلك ليس هنالك سوى طريقة واحدة: أن تدعني أعيش الحياة التي أكنّها في قرارة نفسي. فالإيقاع والموسيقا اللذان أرقص عليهما موجودان في جسدي، في أفكاري وفي أفعالي وتصرّفاتي. وأحياناً أرتجل وأشعر بالدهشة. ولكن صدّقني فإني أحافظ جيداً على الإيقاع، أو بالأحرى الإيقاع هو الذي يمسك بي ويملي عليّ خطواتي. ويوجد مثل ذلك أنماط من الحياة تملي القصائد على الشعراء. لأنّ الشاعر الحقيقي بالنسبة لي هو الذي يُغني أعماله من وجوده ومن حياته الخاصّة، يغرف ويملأ كيانه من حياة الآخرين، ويعبّر عنها. والشعراء هم أولئك الذين يجعلون نشيد الحياة ينبض ويدوّي كما تجعل الزهرة أو الحجر يدوّي ويتجاوب فيها وجود الكائن الأعظم، وجود الله مثلاً.

«ولكم أودّ أن نرقص سوية. إذا أمكن ذلك. فالحبّ، حبي لك، قد تغلغل في كياني. وأنا أحسّه في داخلي، وهو يدفعني إلى الارتجال. يجعلني أرقص بطريقة أخرى. فأنا أعرف ذلك: أشعر بفرح غامر. وأنا سعيدة جداً لأني التقيت بك».

«والمغرب بالنسبة لي بلاد تتحرك، مثل كوكب أخذ يدفن نفسه في الصحراء الملوّنة بالأبيض - البنّي - والذهبي، وأنا أقترب بخطوات رشيقة فأداعب نظرتك الوديعة والمشرقة.. إلى اللقاء القريب».

ولكنّ الكلمات...

ربّما أمكن أن تكون ستاراً أو حجاباً، لكن ليس ذريعة أو ملاذاً. وجملي الأولى انبثقت من جرحٍ بكل رعونة وكآبة. مقاطع من قصيدة انطبعت في رأسي وعلى جبيني في ذلك اليوم من شهر آذار سنة 1965 ، عندما نزل إلى شوارع «الدار البيضاء»، صبيان، رجال ونساء، عاطلون عن العمل: انتفاضة عفوية، أوقفتها المدافع الرّشاشة.

لم أكن أطيق البقاء مستودعاً لكلمات ملأى بالتراب والدم مختبئة في صدري وكأنها رصاصات وطلقات نارية. ولأني لم أستطع التصرف أو القيام بأي عمل، فقد كان عليّ أن أتكلم لأروي وأنقل ماينادي ويُطالب به أبناء الشعب.

وقد حاولت تأدية الشهادة على مارأيته وسمعته وأحسست به في تلك الأيام من شهر آذار التي كنا أثناءها نتابع من «الرباط» حالة الغليان التي كانت تسود في «الدار البيضاء».

وربّما لو أني لم أعش تلك الأيام التي سادها الرعب والقلق، والتي ظهر لي فيها وجه النظام والظلم، ذلك الوجه المبتذل، العادي، القاسي والوحشي، لما كنت كتبت مطلقاً.

لأنّ كل شيء كان قد أعيد بسرعة إلى النظام وإلى سابق عهده: فقد دُفن القتلى في الخفاء، وألزَمَ النظامُ الناسَ أن يلزموا الصمت ليظل الأمر طي الكتمان.

لذلك بقيتْ لي الكلمات، كلمات من تلك التي تقشر الصفحة وتقشطها، ولها القدرة على تمزيق الحجب عن مشهدٍ مموّهٍ ومقنّع ليظهر على حقيقته، وأن تكون خدوشاً على مرآةٍ عليها مناطق بيضاء وأخرى فارغة ومهملة.

وقد كانت صورة هذه المرآة الفاسدة التي لافائدة منها، والتي تبدو من خلالها الكلمات حاضرة في ذهني على الدّوام، والكتابة بالنسبة لي هي تلك الندبة في صفاء الضرورة.

كتبت (L,Aube des dalles): «فجر البلاطات» الذي كان عملي الأول وجسمي محموم ومضطهد. كنت أشعر أني منزعج ومتألم وأخشى أن أختنق أثناء نومي وأموت. وأنّ اللعاب يملأ حلقي، فأنام وقد رفعت رأسي، وعليّ أن أُخرج الكلمات، الواحدة بعد الأخرى. وكوني كنت سجيناً في أحد معسكرات الاعتقال، يحيط بي ضجيج الوحشية الذي يصمّ الآذان ولايمكن فهمه، بل يُنكر وينفي وجود الشِعر والإحساس والعواطف، كلّ ذلك كان يدفع الكلمات لكي تخرج وقد سُلخت من جلودها. فقد كنّا هناك لكي ننبذ الإحساس

والانفعال، ولكي نشفى منهما. ولاأعلم فيما إذا كنت أكتب لأنّ الحب قد جرحني أم لأني كنت محطّماً في جسم أولئك الذين سقطوا صرعى الرصاص والعيارات النارية.

جمّعت جسمي فأصبحت صغيراً جداً واختبأت خلف الكلمات. أصبحت مهملاً، مضحّياً بماء الوجه. كنت أضع النرجسية في الأمل بمذلةٍ لانهاية لها وبإهمال الذات والتخلي عنها وعن صورتي الخاصة. والمرآة البالية، بدلاً من أن تعكس لي صورتي كانت تضعني وجهاً لوجه أمام الخجل، هذا الشعور الذي يجعل الوجه يكشف نفسه ويفصح عمّا فيه، مبدياً ذلك اللون الأحمر الذي يبرز كالحمى ويلفت أنظار الآخرين.

لاتبحث عن رضى الآخرين، بل ابْقَ جديراً بوحدتِكَ، جديراً بموتِكَ، ليس السقوط النهائي، بل ذلك الموت الأساسي المسجل في الزمن بوساطة مقاطع الكلمات التي تشكل القصيدة.

كنت أكتب بصمت. أكتب بالسرّ. أحمل معي قصاصات الورق التي أدوّن عليها بعض الجمل والأشعار. وأعيد قراءتها في دورات المياه. وفي تلك الفترة كان من حسن حظي أني مرضت، فيالها من نعمة! أن أغادر المعسكر لأرقد على سرير في المشفى! كنت أعاني من آلام في الخصيتين وفي الحوض. هل هو فتق داخلي؟ أشعر بالألم معظم الوقت. فهل هو ألم وهمي أم حقيقي؟ لاأستطيع اليوم تبينّ ذلك. لقد قرأت وكتبت كثيراً وأنا في السرير، في غرفة يزدحم فيها المرضى، الذين كان بعضهم في النزع الأخير. كنت أقرأ (Ulysse)(1) من مؤلّفات (Joyce)(2) وأنا أتأمل البحر.

كنت نحيلاً وشاحباً يضيع جسمي في بيجاما واسعة. وقد نما

---

(1) «Ulysse» أو «عوليس»: رواية من تأليف «جيمس جويس» (1922): «مونولوج» داخلي طويل: (مناجاة وحديث مع الذات) تعبّر في تشوّشها نفسه عن التشوّش والفوضى في المشاعر والانطباعات التي تتوالى عبر الضمير والوعي لدى البشر.

(2) «Joyce»: «جيمس جويس» كاتب إيرلندي، ولد في «رنجار» قرب «دبلن» (1882 - 1941)، مؤلف رواية «Ulysse» «عوليس» وهي عبارة عن «مونولوج داخلي» يلفت الأنظار بغرابته.

شعري، ولكني أعرف أنهم لابد سيحلقونه لي قبل عودتي إلى المعسكر.

إني أكتب في السرير وقد أسندت دفتري على ركبتي، محاطاً بوجوه متعبة وعيون كامدة وشاردة. كنا ثمانية في تلك الغرفة، وقليلاً ماكنا نتكلم مع بعضنا. وكثيراً ماحاولت تبيّن حياة هذه الأجسام الممدّدة. كان أصحابها يغمرهم الحزن، لاتبدر منهم أية مبادرة ولايبدو عليهم الحنين. لقد حاربوا في إيطاليا وفي الهند الصينية... ويرقدون ملتزمين الصمت لفترات طويلة، هادئين، قانعين وراضين بما هم فيه، يديرون ظهورهم إلى البحر، ربما بانتظار أن يأتي من يزورهم، ولكن لم يكن يأتي أحد.

وذات صباح استيقظت باكراً على رائحة قوية. ألقيت نظرة على جاري وهو رجل لم تتقدم به السنّ، كان فاغر الفم وعيناه مفتوحتان. راقبت صدره بانتباه: إنه لم يعد يتنفّس. كدت أجن، وأصابني ذعر شديد. ركضت في الرواق لأخبر الممرّضين. لم أجد أحداً، كان الجميع مايزالون نائمين. لم أكن قد رأيت ميتاً منذ وفاة عمي. أخذت أنظر إليه فاقد الحياة لاتبدر منه حركة بعض خصلاتٍ من شعره مبعثرة على الوسادة. لقد فارق الحياة في الليل وهو إلى جانبي، بينما كنت أحلم وأبتسم للصور التي تتراءى لي عبر الظلام.

لم أعد أطيق المشفى ولافكرة العودة إلى معسكر الاعتقال. لقد حلقوا لي شعري، وسارت الأمور كسابق عهدها.

وهكذا قررت أن أكتب وأن أختبئ. كنت قد حفرت فتحة كالمصيدة في جسمي، أحملها معي، لم تكن كالجرح بل كملاذٍ وملجأ في منأى عن شظايا ورشاش الكلمات المتواطئة مع العزلة والوحدة، والكريمة مع الموت. «الموت ـ قال «جينيه»: الموت الذي أحدثّك عنه ـ ليس ذلك الموت الذي يلي سقوطك، بل ذلك الذي يسبق ظهورك على الحبل. وإنما أنت تموت قبل أن تصعد عليه. فالذي سيرقص سوف يموت، عاقداً العزم على التمتع بكل مظاهر الجمال، قادراً على القيام بذلك كله».

VIII

كل شيء فيها مختوم: الأبواب والقلوب. مدينة بيضاء: «تطوان» تمسك بها كماشة مكونة من جبلين. مدينة مصابة بالربو، لها مظهر القلعة، ذات جسم متعالٍ، تدفن نفسها وتختبئ عن الأنظار وعن الأيدي. والدخول إليها يتطلب الجرأة ويشبه الوهم. حتى الرياح عندما تصل إليها لاتفعل شيئاً سوى الالتفاف بشكل دائري. فتنغلق الأبواب والوجوه، بدون عجلة وبلا عنف. وفي وقت القيلولة، وقت الحب، تقلب الرياح الكراسي الفارغة في المقاهي، تصطدم بالجدران والصمت. تئزّ، تدور وتلفّ، ثم تنصرف: فالمدينة تتعبها.

حول الساحات المستديرة تتوزع المقاهي على الشرفات والبلكونات، يؤمّها الروّاد ليزرعوا مرايا ويسجلوا أنفسهم في صخب واقع محدّد وضيق. وقد ألقوا عيونهم وأيديهم الكئيبة كشواهد وأدلّة على الحدث. وجود عبثي لأجسامٍ يغلفها الخجل والعار، منفصلة ومتباعدة عن بعضها بعد أن شوّهتْ نفسها، عصبية المزاج لكنها ساكنة لاتتحرك، وقد فقدت جماليتها، غير متجسِّدة، لشدة رغبتها بالدوام وحَسَدِها للأبدية الخرساء والوهمية للحجارة الرمادية المرصوفة على خلفية السماء الزرقاء كي تبعث على الاطمئنان وتدفع إلى الضمّ والعناق. أما الأصوات الصمَّاء التي لانبرة لها والتي تتجول وهي تتبع الزنابير التي تلتصق حول الشاي بالنعناع المحلى بمزيد من السكر، فيعتريها التشويش وتختلط

ببعضها في آلية الانعكاس والارتداد، وتصطدم بالجدران المذهبة لبيت شُيّد على بعض الأنقاض، وأغلقت أبوابه ونوافذه بالمزاليج وأخذ يتنقّل متوارياً عند الخط البعيد لأحد المحيطات أو لإحدى الصحارى.

وجود كله مظاهر: كثير من الجرار الفارغة لايسكنها شيء، كلٌ منها منعزلة عن الأخرى تتسم بالخطورة والشؤم.

واليد التي تبرز من الظلام تقع على يدٍ أخرى مغطاة بذرات من الرمل الناعم، تحتجز مستودعاً صغيراً للملح البحري، تتقلّص وتنسحب. فتمسك بها الأخرى وترفعها إلى شفتيها المبلّلتين فتقبلانها، تلحسانها، ثم تغسلانها وتجعلانها تنفتح كأنها وجهٌ ينفتح على وجه آخر.

هذا وقت القيلولة، وقت الحب، وقت الطيران المرصع المهيأ الذي حدّده الموت في ساحة مقفرة انسحبت منها المدينة، حيث الرجل الذي ينحني لكي يلتقط ورقة شجرة التين الكبيرة، هو أعمى ينشر قسوة الدموع في داخل الظلام الذي يحيط به، يغذيه ويدفعه حتى الشمس. وبعد أن تهزمه سيطرة الظلام يتقدم دون أن يتلمّس، يجرجر يده على الجدار، ويتوقف فجأة أمام وجه العاشق النائم، الذي وضع رأسه على طاولةٍ عرجاء على شرفة مقهى مهجور.

هذه ساعة الصمت والانتقام التي يكون فيها الحب فتىً مراهقاً، داعراً، جسماً فاجراً ينحني على الموت، تحاصره كتلة من الدخان الكثيف، الحار والنّتن، وجهاً منبهراً خالياً من سمات القلق، مستسلماً لليد المرتجفة التي تسحبه نحو المصيدة التي سيقيم فيها بعيداً عن الذباب وعن النمل، حيث سيتفسّخ ببطء في التحول العُلْوي حتى الولادة غير المتوقّعة والمنطلقة بحرّية، جسماً شمله العفو والنعمة بكل قسوة في هذه المدينة التي تغيب وتتوارى كلما عَبَرها المرء أو كتب عنها.

وهي تخفض جفنيها المثقلين، وتفك ذراعيها اللذين يشدّ

وثاقهما منذ قرن من الزمن نبات اللبلاب المتسلق الذي غرسه هناك سهواً ضابط مسنّ في الجيش الإسباني. والمدينة تغمض عينيها على الطبقة الكثيفة من الدخان والضباب، تلتفت وتنفصل ببطء عن أساطيرها، فتسقط تباعاً الواحدة بعد الأخرى. تُخلي «تطوان» الليل من ظلالها وتجمع بهرج زينتها قبل طلوع الفجر. تلزم الصمت وتهبط بهدوء نحو البحر. ويبقى هنالك بيت أبيض طليت نوافذه باللون الأزرق على عتبة الرمال كشاهدة القبر. هنا عاش عاشقان ملعونان. وهذا البيت هو مقبرتهما. لقد اختبآ فيه لكي يحبّا بعضهما ثم يموتان.

هذا هو الوقت الذي تنسحب فيه الصُوَر وتسقط فيه الكلمات وتنزلق بين الأحجار. والمدينة المذكورة تُبدّل وجهها، ضوءها ولونها. المدينة تنتهي في قصة المسافر الذي يجد نفسه من جديد، وحيداً، يتيماً، بلا ذاكرة، وبلا لسان، مجرّداً من كل شيء، بمفرده مع الضيق والقلق. فيذكر المدينة بدافع من التحدي أو بدافع الأمل وينتظر. وكأنّ ذلك قد حدث بأعجوبة، فقد امتلأت وأخذت تعجّ بمجانينها ومتسوّليها، بنسائها وشمسها، دبّت فيها الحياة، وفُتحت الأسواق والمقاهي ورُفعت ستائر الدكاكين، وجلست القرويات المسنّات في الساحة الصغيرة، عند مدخل «المدينة» فأخذن يبعن الأغطية المطرّزة الصوفية والقطنية، الأوشحة والمناديل.

«تطوان» تعود إلى أحجارها وتستقر بالإقامة لبعض الوقت في مساكنها، في مساجدها وفي شرفاتها. وهي لم تعد تحرد في الليل، بل ترسل الكلمات إلى وجه الحكواتي المتجعد الذي جلس في إحدى زوايا الساحة الكبرى وأخذ يأكل خبزاً يابساً يغمسه بالماء. إنه لم يعد يتكلم، بل ينظر.

عرفتُ في «تطوان» الملل، الفراغ والظلام. وعانيتُ من القلق والغمّ في الليالي التي لم تكن تبدو لها نهاية والمسكونة بالأشباح التي تسوقها الرياح المجنونة. تلك الليالي التي تهبط بقسوة محملة بالبخار النديّ والدُّبق، فتستقرّ في غرفة صغيرة تقع على سطح

إحدى البنايات القديمة. هنا كنت أسكن، وأقضي الليالي وأنا أدفع بذراعيّ الممدودتين طبقة النسيج الليلي الكثيفة التي تحيط وتمسك بي مستيقظاً وتعيق تنفّسي. فأتنفس الصعداء وتخف معاناتي عندما يلوح الصباح، لكني أكون متعباً جداً، بل منهكاً من العراك طيلة الليل. فأقفز من النافذة وأجلس على السطح كي أتنفس بعمق شديد. من هناك كنت أرى قمة جبل «درسا»: سوداء، عالية، لايمكن تسلقها، فأعرف أنّ الليل يأتي من هناك.

وعندما عُيّنت لتدريس الفلسفة في إحدى ثانويات المدينة الصغيرة، قررت تكريس نفسي كلياً لطلابي. كان هذا هو ولعي الوحيد. كان معظم أولئك الطلاب يأتون من منطقة «الريف»، أبناء وبنات فلاحين فقراء. ومع رغبتهم بالتعلّم وشدة اهتمامهم بالمناقشة ويفهم كل شيء، أخذت أشعر بأني أقل عزلة ووحدة، وأنّ الليل أقل طولاً، وقد أخلي، بخاصةٍ، من أشباحه. كان وجودهم الذي يتّسم بالانتباه الشديد يملأ فراغي ويغمر كياني: وكثيراً ماحدثوني عن البلاد وأعطوني مزيداً من المعلومات عنها، فيجمعون بين الدرس وبعض شؤون حياتهم. فلم يكن هنالك من فلسفة في نظرهم سوى تلك التي تساعدهم على فهم الواقع الآني والمباشر وأمور الحياة اليومية. وقد شغفوا بـ «سقراط»، «ماركس» و«فرويد» وتحمسوا لهم: فالأول يجذبهم بتلك الحقيقة التي تنير حواراته. والثاني «ماركس» صاحب «بيان الحزب الشيوعي» أثار اهتمامهم لأنه كان يحدّثهم عن أمور مألوفة، وعن أوضاع وشروط يعيشونها ويعانون منها. أمّا «فرويد» فقد فتح لهم النوافذ على عالم ماكانوا يجرؤون على الحديث عنه أبداً: ألا وهو عالم الجنس والحياة الجنسية. وأثناء التعليق على «التحاليل النفسية الخمسة»، كانت وجوه الفتيات تحمرّ خجلاً، والفتيان يكتمون ضحكات عصبية. وذات يوم قرّرت إحدى الطالبات أن تخرق المحرّمات وتتحداها، فقدّمت دراسة وعرضاً مفصلاً أمام عدة صفوف من طلاب الثانوية عن أوضاع وشروط حياة الفتاة المغربية في المحيط التقليدي.

فأحدث عملها ضجّة، بل فضيحة صغيرة. وقد اعتبرني بعض أولياء الطلاب عنصراً مخرّباً يبذر الشكوك، يشجع على الاعتراض والعصيان ويثير الجدل وإعادة طرح بعض الأمور للنقاش في مدينة مغلقة هادئة ومطمئنة، اشتهرت باحترامها الديني الشديد للقيم الثابتة والتقليدية، مدينة لايجوز أن يتبدّل أو أن يتغيّر فيها أيّ شيء، مدينة «الثوابت» حاجز أقيم أمام الأعمال الشائنة التي كانت تمارس في الخفاء. في تلك الفترة ارتبطتُ بعلاقة صداقة مع أحد الزملاء في المدرسة، من سكان هذه المدينة الأصليين، ولكنه كان يعيش على هامشها. فهو يكره «تطوان» ويلعنها وهي تكيل له الصاع صاعين. وكثيراً ماررافقتُه في جولاته على الحانات. كان حلمه هو الرحيل عنها وعدم العودة. الرحيل إلى الصين أو جزر «الأنتيل». الرحيل والسفر بعيداً جداً ونسيان هذه المدينة بصورة نهائية.

كانت حياتي العاطفية طيلة تلك الفترة تتصف بالفقر المدقع. ومن وقت لآخر كنت أمارس الحب مع فتاة جميلة تقول عن نفسها بأنها طالبة حرّة، تدرس للتحضير لمسابقة القبول في إحدى المدارس الإسبانية. كنت أصدّقها، والحقيقة أني لم أحاول معرفة المزيد عنها. كانت تأتي لزيارتي بعد الظهر، مرحة على الدوام، بل وبشكل يدعو إلى الضحك والاستغراب في بعض الأحيان. ويروق لها أن تتنكّر وتفاجئني في وقت القيلولة. وذات يوم أتت متدثرة بـ «حايك» وقد وضعت حجاباً على وجهها وبالغث بوضع المساحيق على وجنتيها والكحل في عينيها. وطلبت مني أن أساعدها على نزع الملاءة. وعندما جذبت طرفها، دارت حول نفسها كدمية ميكانيكية وبدت لي عارية تماماً. وهي واقفة وقد غطى رجليها القماش الأبيض، تبدو وكأنها برزت من منحوتة لم تكتمل. هذه الصورة وحدها ـ تمثال الحب ـ أثارت رغبتي بسرعة. وكما يحدث لبعض المراهقين أحياناً، قذفتُ في بنطالي وقد احمرّ وجهي خجلاً. شعرتْ بذلك ومدّت الملاءة على الأرض، واستلقت على بطنها وأخذت تلعب

برجليها وتحركهما في الهواء، وبيديها نزعت عني ملابسي وأخذت تتحسّس جسمي وتداعبه لفترة طويلة. ثم نهضت فجأة وبسرعة لفّتْ جسمها بالملاءة وانطلقتْ في الحال كي تكون في المنزل قبل عودة أبيها. أما أنا فبقيت مستلقياً على الأرض عارياً، مستغرقاً في التأمل والتفكير، غير مصدّق تماماً ماقالته لي. وقد علمت فيما بعد أنها كانت تمارس البغاء مع بعض الأغنياء.

في «طنجة»، نشأت بيني وبين مدرّسة شابة علاقة غامضة. وقد عشت معها لغزاً محيّراً: طيلة الوقت الذي كنا نتقابل فيه لم يحدث لها ولالمرة واحدة أن تلفّظت بكلمة. فأتكلم أنا عن اثنين: ألقي الأسئلة وأعطي الأجوبة. أمّا هي فكانت تهزّ رأسها وتقدّم لي شفتيها السميكتين والمرتعشتين. لم تكن خرساء، ولكنها ترفض أن تتكلم، على أية حال ترفض أن تفعل ذلك معي على الأقل. وحاولتْ أن تشرح لي في إحدى الرسائل أسباب امتناعها عن الكلام. وما أزال أتذكّر تلك الرسالة التي كُتبت بقلم الرصاص، أي أنها كالوشوشة، جملة تُقرأ على الشّفاه دون أن تُسمع، بل تُدرك بالعين وبالحدس، ويمكن أن تمحى وكأنها لم تُقل على الإطلاق:

ماهو الكلام الذي يجب ألّا أتلفظ به وتتكوّن فيه حياتي إزاءك؟ وبأية صورة سأكون ما أراه فيك؟ فحتى نهاية كياني، الصمت المطبق... راعٍ يركض وراء قطيعٍ من النعاج في صدري، والغبار المتصاعد يخنقني، ولكنّ الفرحَ على ذلك الحصان الذي لاتراه، ووجهي يخدّده الحبّ الذي لاتتبيّنه. وأنا مسمّرة في موضعي، محاطة بألسنة اللهب العالية التي أمسكها بكلتا يديّ وأنتظر سعيدة أن يهبط من عينيك العفو الذي يمنحني الموت... صدقني أو لاتصدّق إني هكذا أحبّ، وصوتي أصبح مدفوناً في هاوية روحٍ أكبر بقليل من هذا الجسم الذي تضمه وتعانقه...

كانت السنة الثانية التي أمضيتها في «تطوان» شاقّة. إذ فقدت حماستي وأصبحت كسولاً. المدينة تسكن لياليّ. تلاحقني وترهقني.

كنت أراها كبيت بني بالأسوار والمغارات والكهوف، بيت أهملوا فتح نوافذ وأبواب فيه. ومع ذلك فهنالك شيء يحتجزني فيه، ربما كان القلق وتحدّيات الليل. كنت أنهض عدة مرات، مستيقظاً من نومي، وبيدي أحاول أن أدفع دخيلاً متطفّلاً، كتلة كثيفة تقترب كي تتوضّع عليّ، تُغلّفني وتخنقني. كتلة غير مادية تعمل بنفس قوة الرصاص المصهور الذي يسيل بتدفّقات سوداء تتلبّس الجسم وتغلّفه فتغلق المسامّ.

الحفلات والأعياد كانت نادرة. كيف يستطيع المرء أن يتسلّى ويلهو وينسى وطأة هذه الضغوط؟ لقد دُعيت ذات يوم لحضور حفلة زفاف، ربّما لم تكن بالنسبة لي حفلة بالمعنى الحقيقي، بل حدثاً غريباً دفعني لمشاهدته حب الإطلاع والتخلص من الرتابة والملل.

رجل متواضع، مغمور، أحد الزملاء في المدرسة. نسيت اسمه ووجهه. وليست المسألة تتعلق بالذاكرة، هل هي جيدة أم سيئة. فهو من تلك الوجوه التي لاتحمل سمات خاصة، لذا تبقى مجهولة ومعرّضة للنسيان، وهي ليست جميلة ولاقبيحة، بل يشوبها الغياب. وأتذكّر قامةً نحيلةً في بزّةٍ من «الكبردين» الرمادي، ومحفظة قديمة سوداء، تُغلَقْ بشكل سيّء. هذا الرجل كان كتوماً ومقتصداً. مرتّباً يعتني جيداً بنفسه، له عاداته الخاصة به. فكيف يمكنه التخلص منها؟ و«تطوان» تفرض على المرء عادات معينة. فهذا شرط أساسي للعيش فيها والنوم باطمئنان. والواقع أنّ لدى المرء الخيار بين الالتزام بالعادات أو معاناة القلق والغم. وهو مثل كثير من الآخرين رضخ للنظام ولإشباع الرغبات والحاجات البسيطة. يجلس كل يوم في الموعد نفسه ـ بين الساعة الخامسة والنصف والسادسة من بعد الظهر ـ على شرفة «المقهى الوطني»، ويطلب كوباً كبيراً من القهوة بالحليب مع فطيرتين. فيشرب ويأكل لوحده، ثم يدخن سيجارتين يُخرجهما بحذر من جيبه (لم يكن وارداً أن يضع علبة السجائر على المنضدة)، يطالع الصحف التي لم يكن يشتريها، بل يستأجرها من الباعة المتجوّلين، ويتبادل العبارات العامة والغامضة نفسها مع

الأشخاص ذاتهم، ثم يعود إلى منزله. فهل كان يسكن بمفرده، مع أهله، أم في نزلٍ إسبانيّ؟ لم يكن أحدٌ يعرف شيئاً عن ذلك.

وذات يوم وجدت في درجي بطاقة دعوة لحضور حفلة زفافه، التي دعا إليها جميع الزملاء، بمن فيهم عجوز عُرف عنه أنه شاذ جنسياً، شاعر مناسبات وأب لخمسة أطفال، ونادراً ماكان صاحبنا يتحدث إليه.

لقد حيّرني هذا الرجل وأثار فضولي، فكيف وهو المثالي في حذره وتكتّمه وصمته، السيد والعبد في الوقت نفسه لعاداته، سيقضي على انسجام آليةٍ منتظمة ويفتح بيته وحياته لامرأة غريبة؟ لقد علمت فيما بعد أنّ الزوجة هي ابنة عمه، وأنّ خطوبتهما قد تمت قبل ذلك بخمس سنوات، وأنها كانت تعيش مع أمها.

قبل الذهاب إلى الحفلة طلبت المشورة من أحد أصدقائي بشأن الهدية التي يجب عليّ أن أقدمها للعروسين. فقال لي بأنّه ليس عليّ أن أتعب تفكيري من أجل ذلك. إذ يكفي أن أضع ورقتين نقديّتين أو ثلاثاً في مغلّف أكتب عليه اسمي. لأنّ هذه هي العادة المتبعة في الأوساط المتواضعة.

وعند مدخل البيت الذي كانت تنيره مصابيح رُتّبت بشكل ترسم معه نجمة، استقبلنا شقيق العريس. حيّانا بإحدى يديه وتناول بالأخرى المغلّف وهو يتفوّه ببعض عبارات المجاملة، مثل «الله يعوّض عليكم» أو «الله يعطيكم الخير والفرح».

كانت هنالك فرقة موسيقية صغيرة محلية تعزف دون حماسة ظاهرة مقطوعة تقليدية من الموسيقا الأندلسية: «شمس الأصيل» وقُدّمت لنا الحلوى مع الشاي. كان الجو حزيناً، يبعث على الملل فعلاً، وكان البعض يتثاءبون، وآخرون يبذلون جهداً كبيراً كيلا يستسلموا للنوم. وأنا كنت أتابع أبسط الأمور التي تجري كيلا يستولي عليّ السأم. أمّا صديقي فكان يبدي بعض الملاحظات، من نوع: «إنّ زوجة الرجل الذي دخل لتوه جميلة جداً، ولكنها سحاقية»

ومن المؤكد أنه لم يكن هنالك في هذه الحفلة سوى الرجال. إذ كان يُعتقد أن النساء موجودات في المنزل المجاور. وجميع المدعوين كانوا يشعرون كأنهم يقومون بعمل من أعمال السخرة الشاقة. وقد رغبت بالانصراف فمنعني صديقي قائلاً: «إذا ذهبت قبل تناول العشاء فسيفسّر ذلك بأنك تتعالى على هذا البائس المسكين. لذلك يجب أن تبقى حتى النهاية!» وقُدّم طعام العشاء في حوالى منتصف الليل فتبينّ لي أنه فاتر، وأنا أكره تناول الطعام الفاتر. تقدمت الأيدي بحركة واحدة وتداخلت الأصابع في فراخ الدجاج. وكشراب قدمت لنا أكواب كبيرة من «الكوكاكولا» و«الفانتا».

وحوالى الساعة الواحدة صباحاً كان يجب الذهاب لإحضار العروس. فأخذ شقيق العريس يعمل على تنظيم موكب السيارات. احتُجزت سيارتي - وهي قديمة من طراز سيمكا 1000 - لنقل بعض المدعويين. وأنا يغيظني هذا التصرف الذي أعتبره مزاحاً ثقيلاً. فألفيت نفسي في سيارتي وقد حُشر فيها أشخاص لاأعرفهم، ثائرون لكونهم يذهبون لإحضار زوجة الرجل. ومن حسن الحظ أن «تطوان» مدينة صغيرة، وبسرعةٍ قمنا بجولة فيها. اعتبرت نفسي في خدمة سخرة أتبع سيارات أخرى، دون أن أشعر بأية بهجة أو متعة. وقد ندمت لذهابي بالسيارة إلى تلك الحفلة. لقد فسدت هذه الليلة وضاعت، وفات موعد نومي، ولم يبق أمامي سوى المشاركة في اللعبة والصياح مع الآخرين بالعبارات التقليدية: «لقد اصطحبها، أقسم لكم بأنه اصطحبها ولم يتركها لكم....» فشعرت بأني سخيف ومضحك وأنا أصرخ بملء صوتي، محاولاً إحداث بعض الفرح في داخلي، لكني لم أكن أشعر إلاّ بالملل. فقد احتفلت بزفاف شخص يكاد يكون مجهولاً من قِبلي. وثارت أعصابي، فانفصلت عن الموكب، وأنزلت ركاب سيارتي عند أحد مفارق الطرق، وعدت إلى المنزل لأنام. لكني لم أغمض عيني، بل حضّرت فنجاناً من القهوة وأخذت أطالع «عوليس» (Ulysse) فهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تجعلني أنسى تلك الليلة المشؤومة، والرحيل بعيداً، وبعيداً جداً.

وقد صمّمت على مغادرة هذه المدينة ونسيان جدرانها وعاداتها.

طلبت نقلي. وبدأت سنتي الثالثة في ثانوية كبيرة بمدينة «الدار البيضاء»، حيث كانت أيام الإضراب أكثر عدداً من أيام المواظبة على الدروس. وقد تدخّل رجال الشرطة مرةً داخل هذه المؤسسة فجرحوا بعض الطلاب وألقوا القبض على آخرين. فخمدت حماستي التي كنت أتمتع بها كمدرس شاب بصورة نهائية.

IX

الثلاثاء 8 حزيران 1982 لقد مضى على اجتياح إسرائيل لجنوب لبنان ثلاثة أيام. ومضى على وصولي إلى فرنسا عشر سنوات وثمانية شهور وثمانية أيام.

بتاريخ 11 أيلول سنة 1971 وصلتُ بعد الظهر إلى باريس. فهل كانت هذه مدينة، جزيرة أم جسماً؟ صورة رمادية تعبرها من وقت لآخر حزمةٌ من أشعة نور عُلوي. كنت قد التقيت بها سابقاً: المرة الأولى لمشاهدة بعض الأفلام، الثانية لكي أنسى خطيبتي، والثالثة لاكتشاف ومعاينة الآثار والنتائج التي أحدثتها وخلّفتها حوادث شهر أيار سنة 1968 . والآن، فقد أتيت ومعي أمتعتي لمتابعة الدراسة والكتابة.

وجه متعالٍ قدّم لي هبةً مكوّنةً من ليلٍ طويلٍ أحدث لي أحلاماً عن بلادي. وأعطاني مرآة خامدة بعض الشيء ماتزال عليها آثار حيوات مؤقتة وعابرة، كان عليّ أن أتصفّحها، أفكّ رموزها وأقرأها، أن أتذكّر وأكتب. وكالكسل، وكالنهار الذي نسيه الضياء، وكالسّور المتشقّق وكالموت والقمر، كنت مهيّأ وجاهزاً.

الجمعة 11 حزيران 1982: مُضحكة ومدعاة للسخرية هي الكتابة. اسرائيل تحاصر بيروت وتقصف اللبنانيين والفلسطينيين. وفي فرنسا أشعر بشكل مخيف بأني غريب. لايتعلق ذلك بحالة نفسية بل بواقع بارد. والقرف يتحمّل الكلمات بشكلٍ سيء.

وهكذا فإنّ هذا الجسم، لبنان، ليس فيه سوى الثقوب الملأى بالرماد والرمل لكي يرانا، ويتفرّس في ليالي الأرق التي نقضيها وينزل في حيواتنا كالشجرة التي يطرحها أرضاً ضياءٌ شديد القوة، وهكذا فإنّ هذا الجسم الذي فتحته كثير من الأيدي يصل إلينا اليوم مغسولاً من ندبات جراحه لكي يلقى الموت، هذا الرفيق المسنّ في الأيام القصيرة، وتتقدّمنا أيدينا لكي نلمس بأصابعنا الصور العمياء التي لايمكن التعرّف عليها. وهكذا فإنّ هذا الجسم لم يعد مَسْكناً، ولاحتى أرضاً لمنفى: بل فتحة في مؤخرة العنق والصمت.

الارتفاع إلى مستوى شجاعة أولئك الذين اختارهم الموت في تلك الأيام المظلمة حيث غاب الكثير من الضمائر. أردت أن أقول إلى أولئك الذين أخذوا يقيسون الكلمات اليوم ويروزون الصمت، جماعة الغضب الانتقائي، في الوقت الذي يضرب فيه الآخرون الأرض بأقدامهم كيلا يموتوا، أردت التذكير بأنّ فرنسا هي أيضاً أولئك الذين يَرَوْن ويغضّون أبصارهم، وتلك العيون المفتوحة لكنها بفظاظة غير معنيّة، تلك الكرامة الرائجة المقتنعة بأنّ حياة العربي أرخص وأقل شأناً من حياة الإسرائيلي.

مُضحكة الكتابة ومدعاة للسخرية في هذه الأيام المظلمة، التي يجد العربيّ نفسه في فرنسا أو في أي بلاد أخرى، وهو يحمل في قرارة نفسه الغضب المكبوت والغيظ من أن يُشاهد، وهو عاجز عن القيام بأي عمل، المذلة التي تلحق بهذه الهوية والمذابح التي تُرتكب بحق السكان اللبنانيين والفلسطينيين. الغضب والعار. فالدول العربية لاتفعل شيئاً، وهي تنتظر انتهاء «تنظيف» لبنان والمخيّمات الفلسطينية. ولاتعرف أن تقاتل سوى مواطنيها، أو بعضها بعضاً. ولاتحقّق الانتصارات سوى على السكان المدنيين الذين لايملكون

سلاحاً إلّا اليأس والحجارة. وهي بذلك فتحت طريق بيروت للجيش الإسرائيلي.

لذلك نُدهش من مطالبة فرنسا أن تكون مماثِلة للصورة التي كوّناها لها في غمرة البهجة والوهم. ونطلب من فرنسا أن تُدين وتفرض العقوبات، ولماذا لانطلب منها أيضاً أن تحارب عن الآخرين. إنّ هذا من السذاجة بمكان أو من الإسراف في الثقة. ولكم نودّ في الأحداث أن نجدها : أقل اهتماماً بحساب الربح والخسارة، وبالتخطيط للعواقب والنتائج، أكثر طيبة وكرماً، أكثر اهتماماً بالآخرين وأكثر التفاتاً وتحولاً نحوهم. هذه هي فرنسا التي نريدها والتي نشتاق إليها. فبأيّ حق، وباسم أيّ شيء، علينا أن نطلب من فرنسا وجهاً آخر؟ ألأننا نتكلم لغتها ونكتب بها ـ ونقيم معها علاقات غالباً ماتكون جدلية؟ أم لأننا ساهمنا في تاريخها الحديث وأُعجبنا بالمبادئ الديمقراطية وأحببناها؟ أم لأنّ الناس في العالم العربي يناضلون لكي يروا هذه المبادئ نفسها تطبّق في بلادهم وقد يئسوا من التوصل إلى ذلك؟

لقد وصلت إذن إلى باريس بتاريخ 11 أيلول سنة 1971 ، بعد الظهر. وفي الأيام الأولى لم ألاحظ نور السماء، كنت أنظر إلى الجدران وإلى الوجوه، فالأولى كانت داكنة ورمادية، والثانية مقطّبة ومنغلقة وقد استولى عليها توتر يتجاذبها بين الغياب والنسيان. كنت أبحث في تلك الصور عن آثار الزمن، وعن العلامات القصوى للأسرار والخفايا. ولم يكن يتبدّى لبحثي الساذج سوى الملل، البلى والفناء واللامبالاة. المدى الداخلي وفسحة الزمن لم يكونا ممثلين في هذا المشهد، كانت غائبة عنه أيضاً مجانية الإشارة والحركة، الهبة والعطاء، العاطفة والولع والبحث عنهما، التوقف عبر الزمن للنظر إلى الآخر الأجنبي والغريب، وربما التحدث إليه، أو التعرف عليه أو الاعتراف به وحسب، والرّغبة بالاستماع إليه، والإصغاء إلى رياح الرمال التي تعصف في رأسه، وغليان الأراضي الحارة،

وصراخ الصبية الذين يمارسون لعب الكرة بواسطة كتلةٍ من الخرق في أرضٍ بور مهجورة.

اكتشفت شيئاً فشيئاً أنّ لدى سكان باريس مشكلة مع الوقت أي مع النقود، وعلى أي حال، بينهم وبين أنفسهم، فالكرم وهو شكل من أشكال الجاهزية والاستعداد للعطاء، يبدو مُداناً، مستبعداً، وغير قابل للتحقيق والتنفيذ. وهذا الأمر كان يُحدث لديّ صدمةً قويةً.

وهذه المدينة نفسها كانت تعبرها أجسام الحنين الضائعة بين الجمهور. كانت تتميّز بملابسها الرّمادية أو الغامقة اللون وبطريقة ارتدائها. إنها ترتدي تلك الملابس لكي تختفي، وتنسى نفسها عبر الزحام والضجيج. وهنالك أيضاً طريقة مِشيتها: خطوات متردّدة، مِشية وتصرفات من يعتذر كأنه يشعر بأنه قد أخطأ، على رؤوس أصابع القدمين. أناس يشعرون بأنهم غير مرغوب فيهم. يساورهم الخوف، الخوف من إثارة الغضب أو الكراهية. تستبدّ بهم فكرة الالتزام بالنظام والعمل والتوفير وإرسال النقود إلى الأهل في البلد، والالتزام بالصمت.

فمن أفرغ تلك النظرات من زهوها وكبريائها ومن إشراقة شمسها؟ ومن الذي توصل إلى جعلها شفّافة لالون لها، أهو تحمّل المذلة وابتلاعها وتجمعها في داخل تلك الأجسام؟

كنت ألتقي بتلك الوجوه كل يوم أحد بقاعة سوق العمل في «جينّوفيلليه» (Gennevilliers). كنّا بضعة شباب نذهب لنعلّمهم القراءة والكتابة، فيجلسون على المقاعد ملتصقين ببعضهم البعض، ويهتمون بالنظر والتطلع إلينا أكثر من اهتمامهم بالإصغاء إلى مانقوله لهم. كان بعضهم، بدلاً من أن يجلبوا دفتر الخط ليكتبوا، يأتون حاملين رزمة من الأوراق ويطلبون المساعدة لحل بعض المشاكل الآنية التي تعترضهم في مجال إقامتهم أو عملهم والتي لايفهمون منها شيئاً. وآخرون كانوا يتغيّبون، لانشغالهم في يوم عطلتهم وراحتهم ببعض الأعمال المنزلية وغسيل ملابسهم، أو للتعويض عمّا فاتهم من النوم وحسب. كانت علاقاتنا قلقة يشوبها

الانزعاج، وكنّا نكتم ذلك ولانبوح به. أن يكون أحدنا مفيداً ونافعاً، ويسدّد ديناً، ويتمتع بضمير حيّ، والتصرف والعمل على أية حال، وأن يؤدي خدمةً ما، هذه الحقائق القاسية لم تكن تناقش مطلقاً ولاأحد يعلّق عليها. والانزعاج يُسبّب، مع مرور الزمن، نوعاً من الأزمة. أزمة ثقة: فماذا يمكن أن يجلب أو يُعطي طالبٌ من البرجوازية الصغيرة إلى أحد العمال الذي اقتُلع من جذوره، ولايفهمه أحد، ويظل ضحية الجهل والاستغلال والمعاملة اليومية التي تتّسم بالتعصب العنصري، والذي أهملته ونسيته بلاده، ومثله في ذلك مثل بقية زملائه الذين لايحصى عددهم، جميعهم يناضلون بمشقّة وصعوبة في سبيل لقمة العيش والبقاء على قيد الحياة؟

كنت ألقي على نفسي هذه الأسئلة وألزم الصمت. وبعد انتهاء الدروس كان يأتي بعض الطلاب ليبيعوهم صحيفة أحد الأحزاب السياسية. بدا عملهم هذا غريباً يثير الضحك. فما كانوا يعملونه لهم يبدو لي مضحكاً، وعدم عمل أيّ شيء آخر لمصلحتهم هو أيضاً غير معقول. أخذت أجمع المعلومات عنهم، وأقوم بزيارتهم، وأرافق أحد موظفي «مصرف المغرب الشعبي» في جولاته التي يقوم بها لإقناعهم بفتح حسابات مصرفية. كنت أراقب ذلك دون أن أؤيّد الموظف الشاب في كل مايقوله. وأخذت أطّلع على البؤس الذي يعانون منه في حياتهم الخاصّة، وأدركت أنّ إحدى طرق مساعدتهم هي نشر المعلومات عن هذه الأوضاع التي تنم عن الفاقة والفقر المدقع، وإبلاغها إلى أولئك الذين لايتصوّرون أنها موجودة أو لايرغبون أن يعرفوا شيئاً عنها.

وباريس كانت قبل كل شيء ذلك الاكفهرار على تلك الوجوه النحيلة، في تلك الأجسام البالية، وفي تلك النظرات التي تعبّر عن الحسرة والضيق. وأنا في المغرب لم أُطّلع على شيء من كل هذا. فالمهاجرون كانوا بعيدين. ولاأحد يتحدّث عنهم أبداً.والناس يرونهم يعودون صيفاً في سيارات فخمة مثقلة بالحمولة، فيحسدهم البعض على ذلك، دون أن يرثي أحد لحالهم. وهم أنفسهم كثيراً

مايلزمون الصمت ويتكتّمون على حقيقة أوضاع عملهم وشروط معيشتهم. لم يكونوا يذكرون سوى الجوانب الحسنة، ويلفّقون الأحلام والذكريات المشرقة والبرّاقة. لأنهم، على مايبدو، كانوا يعتقدون أنهم بتجميلهم الصورة هكذا يدفعون عن أنفسهم مصيراً بائساً، وكانت تلك هي طريقتهم في المقاومة.

الوحدة ـ العزلة الجسدية ـ كانت ترعبني. وأنا جاهز، عديم الصبر، بل ولامبالي، كنت أكثر من المقابلات واللقاءات متحاشياً البقاء منفرداً في مقابلة مع نفسي. كنت أعطي لنفسي القليل وأضيّعها بشكل سيّء: فالمهم هو أن أعود لأجدني دائماً على قدميّ. كنت بحاجة لتلك الأجساد النسائية لعبور الليل. أمضيت بعض الوقت لتحليل هذا القلق وفهمه: تلك الأجساد التي كنت أغويها بأساليب غوغائية، كثيراً ما أردتها أن تصبح سعيدةً ومتفتّحة. لم أكن مديناً بشيء لأحد وأعتبر نفسي في وضع من يأخذ بالثأر أو في حالة الدفاع المشروع عن النفس: إذ أنّ لديّ المزيد من الرغبات مدفونة في الزمن ومكبوتة في أعماق حياتي، والمزيد من الصور غير الراضية أو المشبعة. وطموحي، بل ربما بذاءتي كانت تقضي بأن أعيش مع تلك الأجساد الكثيرة لأتخلص من الشعور بالنقص، بالحرمان وبالغياب.

لقد أحببت جميع تلك النسوة دون استثناء. لقد أحببتهنّ ربما لليلةٍ أو أكثر. ولكن بشكل سيّء. وفي معظم الأحيان تأثرت لمجرّد وجودهنّ معي. يضاف إلى الرغبة، وإلى ذلك الحب القصير الأمد، الشعوب بالكآبة. صحيح أني كنت أجد نفسي سليماً معافى، ولكن، وحيداً، ومرهقاً بتلك الأنانية التي تسبّب ألماً مخيفاً في الرأس. أخذتُ أفكّر بشعور بالعجز، وبعدم القدرة على الحب. وتفتّحتْ من جديد جراحاتي القديمة، كنت مهدّداً بصيغة خاصة من النسيان، نوع انتقائي من الأمراض التي تصيب الذاكرة: فقد التقت نظرتي ذات يوم، مع نظرة إحدى الفتيات في الميترو فوجدتها ظريفة. نظرت إلى

صورتها الجانبية فشعرت بالاضطراب. لقد عرفتها وسبق لي أن قابلتها، لكني نسيت اسمها. ودهشتُ عندما فاجأتُ نفسي ألقي عليها هذا السؤال: هل مارست الحب معها؟ لم أجرؤ على العودة كثيراً عبر الزمن. إذ أن مجرّد التساؤل عن مثل هذا الأمر ولو لثانية واحدة يُعتبر عملاً قبيحاً وفظيعاً. نزلتُ في المحطة التالية، حزيناً، غاضباً، أشعر بالمرارة وبالغثيان. فهذا هو حال من يشعر بالقرف من نفسه.

ومنذ هذه التجربة، أصبحت أؤمن بقصّة البديل: فهكذا سأكون مسكوناً بشخص آخر ـ لن يكون بالضرورة ودّياً ـ تكون لي حركاته وليس ذاكرته، شخصٍ يمكن أن يكون قد اندسّ بي دون علمي، يعيش قليلاً من حياته وقليلاً من حياتي. وبعد أن استحوذ عليّ هذا الوجود الذي يُظهرني ويفشي سري، اعتدت مغادرة المكان لأدعه سيد ذلك المسكن. وفي هذه القصة سأكون أنا الذي أكتب وهو الذي ينسى. هو يصاب بمرض نسيان الكتب، وأنا ستكون لي حركات وتصرفات الكاتب.

وكثيراً مايحدث لي ألّا أعرف نصوصي التي كتبتها بنفسي. وربما بسبب ذلك لم أتوصل أبداً إلى حفظ إحدى قصائدي عن ظهر قلب. ليس لأني لاأستطيع تذكرها وحسب، لكني، عندما يكون عليّ أن أقرأها فإني أشوّهها. أقرؤها وكأني أكتشفها وأراها لأول مرة. كما إني أقرأ بشكل سيّء لأني أحاول أن أطرد من صوتي وشوشات الشخص الدخيل الذي يضحك في داخلي. أقرأ بشكل سيّء لأني أكون في مكان آخر، منشغلاً بأفكار تافهة.

والمرة الوحيدة التي بذلت فيها جهداً لكي أكون حاضر الذهن وأقرأ بانفعالاتي وأحاسيسي الأولية، تعرضت للسخرية وللضجيج، ليس من قِبَل الجمهور، بل من قِبَل رجل مسنّ، ربما ظهر للمرة الأخيرة على المسرح، لأنه كان يعاني من داء المفاصل. هذا الرجل كان «لويس أراغون»! كان يسخر ويُحدث الضجيج دون أن يعرف ذلك. فأخذ بعض الحاضرين يرجونه أن يصمت ويلزم الهدوء. وغادر القاعة بمساعدة أصدقائه. حدث ذلك في شهر كانون الأول

سنة 1981 في دار الثقافة في «دولني ـ سو ـ بوا» وبصورة عامة، فإنّ الدّخيل مستقر في داخلي. وفي هذه المرة كان خلفي. كان القرن الذي يتحرك ضحية صممٍ غير لائق.

وأعترف بأنّ البديل يساعدني كثيراً، وينقذ ليَ ماء وجهي. والحقيقة أني رجل لائق ومناسب. أطرد بالكتابة تخيّلاتي وجنوني. وأضع كل ماأستطيع في الكلمات وأعتقد أني أنقذ جلدي. وأهتم بهذه النظافة وأحافظ عليها. أخفي وجهي وأسير كتمثال أعمى يقوده الآخر. فهذا يسلّيني ويقلقني في آن واحد. أشتاق للشعر ويشتاق لي في الحياة اليومية. وينقصني الجنون. أحتفظ بمشية وسلوك مدرّس الفلسفة الصغير، دون مبالغة، بشكل يكفي كيلا يراني أحد. أحياناً تستولي عليّ الرغبة بالظهور، والمشاركة في المشهد. فتغريني الفكرة وأندفع لتنفيذها، بدافع الغرور، بدافع الضعف.

X

لاأستقرّ في مكان. حتى أني متعب من الركض والقفز على أسطحة الطفولة. وأحلم بمغادرة الرجل الذي يظل في عجلة من أمره والانزواء قرب أحد الينابيع على سفح أحد الجبال، وأبتدع له حياته. ولكني أخشى أني إذا استقريت في مكانٍ ما أن أفقد مبرّرات هذا الحلم وأشعر بملل شديد. ولذلك فإني أستمر بالتنقّل والتحري عن حالة الجذور.

رجل نافد الصبر، عاشق مستعجل، أمارس الحب وأنا أركض، في حالة هروب دائم. وأثناء رحلة العبور، هذه، يحدث لي أيضاً أن أنتقي وجهاً وأن أتذكر الإحساس، بل الانفعال الذي أحدثه لديّ. وما أزال أفكر بتلك الفتاة التي كانت في السابعة عشرة من عمرها، المولودة من لاشيء والتي عاشت سابقاً. مصيرها حيّرني، فهو يحمل عنصراً مأساوياً. ولم أفاجأ أبداً عندما اتصلت بي ذات يوم، من سريرها في المستشفى لتبلغني بلهجة تكاد تكون عادية، بأنه ستُجرى لها عملية لمعالجة مرض السرطان الذي أصيبت به. كان قد انقضى وقت طويل ولكني وجدت مشاعري على حالها لم تتبدّل. تلك الفتاة التي كانت تحلم بأن تصبح «شيئاً ما يعطي الموسيقا» ماتزال تسكن ركناً في الذاكرة. أرسلتُ لها باقة كبيرة من الورود ولم أجرؤ على التفكير بالموت. كنت مغرماً بها بشكل عنيف ولكن لفترة قصيرة. وقد سُلبت مني كما تُسلب الحرية، من قبل رجلٍ فظ

احتجزها فيما بعد في شقةٍ في المغرب، مدفوعاً بشهوة منحرفة ليقتل لديها ماكان يصنع منها كوكباً هشّاً. لقد عبرت حياتها هذه المتاهةُ الطويلةُ المظلمة، وأنا، لنقصٍ في شجاعتي أو في حبي لم أناضل من أجلها أبداً. وقد آلمني ذلك وكتبت في ذلك الحين، كما لو أني كنت أريد النجاة والتخلص من أحد الأشباح، نصاً صغيراً يتّسم بالتّكلف حول «اللاحُبّ».

هكذا كنت أترك الأمور تصل إليّ، وعندما كانت تتركني لاأفعل شيئاً للإمساك بها وإعادتها إلى حياتي. ونادراً ماكان لي علاقات واسعة. فأنا لاأعرّض نفسي للمخاطر أبداً، بل أحافظ عليها، وأتمسّك بالهشاشة التي أريدها كالأسطورة، وأتجنّب العنف والتعري والإعلان عن أي شيء بصراحة. وكان لي في معظم الأحيان سلوك وتصرفات من سُلِخَ وهو حيّ، لكني لم أكن من تلك الفئة من الكائنات التي تدمرها الحياة بشدة وعنف. كنت رجلاً هادئاً تستبدّ بي فكرة السكينة والبحث عن الانسجام. وقد أجريت الكثير من المقابلات الفاشلة أو التي لم يكن لها أية فائدة، بسبب هذا القلق الذي يجعلني أنتقل من جسم إلى آخر. لقد أحببت عنف وعفوية تلك المرأة الأخرى التي كانت ترسم أحلامي على لوحات بألوان زاهية. كانت تحتمي في عزلتي لكي ترتاح من عاشق فظٍ ولتهرب وتتخلص من زوج بذيء. وقد هجرتني ذات يوم لأني بدأت أشبهُ هذا أو ذاك، ولم أعد ملجأً أو ملاذاً وبرهة من الحرية، ولم تعد تهتم بأحلامي. لقد أحببتها دون ولعٍ شديد، بأحاسيسي الوجلة، أما من يطالبها بالعودة إلى السويّة والنظام فهو جسدي الذي أخذ يطالب بنظرات أخرى. وقد تألمت من هذه القطيعة المفاجئة والقاسية. وهذا إخفاق كان يجب أن يدفعني إلى التفكير، لكني تكتّمت على هذا الوضع وقد استدعى الأمر سنتين من التشرّد والمجاملات، لكي أتوقّف أمام وجهٍ سيصبح وطني الجديد.

واستمرت الحرب في لبنان جاعلة من الحب وعداً ثانوياً،

وصفحةً مدعوكة في حياة تفوتنا. هذا البلد الذي لم يسبق لي أن ذهبت إليه أبداً يحتل كياني ويملؤني بتمزّقاته، بأعاجيبه وأسراره الخفية ويحاصر كلماتي. وهو يقدّم لي ذكرياتٍ وصوراً فورية محروقة، صوراً مألوفة وروائح ممزوجة وعطوراً من جميع الفصول. كنت أحمل في كياني بلداً في حالة الدّمار وجُملي تنحطّ وتفقد قيمتها الواحدة بعد الأخرى. الصمت والعار. وهذا البلد قد أتى إليّ كموجةٍ من الزبد. عيناي مفتوحتان ولاأرى سوى وجوهٍ ممزّقة. أبحث عن زرقة البحر في الكتب ولاأجد سوى جوانب جدران في بيوت مهدّمة. ولم أعد أعرف أين أصبح وطني ولاكيف يمكن إعادة تكوين ذلك الوجه الذي نوّر فكري وألهمني قبل الحرب بالضبط. وأخذتُ أذهب من بيت إلى بيتٍ حاملاً ولعي الدفين، منتظراً نهاية الكارثة.

وهكذا فإنّ حرباً تبدو أهلية في ظاهرها قد اختارت بيروت ميداناً لها! فكم من الدول العربية استطاعت بذلك أن تجري حرباً صغيرة على هذه القطعة من الأرض الهشّة جداً! فالمشهد هناك مصنوع من الشك وعدم اليقين، ومن الجرأة والليبرالية التي تَستَخِفُّ بجمود أنظمة الحكم لدى الجيران و«الأخوة» العرب المتعثرة وكأنها في بداياتها، والمترهلة مع ذلك.

ومحمود درويش الشاعر الذي يسكن في حقيبة صغيرة، ليست صندوقاً ولاحتى حقيبة كبيرة، يبحث عن وطن لكي يربّي عصافير الدوري ويبعث الرسائل الغرامية، والعنوان على ظهر المغلّف في حال إعادتها. هو الكائن الأبدي للبُعد، ذاك الذي يعبر الأماكن على الدوام دون الاستقرار في مكان، يعبر سهولاً غريبة، ويسير في شوارع يرسمها هو، ويضع خطوطها ومنعطفاتها ومنحدراتها أثناء سيره. وعندما يقرر التوقف، يرسم مقعداً من الحجر، يضع عليه حقيبته أثناء سيره. يسند رأسه عليها وينام. ينام ويحلم، رأسه

خفيف، جسمه خفيف ونومه خفيف، يبقى مستعداً لاستئناف الرحيل والسفر، فطريقه بلا نهاية، لأنه هو القيِّم عليه الذي يصنعه، وهو عالم الآثار الذي ينقّب عنه والمسَّاح الذي يذرعه بخطاه ليقيس مساحته.

إنه يقف على خطوط النار، وقد أحرق مراكبه. يوقظ الأرض مع شعبه، ويُذكّر أنّ «من دمنا إلى دمنا، توجد الأرض وحدودها».

لبنان يستمر بالنزيف. وقد قال لي بعض الأصدقاء العابرين بلهجة الدعابة المبتذلة، كيف أن الموت لم يعد شيئاً مخيفاً هناك، وكيف أنّ الحياة اليومية أخذت تتعايش بصورة طبيعية مع التدمير والمذابح. بدأت أفقد ذكرياتي العائدة إلى هذا البلد. وأخذت أتحدث عنه كما لو إني عشت فيه. كنت أستغلّ كل تلك الفوضى لكي أحلّ فيه على طريقتي وأزرع فيه جذوري. إنه بلد لاتدركه الكلمات، ولاأعلم حتى اليوم فيما إذا كانت التفاصيل والأمور البسيطة أم الأساسية هي الناقصة في الصورة التي كنت أصنعها في رأسي لتلك الأرض التي كانت تسحرني بعنفها وقسوتها. إن لبنان من تلك البلدان التي لاتوصف، والتي تقاوم التّعريف أكثر من مقاومتها للجرح.

من بيروت المدمرة لديّ منظر جوي: بيوت فتحت فيها فجوات وثغرات، أبنية لم تكتمل، تلال وروابٍ نزح عنها سكانها، شوارع مهجورة وأخرى يزدحم ويتدافع فيها الناس، ومازال البحر يتلألأ من بعيد، هكذا رأيتها من طائرة كانت تحلّق فوقها ببطء كما لو أنها تريد عرضها لتريها بعريها التام لمجموعة من المسافرين اللامبالين. والحياة، تنفس الأرض، ماتزال مستمرة، حتى وهي مجبولة بالدم والمياه الآسنة السوداء. وضوء النهار يتابع سيره برفق فوق تلك الروابي والتلال التي تنطلق منها العيارات النارية. وتمر الأيام بينما تمزّق الجوّ الانفجارات التي يعمي البصر بريقها الشديد. فتنتقل بيروت من جسم مهشّم إلى ذاكرة عمياء.

اختلط كل شيء في داخلي: الحب، الحرب، الغضب، الضوء، اليأس ورغبة شديدة باستبدال الغيظ الشديد بقطعة حلم صغيرة.

لقد استقرت بيروت هكذا، دون علمي، على أسطحة «فاس» وفي شوارع «طنجة» وعلى تلال الجبل القديم. كل شيء أخذ يختلط مع مطابقة وتلاقي المصادفة: أرض ومن يشغلها، مقابر وأشجار زيتون، زرقة البحر وحفر الموت المشتركة، نظرات طفلة صغيرة، نجت وخرجت من بين الأنقاض واستغاثة تلوّح بها يد أمسكت بحفنة من التراب ورجل عاري الجذع يصعد المرتفع الذي يؤدّي إلى حي «القصبة» في «طنجة» وهو يقذف ويشتم الأب والأم والرب، الشمس والأنبياء. فيقال بأنه مجنون ولايقترب منه أحد، بل ينظر الناس إليه وينتظرون أن يأتي رجال الشرطة ليأخذوه ويستجوبونْه ويحققوا معه، ثم يحاكم ويودع في ملجأ «بني مقادة» الخاص بالمجانين، إذ أن من يشتم قيم البلاد المقدّسة لايجوز له أن ينجو من العقاب، ويتوقف فيتحدّى أحد المارة الهادئين ويستفزّه، ثم يبصق في وجهه، ويتابع سيره، وهذا الرجل مازال في سن الشباب، يتمتع ببعد النظر ووضوح الرؤية، من النوع الذي يقتل عندما يتحول اليأس إلى غضب شديد وفاعل يثير ويرفع أحجار الكراهية، ويقدّمون الجسم المهمل الذي يحمل ألف جرحٍ، والصوت وحده يعول، وهذا الرجل الذي يعبر المدينة لم يعد يطالب بالعدل أو بالحب، بل بالموت القاسي والعنيف وحسب، وبحركة حاسمة وقاطعة، مغطياً عينيه بمعطف من الرمل، وقد وُضع حجر كبير على بطنه، أخذ هذا الجسم يسير في «طنجة»، إشاعةً، شرخاً، كسراً في ذلك الصيف الهادئ. زوجان من المتقاعدين يجلسان على شرفة مقهى «باريس الكبير»، إنهما أجنبيان ينظران إلى المدينة وهي تتحرك بهدوء، يطالعان الصحف، يتوقّفان ويراقبان الرجل الغاضب وهو يهدّد السماء بقبضة يده المغلقة، لايفهمان مايقول، فهو لايقول كلاماً، بل يعول ويزأر، يسمعان كلمة «جواز سفر» تتردّد كثيراً، آه، إنه يريد السفر إلى الخارج، لكنه مجنون. فأخذ خادم المقهى يشرح لهما أنّ هذه

الصورة تسبب العار للمدينة، وتشكل حالة استثنائية في منظر «طنجة» الوديع والهادئ، وتلطخ وجه المغرب فلا تعيراها انتباهكما، إنه يهذي. كانت امرأة، هذه المرّة، هي التي توقّفت أمام المقهى، إنها لاتصرخ، بل تطلب بعصبية بعض السجائر يواسيها الخادم ويحاول تنحيتها وإبعادها عن المقهى، فتحتج وتقول له بأنها وقفت هي وأمها على الرصيف، تبيعان الهوى وتعرضان جسديهما لطالبي المتعة، فيضع الخادم صينيته ويضربها، فلا يتأثر ولايتحرك أحد، ويطلب الزوجان المتقاعدان الحساب، «طنجة» لم تعد مدينة وديعة هادئة، صبي يحمل «صندوق بويا» ويلحّ على الرجل المسن لكي يلمع له حذاءه، فيعود الخادم، إنه يوم عصيب بالنسبة للجميع. من جادّة «باستور» يبدو البحر. كل شيء هادئ. باخرة تدخل وأخرى تغادر وتبتعد. ومن أعالي «أشاكار» تبدو «طنجة» شبيهة ببيروت: بيضاء، متجمّعة، تحيط بها زرقة البحر. لكنّ بيروت لاتشبه شيئاً. لقد شوهتها الحرب. لم تعد هنالك رغبة بالنظر إلى البحر ولابأن نحلم بالحب. بيروت ذكرى شاحبة أمسك بها دبق غسقٍ هبط فجأة وبعنف قبل الأوان، على سهلٍ متفسّخ.

وفيما وراء أطلال الخراب والوجوه المهشمة، تتصاعد ضوضاء كبرياء مفرطة في زهوها: إنه جسمُ كائنٍ يرتجف وقد رأى جلده ينسلخ، يتحرك ويتكوّم كفستانٍ سميك عند قدميه. فستان صُنع من كلمات متلألئة ومن جُملٍ حاسمة وجارحة. فكيف استطاع كتاب أن ينزع عنه ملابسه، ويعرّيه إلى درجة أنّ يديه لم تعودا تعرفان ماذا تخبّئان من ذلك الجسم الذي تُرك وشأنه لحاله، واقفاً على تلة من الرماد؟ معرضاً للرياح، إنه يقاوم، وينحني من وقت لآخر. فهل الحرب هي التي شوهته أم حدّة وضراوة الكلمات والأصوات التي فعلت ذلك؟

وعندما يجد نفسه من جديد، بعيداً عن ولعه وأهوائه، يعرف

في قرارة نفسه أنّ الكبرياء التي تتآكله من الداخل تنتزع منه شيئاً فشيئاً الوجوه القريبة والمألوفة، ليس وجوه الحب، بل وجوه الأمل. لقد ترك نفسه يَغْلَقُ بدبق مأساة البلد الضائع. وبعد أن تجمّع على نفسه، لم يعد يهتّز أو يتأثر. فهو قابع هناك، شديد الانتباه للأصوات: انفجار قنبلة في أحد شوارع بيروت، قهقهة ضحكة تمازجها تنهدات صوت مجهول، ضجة تحدثها سيارة تتوقف بشكل مفاجئ، رنين الهاتف، السماء وهي تهبط على دفعات كشلالات المياه، أحد الأصدقاء وهو يلزم الصمت، وآخر وهو يضطرب ويتحرك، الجدران وهي تتحرك، تسير وتتقدم. هذا هو بقاؤه في الحياة، وربما في الحياة الآخرة بعد موت الآخرين. إنه مسكون، وجسمه هو مسكنه الوحيد. والحب الذي يقترب منه يصطدم بلوح من زجاج. فالحرب لم تفارقه أبداً.

XI

متار
أية فوّهة لازوردية
انفتحت من أجل ظهور الصاعقة
في آخر الحج البعيد
مكة المكونة من البشرة المدوّية
مِئذنة من عظام من أجل صراخ الدم الحار.
«ميشيل ليريس».

رجلاي مشقّقتان، ويداي أصبحتا قاسيتين، ورأسي الذي أسنده على ركبتيّ المرفوعتين ثقيل. أجلس على فراشٍ رقيق جداً من الإسفنج. ويحسّ ردفيّ بالأرض قاسية وباردة. الغرفة صغيرة جداً، ولكني أحب جدرانها النظيفة التي طليت مجدداً بالكلس الأبيض. وعلى الأرض حصير صغيرة، «اسكملة»، إبريق شاي وكأس، تدور حولها ثلاث ذبابات. وهي لاتقترب مني. حتى لو أنها أتت وحطّت عليّ فإني بالتأكيد لن أشعر بها. جسمي متعب جداً لدرجة أنه همد وغفا، لقد انكمش محاولاً أن يستدرك ويتجمّع. إنه قادم من بعيد. لابد أني مشيت أياماً وليالٍ. واجتزت حقولاً، طرقات، مدناً وبلداناً سيراً على الأقدام. وأذكر أن هنالك من حملني ذات مرة. صورة

ينبوع ماء. يدان مضمومتان تحاولان أن تغرفا قليلاً من الماء. الرِجلان تضربان الأرض بعنف. الرمال مُحرقة وجوه مغلقة يتصبب منها العرق. ذكرى عطشٍ مخيف. أتناول قدحاً. أتلقى ضربة عصا.

على المنضدة الصغيرة إبريق الشاي والكأس وفي أسفله قليل من الشاي. سقطت فيه ذبابة. أنظر إليها وهي تسبح. تحاول التسلق والصعود فتقع. الجدار المقابل، بياضه الناصع يبهر نظري. ولاأستطيع التحديق فيه لأكثر من بضعة دقائق. الغرفة باردة. إنه وقت الفجر. مازالت الشمس بعيدة. وأنا جالس أتطلع إلى الجدران وأنتظر. لا أنتظر شيئاً محدداً. إني أنتظر وحسب. أتدرب على أن أعيش الانتظار الذي لايعقبه شيء، وحتى الانتظار الذي ليس له آخر. وسأقرر متى ستكون النهاية. تنزلق يدي على الجدار الخشن. أشعر بمتعة وأنا أترك يدي تنزلق وتنسحب على كلس الجدار.

جسمي العاري مغطى بقماش أبيض بدون خياطة. نعل من الجلد بدون خياطة أيضاً، موضوع قرب الباب. تَرَك باطنُ القدمين عليه أثراً. اسودّ الجلد. أنظر إلى الحصير، إنها في حالة يرثى لها. هي حصير الصلاة. حصير يوضع عليها الأموات. أطرافها ودوائرها غير ثابتة، القش يتنسّل منها تباعاً. أمرّ بيدي الدافئة على وجهي. لحيتي مضى عليها أسبوع. أشعر بأنني أصبحت وسخاً. أحكّ عنقي حيث الشعر القاسي المتمرد.

أنا جالس منذ ليلة، وربما أكثر، منذ فصل من فصول السنة. أصغي إلى عظامي، إلى دمي، إلى نبضي وإلى قلبي. كل ماهنالك يلزم الصمت. أو بالأحرى أشعر أني أقترب من الصمت. وببطء شديد أتقدم سائراً على أرض عارية، بلاطة فسيحة من الرخام الأبيض. والصمت هو هذا البياض الناصع الذي يتحول إلى نور عند ملامسة الرمال، بياض يحترق عندما نبلغه ونصل إليه، نورٌ هابطٌ من السماء، منبعثٌ من البحر أو خارجٌ من الغابة.

أنا جالس، متجمّع على نفسي، أنظر إلى قرارة نفسي كما لو أني فوق بئر. وما أراه لم يعد وجهي، وليس حتى الصورة التي

أكوّنها له في ذهني، بل دائرة تتعدّد متكاثرة إلى مالانهاية. المركز يجب أن يكون عيناً، حرفاً من أحرف الهجاء العربية، رقماً أو نقطة وحسب. أنا لامبالي أو بالأحرى أصمّ لكل مايمكن أن يحدث خارج هذه الغرفة. أشعر أني مرتاح في هذا الغياب الذي يصبح فيه جسمي خفيفاً شيئاً فشيئاً. وأحسّ بأني حرّ، في وضع من أصبح متسكعاً على حدود هيئةٍ، وجهٍ، كلامٍ. وأشعر أني متفق ومنسجم تماماً مع حالة الغياب الحاد هذه التي أصبو إليها منذ الطفولة. أنا حيوان يسير وجسمه منحنٍ نحو الأرض. لاأحد يراني أو يسمعني. الغرفة تتّسع وتكبر، وقد أنارتها فجأة أشعة الشمس، التي تؤذِن بعودة الحجّاج وليس بطلوع النهار. أقف قرب الجدار، قبالة البحر البعيد والمقفر، هنالك موجة تهرب وتتوارى. فهل البحر هو الذي يفرغ وينسكب في الزمن، أم هي الرياح التي تعرّيني نازعة عني غطائي الأبيض؟ هل الغرفة هي التي انتقلت من مكانها أم أنا الذي لم أستطع الانتظار: طيلة الليل وطيلة فصلٍ بكامله طافح بهوس الانتظار. أنا في «المدينة» لتأدية الأربعين صلاة. وأنا في قرن الولادة القديم، مُلقى في ذلك الحيز الأبيض الذي احتُفظ به دون أن يمسّ منذ أن وطئها صلصال الكلمة. خطوط رسمها كلام أصبح أسطورة. فهل يجب عليّ أن أتبعها أو أنتظر الليل لكي تنفتح مخطوطة «التجربة»؟ أنا عند حدود الغسق الذي قاله ذلك الصوت الداخلي والذي احتفظ به بعناية في القفص الصدري العائد للكائن الذي تخلّى عن الأحلام.

أحفر في الرابعة حفرة ـ خندقاً أو قبراً ـ أتابع منها تنقلات الحجاج. سأنتظر نومهم أو فناءهم لكي أهبط في «المدينة» وهي مقفرة وأجلس على البلاطة الصغيرة وألمس بطرف إصبعي ضريح النبي. سأكون وحيداً، هادئاً مطمئناً، متجاوزاً التأثر والانفعال. لن أقول شيئاً، لأنّ ليس هنالك مايقال. وهكذا فإنّ آخر الأنبياء أتى ليتوفى هنا في يوم ساد فيه صمت عميق.

لقد استيقظوا عند منتصف الليل، وقد نفد صبرهم لتأدية أولى الصلوات الخمس، في ذلك اليوم، أولى صلوات الزيارة الأربعين. لقد

ذهبوا جميعهم، متدثرين بردائهم الأبيض، وجوههم متوترة بتأثير الانتظار المشوب بالقلق. وبعين تكاد لاتكون مفتوحة رأيتهم يذهبون، مرتلين بعض الآيات. وأعطتني رِجلٌ ثقيلة رفسةً قويةً لكي أستيقظ. وصرخ بي صوت: «انهض يا حاج! بعد أقل من ساعتين ستؤدّي أجمل الصلوات، صلاة الصبح، الأولى من الأربعين صلاة! هيا انهض إن كنت مسلماً صالحاً!» لابدّ أن النومِ قد تغلّب على الإيمان. حتى ولاهذا. فأنا أريد أن أبقى لوحدي لأُفرّغ تلك الغرفة التي تكدّست فيها فرش الاسفنج والحقائب، وحيث كانت رائحة نوم شاغليها الآخرين، تلك الرائحة المزعجة تمنعني تماماً من النوم ومن التنفس بصورة طبيعية. أريد أن أبقى بمفردي في مكان نظيف، أبيض، فارغ. ولديّ بضع ساعات لكي أنظّف وأرتّب هذا المكان. أغمضت عينيّ ووضعت رأسي على ركبتيّ. وبحركة من يدي دفعت الجمهور، وأبعدته عن مكاني، وهكذا أوقفته على مسافة مني لكي أستطيع التنفّس بعمق وسماع الصمت الذي أخذ يغمر الغرفة على مراحل. أردت أن يصبح ذلك المكان فارغاً عارياً وأبيض. وقد أصبح فارغاً. لم يعد فيه أمتعة معيقة ومزعجة، ولا أكياس فيها أطعمة تفوح منها رائحةٌ خانقة، ولافرش مشبعة برائحة العرق المقرفة، ولم يعد هنالك أحذية بالية وقذرة مكدّسة في إحدى الزوايا، ولاقدور أو طناجر ملأى بالشحم والدهن ولبّ الخبز، ولامسابح من البلاستيك ذات الوميض الفوسفوري معلّقة على الجدران، وبخاصّة، لم يعد هنالك أجسام دبقة، لم تغتسل، تشخر عندما تنام وترسل الروائح الكريهة بكل طمأنينة، وقد التصق بعضها بالبعض الآخر متلاحمة كأنها أشياء صُفت في صندوق ضيق، لم يعد هنالك نظرات تنم عن الريبة والحذر ولاكلام مبطّن، ولاأخوّة فرضتها الظروف والمناسبة. فقد أصبحت الغرفة ميناءً وملجأً أميناً، لامثيل له للصمت والهدوء. أصبحت سعيداً لنجاحي من تحقيق هذه المعجزة الصغيرة: الدخول في حالة من القدسية إلى مكان نُظّف وتخلّص مما كان يشغله.

مازلت أسمع ذلك الصوت الأجشّ: «انهض إن كنت مسلماً صالحاً!» فهل أنا على مستوى ذلك؟ هل أنا جدير بهذه التجربة؟ إذ عندما كنت طفلاً كان أهلي يجبرونني على تأدية الصلاة. فكنت أؤدّيها خوفاً من العقوبات المذكورة بالتفصيل في القرآن التي يُخَصّ بها الكافر، والمسلم السيّء: جحيم أبدي، جهنم لانهاية لها، صلوات تُردّ مطبوعة على صفحات معدنية سخِّنت بالنار حتى أصبحت حمراء... كنت أصلّي دون أن أكون مقتنعاً تماماً بما أقوم به. وذات يوم قال لي أبي: «الصلاة هي الوقوف أمام الله، وإذا لم تكن مخلصاً وصادقاً، فمن الأفضل ألّا تتقدّم لتفعل ذلك أبداً!» وقد أعطاني هذا الكلام حرّيتي. وقالت لي أمي: «كل نعجة معلّقة من عرقوبها!» إنّ الأمر هكذا: سيكون كل منّا وحده وبمفرده أمام الله يوم الحشر والحساب. وقصة النعجة المعلقة بمسمار كانت تلاحقني وتلازمني. كنت أرى نفسي، وقد سلخ جلدي، معلقاً في «بسطة» دكان لحّام، رأسي إلى أسفل، بادي الخصيتين، منتظراً من يشتريني لكي يلتهمني، وربما أتت الرياح لتعيد تكويني ولتهبّ على اللهب قبل أن تلقي بي يد مجهولة على الجمر. وسأحترق إلى مالانهاية، وحتى اللحظة البعيدة الاحتمال التي يمكن أن يشفع لي فيها النبي محمد، لكن لماذا يمكن أن تتوقف إصبعه وهي تتّجه نحوي، أنا الكائن الذي يمكن أن يُهمل من بين مليارات الكائنات، وحتى ولو كان المسلم له الأولوية على غير المسلم...

كانت هذه الصور تلاحقني حتى أثناء نومي. وقد رأيت في إحدى الليالي أحد الأحلام الغريبة التي لها امتدادات طويلة جداً وغامضة خارج نطاق الليل: كنا مانزال في «فاس» وأنا في التاسعة من عمري. كنت ميتاً، أشاهد، وأنا جالس على الغصن الرئيسي لشجرة الليمون التي كانت في زاوية الباحة، هكذا كنت أشاهد جنازتي إذن، وأنا مطمئن، هادئ وبصحة جيدة. كنت أنظر إلى جميع أفراد أسرتي الذين أرهقهم الحزن. كان الطقس جميلاً جداً في ذلك اليوم. وضعني رجلان ـ من ذوي الوجوه الشاحبة المعروفين

الذين يغسلون الموتى - في وسط الباحة على حصير من القش المجدول. وكان هنالك جماعة يرتّلون القرآن ويحرقون البخور. ومن أعلى شجرتي كنت أضحك بهدوء. كل شيء كان على مايرام. وأنا سليم معافى وقد أخذت أقهقه ضاحكاً. فالموت لم يكن سوى هذا: انفصال هادئ وخفيّ، بل ولطيف أيضاً، يجعلنا مراقِبين لذاتنا. وعلاوة على ذلك كنت واثقاً أني قد تغلّبت على جميع التهديدات بالعقاب: فذلك الذي وضعوه على الحصير لم يكن سوى قطعة من الخشب، لوحة خشبية جوفاء. وجسمي ربما كان جذع شجرة، لاإحساس فيه، قاسٍ وطري في آنٍ واحد. وأنا، كنت قد أصبحت في الجانب الآخر، تخلّصت بلباقة ولم تعد قدماي تلمسان الأرض، فقد حملتني ريح خفيفة، فأخذتُ أطير وأحلّق فوق المنزل. كان الموت أكثر من مغامرة بسيطة، عبارة عن حادثة غريبة ومعطّرة، بل وحرية. أخذت أحدق بالأفق: لم يكن أحمر، بل أزرق. والجحيم الموعود ليس له وجود، وكذلك لاوجود للفردوس وأنهار العسل واللبن!

لقد أدخل حلمي السعادة إلى قلبي. وهذا سرّ أحتفظ به في قرارة نفسي. لاصلاة بعد الآن. أما الخوف من العنف والقسوة الجسدية، هذه الاعتداءات التي يمكن أن تقع عليّ وأنا بكامل وعيي، وأنا مستيقظ تماماً، ذلك الخوف وحده كان يلاحقني!

أنا جالس وأنتظر. بالصوت الواحد نفسه جميع مؤذّني «المدينة» ينادون إلى الصلاة. والصوت تضخّمه مكبرات الصوت. إنه غناء وإنشاد أكثر منه دعوة تتضمن الأمر. الصوت جميل. فهو ينتزعني من عزلتي الاختيارية ويعيدني إلى الغرفة كما هي: الجدران وسخة، زغب العفونة يغطي السقف، شقوق غير منتظمة، مسامير غُرزت بشكل سيّء وعلّقت عليها الجلابيات، البنطلونات والمناشف. النافذة عالية، إطارها مطلي باللون الأخضر. الفرش مكدّسة في إحدى الزوايا، والأرض مغطاة بحصير عتيقة. والحقائب

الكبيرة والصغيرة مكوّمة بجانب الباب وقد أُغلقت بأقفالٍ كبيرة. والأحذية أيضاً كانت هناك على حالتها السابقة: وسخة وبالية. لاأشعر بالبرد، أكاد أختنق. والنشيد الذي يردّده الصوت يحملني بعيداً فأحلّق. وأطير فوق جمهور المؤمنين الغفير، الساجدين جميعهم. أنا الآن في أعلى الرابية. أؤدّي صلاتي دون أن أتحرّك. أؤديها بعينيّ. ويصرّ جسمي على البقاء جانباً. صلاة الصبح قصيرة وموجزة. أنا أطيلها لأتحاشى الاختلاط بالجمهور. نهضت. أصبحت خارج الغرفة. أسمع أصوات رفاقي. أتجنّب الحديث معهم كيلا أكون ملزماً بأن أشرح لهم وضعي. أنا الآن على السطح. طلع النهار فجأة. «المدينة» بلد بني بيد واحدة: منازل صغيرة منخفضة، ذات نوافذ عالية، وشوارع غير هندسية منفتحة على طرقات أخرى، والجدران بلون الأرض البدائي. وعلى بعض الأراضي جوانب من بيوت خربة، أكوامٌ من الحجارة والتراب والغبار. وضوء الصباح يبدو قادماً من حقل زُرع بالقمح أو أنه خرج من أحد الأنهار. وهو يغمرني. «المدينة»، تذكّرني بـ «فاس»: كتل من البيوت الصغيرة متداخل بعضها في البعض الآخر، ساكنة، أبدية وصامتة. مجموعة من الرسوم البسيطة والمتشابكة بصورة لايمكن فصلها أو تبيّنها، مغلقة على حيوات خرساء. فلا يخرج من هذه البيوت دخان أو أجسام راقصة.

لقد عادوا فرادى واحد بعد الآخر. كل منهم مدّ فراشه ونام. أخطو من فوقهم لكي أصل إلى ركني. أتأملهم. إنهم راضون. سينهضون عما قليل لكي يأكلوا. سأتدبر أمري لكي أكون خارج الغرفة. هذا النائم بجانبي هو رئيس المجموعة. إنه يأتي كل عام إلى الحج منذ عشر سنوات. ويقول البعض بأنه يقوم ببعض الأعمال، ويعتقد بعضهم بأنه يتمتّع بالإيمان. أمّا أنا فلا أثق به. ويسمونه «الشيخ الكبير». وهو الذي أتى فأخرجني من الباحة الفسيحة المسوّرة في مطار «جدة» حيث كنت متوقفاً مع ألوف الحجاج،

منتظراً وصول دليلي المعيّن. لم يكن هو الدليل، ولكن يُحتمل أن يكون هو الذي يعيّن الأدلّاء. وقال لي:

ـ ألا تكون أنت ابن...؟

ـ نعم.

ـ إني أعرف والدك وعمك. والآن سأحضر لك جواز سفرك. فأنا أمرّ هكذا مرّة كل يوم لأرى فيما إذا كان هنالك أحد من أبناء وطني بحاجة للمساعدة فأساعده.

كان هنالك رجل أسمر اللون يجلس على أريكة قديمة يقبض الرسوم المترتبة على الحجاج للدليل الذي يساعدهم على الطواف: «المطوّف». فتناول جواز سفري وألقى به دون اهتمام على كيس كبير من القنّب. لقد صدمتني هذه الفوضى عند وصولي. لكني اعتدت عليها فيما بعد. هي لم تكن سوى فوضى ظاهرية. فهو يعدّ الأوراق المالية بإحدى عينيه، ويدقّق بالأخرى قوائم الحجاج التي بين يديه. كنت في البداية ضائعاً تماماً، لاأستطيع التخلص من الذهول الذي أصابني، ولم أعد أتعرّف على نفسي أبداً عبر تلك الفوضى الملوّنة والمتعددة الجوانب التي يلفّها الضجيج والغبار. كنت أبدو كسائح مضحك، مثيرٍ للسخرية، تائهٍ في وسط جماعة غريبة، تبدو بخاصةٍ أنها مرتاحة، بل تشعر بالبهجة.

الأفارقة كانوا هناك بكامل عائلاتهم: النساء والأطفال جالسين على الأرض، يحضّرون طعامهم داخل المطار. لامبالين، بل متعالين أيضاً ومعجبين بأنفسهم. البعض منهم يؤدّون الصلاة في ركن من أركان المطار، وآخرون ينامون، بينما غيرهم يصغون إلى راديو ترانزستور. الجميع ينتظرون صابرين، وهم يشعرون بالسعادة. باستثنائي أنا، الذي كنت أرفض الانضمام إلى ذلك الجمهور ونسيان شخصيتي كبرجوازي صغير تأقلم مع الغرب واكتسب سماته. وكنت أقول في سرّي بأنّ المغرب بعيدة، وهي بالحقيقة الغرب الأقصى، وهي غريبة عن هذا الشرق الصاخب، حيث

الصحراء برمالها ووجوهها، وقسوتها تعض بالنواجذ على مدنٍ في حالة الغليان، مدن من الزمن البعيد، أمْسكَ بها القرن الماضي. والحجاج راضون ومستسلمون، سعداء بأنهم يطوُون الأرض المقدّسة، حتى ولو حُرموا من الشروط الصحية، ولو دفعوا وتدافعوا، حتى وإن كان هنالك من يستغلّهم، منتهزاً فرصة حماستهم واندفاعهم، وذلك الإيمان الأعمى الذي يتمتّعون به.

إنه لأمر غريب! فالإيمان يفصل الحجاج عن أجسادهم. أما أنا فأظل متشبثاً بجسدي. لاأفارقه ثانية واحدة. وأظل متعلقاً به خشية أن يأخذني حلم الحلم، وعين الينبوع المفتوحة والأزلية، وصدى الصوت الذي أبقيه حبيساً في ظلام البئر، والقول المؤلّف من العظام المتروكة عند مدخل «المدينة»، والخيّال الذي مات بسبب حزنٍ طويل في أعقاب خيانة أُوصيَ بألا يباح بها، وعصفات الرمال الممزوجة بأقراص بلّورية نادرة ومسمومة، والحيوان المحظور عليه دخول «المدينة» ولكنه يتوصل لاجتياز الحدود مرة في السنة عند الغسق، وكنت هكذا أُمسك بجسمي مشدوداً إلى ذاتي خشية أن يُدفع بي من حلم إلى آخر، ومن رابية إلى جبل، وأن يُلقى بي إلى مغامرة الوجوه التي خرجت من الهاوية، وأن تطأني أجساد محنيّة وعمياء، والرأس مرفوع نحو السماء، وقد روّضه نور الصحراء القوي. فهذا هو «الورع الديني» و«ولع العطاء».

أنا جالس وقد أسندت رأسي على ركبتيّ. وهم نائمون ويشخرون بأمان. يد «المدينة» ملقاة على جفونهم. إنهم يرقدون وكيس نقودهم تحت الوسادة. ولم أعد أتذكّر فيما إذا كنّا نتحدث مع بعضنا، وفيما إذا كانت وجوهنا تتلاقى، وقلوبنا تنفتح إلى بعضها. لديّ ثقب في ذاكرتي وقد نسيت الأسماء والوجوه، والحركات المشتركة. وذات مرّة صلّينا جماعة في صفوف مرصوصة ضمن الغرفة. لابدّ أنها كانت صلاة العصر الأخيرة التي يمكن أن تُصلى على أحد الأموات، كنت أسجد بشيء من الميل باقٍ وراء المصلّين.

ثمانية أيام، ثماني ليالٍ. وقد انقضى زمن الأربعين صلاة.

«المدينة» موضوعة على راحة يد ذات خطوط بسيطة، واضحة، ونقية. وعند تقاطع خط «الزمن» وخط «القدر» ضريح النبي محمد. قلعة في الصحراء. صغيرة، مختبئة، منضمّة إلى البيوت المنخفضة. زرتها ليلاً: كان عليّ أن أخطو على الأجساد النائمة على الأرض العراء نفسها، وعلى عدّة أحلام لكي أصل إلى عتبة منطقة عارية، عالية يصعب الوصول إليها. ألقيت نظرة ولم أر شيئاً. هل أنا الذي كنت أرتجف أم هي الأرض كانت تهتز تحت خطواتي المترددة والمتعثرة؟ أكان الخوف البعيد والعميق من الوحدة المطلقة يرتسم على ميناء الساعة الضخمة المعلقة قبالتي على العمود الرئيسي؟ هل كان صمت المدينة، أمُ روح المدن، أم القلق المجرّد الذي ظهر في المرآة، في حين كان يُعتقد أنه قد تبدّد عند الاقتراب من كثبان الرمال؟

غادرتُ المزار - البيت الأخير - على أطراف أصابع رجليّ، وعدت إلى الغرفة لأجمع حوائجي. كانوا قد سافروا. بينما بقي آخرون ينتظرون في الممر لكي يستقروا في ذلك المكان الذي لم يكد يُمسّ. ورفاقي قد تفرقوا، وأصبحوا في طريقهم إلى مكة. لكنني أحببت أن أقوم بهذه الرحلة على ظهر أحد الجمال، كما كان يفعل الأجداد. الآن لديّ الخيار بين السيارة العمومية والطائرة. كنت أودّ الوصول إلى مكة عند منتصف الليل. فهي كالمدينة، مدينة يجب اكتشافها على مهل، عند بزوغ الفجر، في الوقت الذي ينسحب فيه الليل ببطء، ويبدو فيه ضوء النهار رويداً رويداً. قمت بالرحلة إلى «جدّة» بالطائرة، وركبت في سيارة عمومية، قطعت بنا الطريق ليلاً إلى مكة.

فأية ذكرى عن الفجر قدّمت لنا هذه المدينة: ذكرى مدينة تعجّ بمخلوقات تعبرها عبوراً. فأية يدٍ يمكنها أن تلمسها، لا أن تمسكها، أن تضمّها، بل أن تقترب منها وحسب، دون أن توقظها. «مكة» يجب أن تكون أكثر حيوية، وأشد قسوة، وأكثر جمالاً في أفكار العميان. «المدينة» في راحة يد، أو في إناء من الفخار. ومكة شُيّدت

كأسطورة عبر الزمن، وبالكاد كمدينة. فلا يمكن رؤيتها. والذين يدخلونها يخيل إليهم أنهم يرونها، بل كانوا فيها. فهي خارج متناول اليد، ولايمكن بلوغها أو الوصول إليها، ومن الأفضل مراقبتها عن بُعد وقراءتها وكأنها لغز من الألغاز، والتفكير بها كسرٌ خفي وأعجوبة تامة.

تسكّعت طويلاً في أزقتها. شعرت بأني لم أكن هناك، بل كنت في مكان آخر، وليس لي كيان مادّي، كنت لاشيء، حتى ولاريح غياب. شفافية. سرت مطوّلاً باحثاً عن الينبوع وعن الجبل. لم ألتق إلّا بنظرات تائهة ومنبهرة، منصعقة أو مصابة بالدوخة والدوّار، مهلوسة وسعيدة، وقد تملّكها النور والدمع.

الدليل وأسرته يسكنون على السطح. وبقية المنزل مؤجرة للحجاج: الغرف، المستودعات، الممرات وحتى الأدراج. والدليل نادراً مايبدو. فهو يوفد إلينا بعض الأدلاء المتدرّبين من الشباب اليمنيين. والدليل العجوز كان خبيثاً، طويل القامة، نحيل الجسم، ويبدو أنه كان متعالياً يكنّ الإزدراء للجنس البشري الذي يقصده ويأتي إليه. فهو يُصدر أوامره من أعلى خيمته المنصوبة على السطح، ويعمل حساباته ويحكم كسيدٍ غير منظور. وقليلاً مايتكلم وإذا تكلم فبصوت منخفض. وكنت أراقبه خلسة وقد لاحظت أنّ هذا الرجل الصحراوي لم يكن مولعاً سوى بالمال، ولذلك كان يخشى تلاعب بناته الأربع اللواتي كنّ يقمن بأعمال المحاسبة.

أنا جالس على حجر، في أعلى جبل عرفات. أنتظر غروب الشمس. وحيداً. أنا والحجر وربما مليون نسمة، الجميع وقوف، الأنظار متجهة نحو السماء. وأنا محاط بكتلٍ بشرية لاأراها. أنظر إلى الحجر ولا أتوصل لمعرفة لون الأرض. أترك المجال لروائح طفولتي العطرية كي تغمرني. ربما لم يكن هذا هو الوقت المناسب، ولكني أنظر من فوق كتفي الأيمن فأرى من جديدٍ شجرة الليمون وسط الباحة. ليس هذا هو المكان المناسب أيضاً للانحناء فوق بئر عميق. فهنالك مليون حاج، على الأقل سيتواصلون مع الله ويتقرّبون

منه عبر صمت عميق تصعب المحافظة عليه. وأنا أحاول الفرار، أو الاستلقاء على الحجر. وعندما تختفي الشمس خلف الجبل، سترتفع جميع الأيدي المضمومة إلى الوجوه، حاملة إلى الكائن حجاباً من نور. وسيهبط الحجاج من الجبل راكضين وأنا أيضاً سأنهمك بالبحث عن جانب من النور. وربما سيكون هذا هو العفو والغفران.

في النهاية خفضت عينيّ ثم أغمضتهما. اختلطتُ بالجمهور، مرفوع الرأس، تائه النظرات. لم أعد بمفردي، والباقي الذي حدث بعد ذلك، أكتمه ولاأتفوّه به.

كنت قد نمت ليلة البارحة في «مُنى» تحت إحدى الخيام، غير بعيد عن جبل عرفات. نومٌ صعب، تقطعه صلوات أشخاص مسنّين موتى من التعب اختفوا تحت أرجل جمهور أعمى أو هم في النزع الأخير عند سفح الجبل. وكثيراً مايمر الموت من هناك، مبتسماً للبعض، مزدرياً بالآخرين، سيداً لكنه خفيف، لايلتقي سوى وجوه حارة، غير مبالية بحركاته الواسعة والحاسمة. كان يداعب النظرات التي تنطفئ في حالة من السعادة القصوى، سعادة من يغطيهم التراب نفسه الذي وطئه النبي قبل ألف وأربعمائة سنة. نمت نوماً خفيفاً وعميقاً، في آن واحد، على منشفة كبيرة وضعتها على الرمل الحار. فهل كانت هذه رؤى أم أحلام؟ إنها صور للضجيج والصخب أُخذت هنا وهناك:

إنها جماعة مؤلفة من خليط شاذّ وغريب، كثيرة الحركة والاضطراب. أصدقاء ذوو وجوه صارمة، من قدامى رفاق المدرسة، مجهولون مقنّعون، صور حية على سماء مظلمة. اقتربَ مني رجل وقال لي بأنه ممثل. وروى لي فيلماً قام فيه بأحد الأدوار. خَرجت من فمه صور ملونة. ورأيت على شاشة واسعة المشاهد التي وصفها لي. لم أسمع الكلام. حاولت متابعة إيقاع الصور التي تتوالى بسرعة كبيرة، أخذ يروي لي قصة أخرى، شخصياتها مختلفة عن شخصيات القصة الأولى. وعلى الشاشة نفسها أخذت تتوضع صور

سريعة ولكنها مختلفة أيضاً. توقّف الممثل عن الكلام، فبدت الشاشة فارغة. اختفى الرجل. أصبحت أنا نفسي في الفيلم: ممثل صامت أقف في الصف أمام أحد الإداريين ـ له وجه دليلي الذي كان في مكة ـ جالس على عرش عند أسفل أهرامات مصر. قدّمتُ له جدولي الذي يطفح بالأحرف الهيروغليفية، فلم يقل شيئاً، بل تناوله ووضعه على كدسةٍ من اللوحات القرآنية. الجوّ حار جداً... رفعت ذراعي لأمرّ به على جبيني، وعند ذلك توقف هناك كل شيء. تجمّع أصدقاء ووجوه البداية. والتقينا في بيت كبير في مدينة «فاس». وقُدّم لنا الطعام لنأكل. ذلك الطعام ـ المؤلف من السميد أو الرز ـ كان ممدوداً على سرير كبير مغطى بقبةٍ من قماش حريري. كنت مكلّفاً بتقديم الطعام للمدعوين. ولم يكن لديّ سوى ملعقة قهوة صغيرة. فلم أستطع أن أملأ الصحون التي كانت الأيدي تمدها نحوي. لم يفرغ السرير من الطعام. سرير مملوء بطعام «الكوسكوس» وبيني وبين هذه الكمية من الطعام هنالك حاجز خشبي. أنحني فوقه فينكسر. لاأقع لكني أشعر أني أصبحت حراً وتخلّصت من سخرة أو من عملٍ يستحيل القيام به. أتقدم نحو السرير وأتناول حفنةً من السميد. عندما أرفعها إلى فمي تصبح مجموعة من حصى الصوّان. أقرط إحداها. لها طعم عرق السوس. أقترب كثيراً من السرير، فلا أكتشف سوى الحجارة المكدسة فوقه. ويبرز من بين بلاطتين رماديّتين رجل يرتدي بزة وسترة رمادية. يقفز، رشيقاً وسريعاً. أنظر إليه. فيتأمّلني كما لو كنا نعرف بعضنا بعضاً. وتبيّنت فيه وجهاً. وقال لي صوت في داخلي: «إنه هو الشاعر الملتزم!» كان الآخرون قد انصرفوا. وبقي رجلان هناك وحدهما وقد أمسكا صحنيهما الفارغين، وأخذا يتفرّسان في وجهي ويهزان برأسيهما كأنهما يقولان لي بأنّ الرجل الذي خرج لتوّه من بين الحجارة هو بالفعل «الشاعر الملتزم»: حركات سريعة وحاسمة، كلمات مقتضبة، قبعة رمادية، وجه منقبض الأسارير، مشية متزنة وسلوك جادّ. صورة كئيبة تنمّ عن الحزن. لاأثر للمزاح أو الدعابة. لاينبس ببنت شفة.

ألتفتُ لأجد نفسي ثانيةً في الصحراء. حيزٌ مألوف. كثبان من الرمل الأحمر تتنقّل كالأمواج. أحلّق فوق هذا الامتداد الفسيح وألتقي بشخصيات معلّقة في السماء بخيط شفّاف. نتأمّل بعضنا بعضاً، فيعرف بعضنا البعض الآخر. لقد اختفى «الشاعر الملتزم». عاد ليعيش بين الأحجار. وقد حوصر بين حجرين من الصوّان. ولم يعد هنالك سرير عليه طعام من السميد. أصبحت وحيداً مع حلمي الذي مايزال بين يديّ. عاهدت نفسي على الاحتفاظ به كي أرويه. انحنت عليّ امرأة عجوز وقالت لي برفق: «يا حاج! لقد حان وقت الصلاة!» غادرتُ الخيمة ومشيت على الرمل، أبحث عن إحدى وعشرين حصاة. لأني سأذهب غداً، كجميع الناس، لأرجم الشيطان!

XII

أنا على ظهر دراجة عادية، أُنقّل نظري شارداً من وجه إلى آخر. الطريق طويل، على جانبيه أشجار كينا ضخمة. يجب أن يكون في آخره بيت، طاحون قديمة تعمل على الماء. وفي هذا البيت المنعزل عن كل شيء، آمل أن أتوصّل ذات يوم للجلوس مع أبي حول طاولة وأن أستطيع التحدث إليه. فأنا أتصوره بثيابه البيضاء جالساً بشكل منحرف على الأريكة، أو حتى وهو يضع ساقاً على الأخرى، مستنداً على وسادة، وأصابعه تنقر على الطاولة بدافع من السرور أو من الضيق والتذمّر. أتصور أنه سيكون هادئاً، وديعاً، يتمتع بالسكينة وحتى بالسعادة. وأنا سأحضّر له الشاي، ولن أوصيه بأن يعتني بنفسه، ولن أرغمه على تناول أدويته لمعالجة الربو والتهاب القصبات المزمن. سأوليه انتباهي وأمنحه محبتي. سأحاول أن أكون ودّياً وسأطلب منه أن يتحدّث إليّ.

سيقول لي أبي: «في الثالثة عشرة من عمري، كنت قد أصبحت رجلاً. وكان عليّ، أنا أيضاً، أن أهاجر إلى أقصى الشمال، للّحاق بأخي الأكبر الذي استقرّ في بداية الأمر في «نادور»، ثم في «مليلة» المحتلة من قبل الإسبانيين. كنت أجيد القراءة والكتابة، وأحفظ القرآن غيباً. كان هذا شرطاً فرضه أبي كي أستطيع مغادرة «فاس»

والذهاب للعمل. وقد أمضيت نهاراً بكامله وجانباً من الليل وأنا أتلو على مسامع أبي المئة والأربع عشرة سورة التي يتكوّن منها القرآن. كان يسمح لي بالوقوع بخطأ واحد في السورة. والخطأ الثاني كنت أعاقب عليه بضربة عصا. وعند رحيلي أخذ أبي يبكي، أما أمي فكانت طريحة الفراش، وأنا كنت أحبس دموعي. ففي الثالثة عشرة من عمري ألفيت نفسي وحيداً ومسؤولاً. كان الفرنسيون قد دخلوا إلى المغرب، وأدركت أنّ الأوقات ستصبح عصيبة، وأن مصيبة كبرى ستحلّ بنا. كانت الحرب العالمية الأولى قد اندلعت منذ عام مضى، وأخذ المسافرون يتحدثون عنها في الحافلة أثناء الرحلة. كان حديثهم مشوّشاً وغامضاً في ذهني. والرحلة بدت لي طويلة جداً ومرهقة. لقد استمرت طيلة النهار وقسطاً من الليل، حيث وصلنا في وقتٍ متأخر منه إلى «نادور». والحقيقة أني لم أستطع النوم تلك الليلة. كان هنالك من حذّرني: «الريف منطقة صعبة، ورجالها قوم أشداء». في ذلك الحين كانت «نادور» بلدة صغيرة تعيش على التهريب والتجارة غير المشروعة. عوّلتُ على العمل بالتجارة. وماذا أستطيع أن أعمل غير ذلك؟ لقد عانيت وتعبت كثيراً، وقضيت أوقاتاً عصيبة، ولم أستطع أن أجمع ثروةً. إذ أنّ النجاح في هذا المضمار والتوصل إلى الثراء، يتطلّب الكثير من الحيل والخداع والكذب، وبخاصة المجازفة والتعرض للمخاطر، وأنا، وإن كنت قد عملت طيلة حياتي في التجارة، فإني لم ألجأ مطلقاً إلى أيّ من هذه الأساليب. فقد كنت مستقيماً على الدوام، أعني شريفاً. ولابدّ لي من أن أعترف لكَ بأني أشعر اليوم بالغيظ، عندما أرى المتدربين الذين دربتهم وعلمتهم فيما مضى قد اغتنوا وجمعوا ثروات طائلة في أيامنا هذه بعد أن استغلّوا الظروف التي سادت أثناء الحرب العالمية الثانية. فأنا لم أستطع أبداً منافسة الذئاب، ولكن حمداً لله، لم ينقصنا شيء من وسائل معيشتنا. كنا دائماً نجد مانأكله عندما نشعر بالجوع. فأنا، كأخوتي، كنت أبيع المنسوجات الإنكليزية واليابانية ذات النوعية الجيدة، وكانت لديّ فكرة سامية عن التجارة.

و«نادور» لم تكن هادئة ولامزدهرة، كما أنّ حرب «الريف» كانت ستندلع فيها وتدمّر كل شيء. وإني لأتذكر جيداً الفقيه العالم «عبد الكريم الخطّابي» بطل تلك الحرب. فهو الذي نظّم عقد زواج أخي الأصغر، وهو رجل ذو ثقافة واسعة، أتمّ دراسته في جامعة «القرويين» في «فاس». وكثيراً ماكان يأتي ليتحدث مع تاجر صغير من جيراننا، يدعى الشيخ «شاووني». كنت أمر بالقرب من «عبد الكريم» وأحيّيه بكل احترام. وعندما علمت أنه يقود الثورة ضد المحتلين غادرت أخوتي، وذهبت فالتحقت به في الجبال. وقد وشى بي أحد الجيران إلى الجيش الإسباني فألقي عليّ القبض في «حد لاوري». سُجنت خمسة عشر يوماً في زنزانة رطبة. ومازال أتذكّر العقيد «غبّاس» ذلك الرجل القصير القامة، المربوع، الذي أطلق سراحي. وقد علمت فيما بعد أنه من «الحمر». وهو الذي احتل «سيدي افني» سنة 1934 ، لكنّ «فرانكو» أمر بإعدامه في «برشلونة» سنة 1937 . وأنا أعرف «فرانكو» معرفة شخصية، لأني كنت أراه، فقد كان ضابطاً برتبة نقيب في «مليلة» ويرتاد المقهى نفسه الذي كنت أرتاده.

«وهكذا، فإني، بعد «نادور» سافرت إلى «مليلة»، فألقي القبض علي ثانيةً. ويجب أن أقول بأني كنت حاضراً في «أنّوال» يوم المعركة المجيدة الكبرى، التي حدثت يوم الجمعة في 17 تموز سنة 1921 .

«وقد أقمت في «مليلة» على عدة فترات: من سنة 1918 إلى سنة 1922 ، وبعد ذلك من 1924 إلى 1929 ومن 1930 إلى 1936 . ثم استقريت في «فاس» حيث أخذت أبيع التوابل بالجملة. وخلال ذلك كنت قد تزوجت. لكني لم أنجب. ودامت هذه الفترة أحَدَ عشر عاماً. عندما تزوجت أمك، لم أكن قد طلّقت زوجتي الأولى. وعاشتا سوية في منزل واحد زهاء عامين، أمضيتاهما في وئام، وأمك التي ترمّلت مرتين كانت ماتزال شابة، ولكنها كانت تدرك أن الوسيلة الوحيدة لطرد المرأة الأخرى هي أن تنجب لي أطفالاً. إذ عندما

حملتْ بك كان عمر أخيك خمسة أشهر، فطلّقتُ زوجتي الأولى، التي تزوّجت ثانية وبسرعة من جزارٍ في حي «المدينة»، وأنجبتْ له مالايقل عن ثلاثة عشر طفلاً! لقد عانيت وقاسيت كثيراً. ويجب على المسؤولين أن يمنحوني وسام المكابدة والتحمّل. وقد أمضيت حياتي متنقلاً من منطقة إلى أخرى، من مدينة إلى مدينة غيرها، من حيّ إلى حيّ آخر، ومن مهنة إلى مهنة مختلفة عن الأولى، وأنا على حالتي الأولى لم أتغير أو أتبدّل، واضح الرؤية، ثاقب النظر، صادق، متمسك بالإيمان، لاأخدع أحداً، كل همي هو أن أؤمّن لكم على الدوام السكن المناسب والعيش الرغيد. وأعتقد أنه لم ينقصكم شيء من الأمور الأساسية طيلة حياتكم. أوه، إنّ حياتي رواية. لقد كنت «غندوراً» (dandy) في «مليلّة» متأنقاً كأحد نبلاء الإنكليز. ولديّ بعض الصور التي تثبت ذلك: تأمل هذه، لم أكن قد بلغت آنذاك الثلاثين من عمري. والجالس بجانبي هو ابن عم لي، لم يكن مدهشاً، ولاأنيقاً، ولايتمتع بخفة الروح أو الدعابة. وبعد ذلك، عندما بدأت أبيع البهارات والتوابل، اضطررتُ للتخلي عن التأنّق في ملبسي. وراحت تفوح مني رائحة الفليفلة، الكمون، الزعفران، الزنجبيل وأكباش القرنفل... وأنت كنت تحب جميع هذه الروائح ممتزجة ببعضها، فتأتي وتأوي إلى حضني، فأضمك بين ذراعيّ وتتشبّع حتى أعماقك برائحة ذلك المزيج، تلك الرائحة المسكرة التي تبعث النشوة في النفوس. بعد العمل بتجارة البهارات والتوابل عدت إلى تجارة الأقمشة. ولم يكن نجاحي فيها باهراً. ولأني كنت متّهماً بتعاطفي مع النشاطات الوطنية، فقد عمد عملاء المخابرات الفرنسية إلى مصادرة ثلاثة أرباع بضائعي. وكان بعض المناضلين يأتون لعقد اجتماعاتهم في القسم الداخلي من الدكان. وقد فقدت كل شيء في حريق «القيصرية». كان ذلك عملاً استفزازياً قام به رجال الشرطة. ولعدة مرات وجدت نفسي أعود لأبدأ من الصفر، فأعيد ترميم وترتيب كل شيء بمنتهى الصبر، وبمزيد من الأمل، لكن دون أن أتوصل أبداً لجمع أية ثروة! أقول لك هذا لأنّ الروح الحقيقية

للتجارة قد انحرفت، ورأيت كثيرين من المحتالين والنصابين ينجحون، مزدرين بالقوانين، بالدين والبشر. والبقية أنت تعرفها. لم أنعم في أي يوم بالراحة. العطل والإجازات؟ ليست لي. ثم هنالك أمك. أنا أعرف. أنت تحبها أكثر مني. ولكنك ظالم. فأنا فرد وحيد في حزبي، ليس معي فيه منتسبون ولاأنصار أو متعاطفون. فأنا العضو الوحيد العامل والمناضل. وأمك ترفع صوتها عندما تكلمني. وأنا لاأحب ذلك. وأنت عندما تتحدث إليّ، كن لطيفاً، لاتَثُرْ وتتكلم بعصبية، قدّر أنك تتكلم مع أحد أصدقائك، مع أحد رفاقك في المدرسة. وأنت لاتحب إجراء المناقشات معي، لذلك أتكلّم بمفردي وأطالع الصحيفة، وأعلّق على ما أطالعه لنفسي. لاتصرخ عندما تخاطبني. فأنا أعرف بأني أتدخل بكل شيء، لأني لاأريد لكم سوى الخير، إذ أنّ لديّ الخبرة الكافية، ولكم أودّ أن تستفيدوا منها. وكثيراً ما يأتي لاستشارتي رجال لهم أهميتهم. لكن أنتم لاتفعلون ذلك! وأخيراً، لتحلّ عليكم بركتي، وهذا هو المهم. وأخوك مثلك فهو أيضاً لايستشيرني. وهذا أمر يؤلمني. أنا أعرف أنّ الزمن قد تغيّر، ومازال أحتفظ في المستودع بجميع الأشياء والحاجيات التي لم نعد نستعملها. ومن يدري؟ فستجد في ذلك المستودع كل شيء: مصابيح كهربائية محروقة، مكاوٍ معطلة، مفاتيح كهرباء، مسامير صدئة، عدّة مطارق بِنِصاب أو بلا نِصاب، جرار مشقّقة، أقفال، رزم مفاتيح دفاتركم المدرسية، شهادة الدراسة الابتدائية العائدة لك وهي ضمن إطارها حتى وإن كان الزجاج مكسوراً، كتب التاريخ والحساب التي كانت لك ولأخيك، دفتر مسودّة، مئات الأمتار من خيطان القنب، العديد من الأطر، أشرطة كهرباء، نظارات مكسورة، مرآة تالفة، حقائب جلدية بالية، فراشٍ للدهان، كل شيء، كل مايحتاجه المصلّح المتعدّد المهن الذي يصلّح جميع الأدوات واللوازم، ويصلّح النفوس والأرواح، المصلّح الذي يعتمد على الغيبيّات وعلى ماوراء الطبيعة! فهذا المستودع هو موضع أسراري، ولاأحب أن يدخل إليه أحد. ومنذ أن بدأت أهتم بالحديقة أهملته

قليلاً. أنت ترى، مثلاً، المنهل الرخامي الصغير، الكائن قرب مدخل المنزل. فأنت تجده تافهاً وتسخر منه. أمّا أنا فإني أحب سماع صوت الماء وهو يسيل من ذلك الفم الذي فتحته في الوسط. وإنها لمتعة وأية متعة بالنسبة لي أن أتناول القهوة بعد الظهر، عندما يكون الطقس جميلاً، متخيلاً نفسي في أحد بيوت مدينة «فاس» الكبيرة، بالقرب من نافورة ماء رائعة في وسط باحته. فأنا هنا أشتاق إلى «فاس» وأحنّ إليها كثيراً. وأعرف جيداً أنّ «فاس» لم تعد في «فاس».»

وفيما هو يتحدث إليّ، كانت تبدر من يده اليمنى حركة، كما لو أنه يدفع بها شخصاً ثقيلاً وفضولياً منحنياً على كتفه. فهذه اليد تطرد الماضي وترفض، رغم كل شيء، الشوق والحنين. ولقد وجد أبي على الدوام صعوبة ليس في التكيّف، بل في تقبّل مايبدو جديداً، دون أن تتاح له مناقشة ذلك. وكثيراً ماكان يبدو فكره النقدي منهجياً. وظل لزمن طويل مصمّماً على أن يُعتبر، بل وأن يكون رجلاً عصرياً. فعند وصولنا إلى «طنجة»، قرّر التخلي عن طاولة الطعام الصغيرة والمنخفضة وحوّل إحدى غرف المنزل إلى قاعة للطعام على الطراز الأوروبي: مائدة مستطيلة، كراسي، غطاء للمائدة، صحون، ملاعق، سكاكين وشوكات ولكل فرد من أفراد الأسرة صحنه وكأسه، وليس هنالك طبق مشترك يأكل منه الجميع: ثورة صغيرة استمرت ثلاث أيام! ومرة أخرى عمل على حفر اسمه وكنيته وكذلك رقم الهاتف على لوحة نحاسية، وعلّقها على الباب. فتلقينا الكثير من المكالمات البذيئة، لدرجة أنه أسرع مرة في منتصف الليل ونزع تلك اللوحة. لكنّ الجانب المدهش لديه يبدو في جهة أخرى: إنه لايخضع أبداً. وأشعر أمامه أني حيال رجل غريب وغير عادي، يتمتع بذاكرة غنيّة، معذبة ومضطربة، ويطمح لتحقيق مطالب عسيرة وصعبة. فأخفض بصري بدافع من الكبرياء أو الحياء، ولاأبدي له

شيئاً من مشاعري وعواطفي، ولاأظهر له حناني وعطفي، بل أكتم هذه المحبة، وأنقم على نفسي بسبب هذا الكتمان.

وأحب منه تثبيته أو تصحيحه لتاريخ الأسرة. فقد ظل يسجل كل شيء خلال زمن طويل في دفاتر كبيرة التهمتها الفئران بعناية. ولكنه بقي هو ذاكرة الأسرة الحيّة، والدعابة اللاذعة، التي هي أبعد ماتكون عن أن تبعث على التهدئة والابتسام، فهي تجرح بدلاً من ذلك. رجل لم يفهمه أحد، فهو لايختار الأسلوب السهل. وقد عارضْته لزمن طويل، لأنه الأب وحسب (وبهذا المعنى يمكن أن تكون هنالك أسباب ومبررات لانهاية لها، يصلح قولها، ولكن يصعب الاعتراف بها) حتى اليوم الذي أدركت فيه أني أكاد أفقده عبر سوء التفاهم وخاصة خلال الصمت وغياب النظرة الخالية من العنف، المنحرفة أو المنخفضة.

XIII

إذن أنا أكتب بدلاً من أن أعيش. أجلس إلى منضدتي وأبسط على الصفحة كل العنف المتراكم، وجميع النزاعات التي خضتها.

وربما سيكون عليّ أن أتوقف، ذات يوم، عن الكتابة، والكفّ عن هذا الذهاب والإياب بين الحياة ومظاهرها، والسير في الصمت والوحدة زيادةً بعض الشيء إلى آخر ذاتي. كما هو الحال بالنسبة لألم الرأس الذي ينتابني بانتظام منذ مولدي. فأنا أضع رجلي بين ساقيه لأوقعه في كل مرة يصبح لايطاق بدلاً من أن أذهب لأرى إلى أين سيؤدي بي الألم. أوقفه في انطلاقته بابتلاعي أقراصاً مسكّنة، لكنه يصمد، ويعاود الهجوم بدورية منتظمة تلفت الأنظار. وماذا لو قبلت أن أستقبله في يوم من الأيام كزائر مزعج، وغير مرغوب فيه، لكن لايمكن تجنّبه، دون أن أحاول التخلص منه، وتحويله عن خط سيره، والغياب حتى اللحظة التي يصبح فيها الألم حاداً، أي هامّاً! وماذا لو قرّرت أن أعيشه إلى الدرجة التي يصبح معها لايطاق، حتى درجة الجنون الذي يخرجني أخيراً من ذاتي وربما يجعلني أكثر قابليةً للعطب، وببساطة، أكثر حياة وحسب!

اعتدت أن أتفادى هذه الأوضاع التي تفرض الوحدة المطلقة التي يمكن أن أعيش فيها إحدى المجابهات، وتظل فكرة المحافظة على الجسم الذي أتى مريضاً إلى الحياة، مستبدة بي، وتنأى بي عن

الكثير من الأعمال العنيفة، بما فيها وبخاصة تلك التي يمكن أن تبني لي مسكناً.

وهكذا فإنّ ألم الرأس يصبح ذلك الحنين إلى الطفولة التي قضيتها في السرير. فما الذي تركتُه من غالٍ وذي قيمة كبيرة، إذن، في «السَّبَت»، الذي أمضيت فيه سنواتي الأولى؟ إني أعود إليه، إلى حدٍ ما، رغماً عني، كما لو كان عليّ أن أوضح أعجوبة أو أن أشرح سرّاً خفيّاً. وسيقال لي هذا فيما بعد: وجودي لذاتي، لجسمي، يبدو ويتجلّى في كل مرة يقوم المرض فيها بهجمة في أوردتي، وأنا أشبّه الشقيقة التي تصيبني، بالدورة الشهرية لدى النساء! فهي مثلها تحدث بانتظام. وعندما تتأخر بإصابتي أشعر بغيابها أو بتأخرها وكأنه نقص أو عدم انتظام مثير للشبهات. قرأت كل شيء عن آلام الرأس وأجريت كافة التحاليل الممكنة. ولكوني لم أجد شيئاً ملموساً فقد أصبحت في الوضع المربك نفسه الذي أقع فيه عندما أحاول فهم علاقتي بالحب. والفرق هو أنّ ألم الرأس عندما يحلّ بي يجعلني ممتنعاً، لاأستطيع العمل. ولاأصلح لشيء. وأصبح غير ذي فائدة، ومعيقاً لنفسي بشكل مخيف. وفي بعض المرات يصل الألم إلى أطراف ونهايات أعصابي بعنفٍ شديد يصعد كالحمى في منتصف الليل، فيوقظني ويرغمني على العيش معه، دون أية إمكانية للهروب. معاق ولافائدة مني: لاأستطيع أن أنام، ولاأن أقرأ، ولاأن أتكلم ولا أن أكتب. فأمسك رأسي بين يديّ وأحاول أن أفكّه وأزيحه من مكانه. ولكم أودّ أن أتخلّص منه وأستبدله برأس أقل حساسية لرجفان أعصابي وأوردتي، ليصبح لرأسي وجهٌ أقلُ سكينة وصفاءً وأكثر صلابة ومتانة في الداخل. أتمشى في الغرفة وأشعر بأقل وأضعف حركة في الأرض. وأتلقى كل شيء بشدة. حلمي: أن أفقد رأسي، أن أضعه على وسادة وأنظر إليه وهو يبرد إلى أن أستعيده وأجد ثانية إيقاع أحشائي. ولكنني لاأستطيع القيام بذلك. لهذا تعلّمت أن أنتظر وأصبر. وهذا لم يجدِ شيئاً، لأنّ أزمة أخرى كانت مسجّلة على روزنامة لحظاتي النادرة في الحياة والجنون. وهكذا

تكون الشقيقة الهوس الوحيد الذي يسيطر عليّ ويُفرغني إلى درجة الإعياء. وأنا أخطئ بالمقاومة. وفي الأساس، فإني أنجح بمقاومة الحب، وأدع فيض آلام العنق والدماغ يطغي عليّ ويتملّكني.

كان ذلك دون شك بعد حدوث نوبة من وجع الرأس حيث كتبت رسالة حزن وحداد، كانقطاع لصمتٍ يسوده التوتر. وهذه الرسالة جعلتني أشعر بالخجل. أدركتُ أنّ الحبّ لايعاش أبداً في القواعد والقوانين الاجتماعية وأقل من ذلك أيضاً في الأخلاق. لقد حررتني الرسالة، لقد وضعتُ الحياة في الكلمات وانسحبت منها، بمجرد بعض الخربشات ليس غير. والقدرة على الكتابة تذهلني. فأنا ألجأ إليها وأحتمي بها في كل مرة يكون عليّ أن أعمل أو أن أتصرف. فالتعويذة بالكلمات هي درعي، ستاري وحجابي، مسكني وولعي.

XIV

عندما ظهر فجأة، طويل القامة مرتجفاً، يجر ساقه اليسرى، يسند بيده اليمنى ذراعه اليسرى، بجسمه الضخم نصف الميت منذ زمن طويل، ووجهه المنتفخ، الذي تبدو عليه الحركات اللاإرادية التي تجعل من الابتسامة تقطيبة وتكشيرة، عندما بدا على عتبة الباب، أسود اللون، متدثراً بجلباب أبيض، يطقطق بسبحة صُنعت حباتها من مادة مشعة، ناداني بصوت أجش يشوبه التأثر والانفعال، قائلاً لي كأنه يوقظني من نوم مضطرب أو يريد تنبيهي إلى الالتزام بالنظام: «أنا ابن عمك وأبوك عمي، أنا زنجي ابن زنجية اشتراها أبي في مدينة «فاس» نفسها، منذ مايقرب من خمسين سنة، وقد أتيت اليوم لأريك وجهي وتريني وجهك، ولكي تتجدّد الحياة في دمائنا ويُعترف بها، لقد أتيت طلباً للعفو والمغفرة عن الغياب بعد ثلاثين سنة من التيه والضياع، أنا الابن الذي حلّت عليّ لعنة أبي، والذي سبّبتُ الآلام لأمي وأسأت إليها، آتي اليوم إليكم مع أولادي، لكي نزيل سوء التفاهم الذي سبّبه الصمت وعدم التواصل...» وعندما تعب جلس أو بالأحرى تهاوى بكل ثقله على الفراش وأخذ يبكي بسبب تأثره وفرحه أو بسبب شعوره بتبكيت الضمير، ثم طلب كوباً من الماء، وأخذ يشرب بجرعات صغيرة وهو يلفظ في كل مرة اسميْ الله ومحمد صلى الله عليه وسلم. وطلب أن يحضر الجميع، وكما لو كان يرأسُ احتفالاً من أعلى أحد المنابر، ألقى خطاباً

طويلاً، ضمّنه بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية: «الأصوات قالت وأنا سمعتها، أنا ابن عبدةٍ وأبٍ عنيفٍ، أتيت اليوم، مدفوعاً بالوهم والحلم لأجمع وأوحّد هذه الأسرة التي فرّقها وقطّع أوصالها الزمن والقدر...» كان نصف جسمه المصاب بالشلل لايستطيع التحرك، متعباً، متوضّعاً باسترخاء كجذع شجرة من المطاط، بلا إحساس، ولاحياة، حبيس، منطوٍ وملتفٍ في بقية الجسم، وذلك الصوت المهيّأ للحياة الشظفة والقاسية يعلن جملاً فارغة، مركزاً عليها، وقد اختارها، على مايبدو، لإثارة الانفعال الشديد والفوري، وكانت تتخلّلها ضحكات غريبة في كل مرة كان أبي يوقفه فيها لإثارة ذكرى قديمة مذكّراً إياه بأنّ غيابه قد طال أمده وأصبح مثيراً للشكوك، فكان يضحك، يغمض عينيه ويتخيّل نفسه طفلاً رجيماً، لاجئاً عند والذي في «مليلة»، ثم في «فاس»، ولداً غير محبوب لأنه أسود وابن عبدة، أو فقط لأنه كان وقحاً وأصبح منذ ذلك الحين منحرفاً. أصغينا إليه، وقد أذهلنا بهذا الإخراج الذي قام به: «أمي، أمي المسكينة، التي لم يكن يحق لها أن ترفع صوتها، كانت تنتظرني وراء الباب حتى الفجر لكي تفتحه لي ولتحميني. كانت تضع يدها على فمي، وتجعلني أخلع حذائي، كيلا أحدث ضجة، أو أوقظ أحداً، ثم تذهب لتنام في غرفتها، على السطح، التي كانت عبارة عن مستودعٍ للحاجيات المهملة، ترافقها فيها الفئران، وأنا كنت أسبّب لها الألم والمعاناة، كنت أمضي بعض الليالي مع المومسات وليالٍ أخرى مع رجال المقاومة الوطنية، كنت ناقماً عليها ولم أستطع محبتها، وأبي كان لايكاد ينظر إليّ، فهو يعتبرني غلطته، بذرته السيئة، يلعنني وينزع عمامته. ويقذفها بعنف على الأرض، طالباً من السماء أن تخلّصه مني، أنا الذي كنت في نظره عبارة عن قطعةٍ من الفحم، أو مجرّد عودٍ يابسٍ من الحطب، أجوف، لافائدة ترجى منه، عند ذلك كنت أحطّم كل شيء، أبصق على وجوه الأموات، ولأنّ اللعنة كانت قد حلّت بي كنت أسمح لنفسي بعمل كل شيء... أين كنت عندما مات أبي؟ في المقبرة، كنت قد سبقت الجميع

إلى هناك عندما كان يحتضر، وقد ارتُدت المقبرة وأخذت أتحدث إلى التراب وإلى الحجارة التي ستغطي جثمانه.. وأين كنت عندما ماتت أمي؟ لم أعد أعرف، لأنها ماتت حزناً وبسبب العزلة والوحدة... وقد دُفنت، بعد الظهر، في أحد أيام الشتاء، كنت آنذاك وحيداً، وبكيت كثيراً. أتيت ومعي أفكار كثيرة متراكمة، هي أثقل من أن تروى بالكلمات. وعندما كانت زوجة أبي البيضاء أو ابنها البكر يضربان أمي كنت أختبئ في صندوق. لم تكن تدافع عن نفسها. فلا صراخ ولادموع. لم يكن لي أسرة، ولابيت ولاأصدقاء. كان لي وحدي وبمفردي وطيلة الليل امتداد الشارع الفسيح. فعندما تنام «فاس» تتّسع شوارعها وتتباعد جدرانها وتفسح المكان للأولاد الذين أهملهم أهلهم. وكانت رجلاي تجوبان تلك الأزقة بمشقة أحياناً وبمرح وخيلاء أحياناً أخرى. كنت أعيد تخطيط المدينة. لايوجد أحد أتكلم معه أو أمسك بيده. وأعود عند الفجر، متعباً، منتشياً بتأثير تيهي وجولاتي الليلية التي لم تكن تشبه بعضها أبداً. ولذلك فإني أدعو إلى اجتماع كل العائلة وأطالب بهذا الاجتماع، لكي نغلق موضوع هذه الآلام وتلك الكراهية بصورة نهائية!».

كان يحني رأسه ويحدق في الأرض. وجسمه لم يعد يرتجف. إنه يرتاح. وقد تأثر أبي فأخرج الدفتر الكبير الأسود، سِجلّ العائلة، وأخذ يخبر زائرنا عن الوضع الحالي لكل فرد من أفرادها: فلان تزوج سنة 1954 بامرأة صالحة أنجبت له ستة أطفال، وآخر طلّق زوجته الأولى وسافر ليعيش مع امرأة أجنبية، وفلان، الأخ غير الشقيق توفي بمرض السرطان وهو في الثامنة والعشرين من عمره، وآخر يعمل صائغاً وزوجته خياطة وقد رزقا ثلاثة أطفال، كبيرهم متشرّد. وهنالك آخر يعمل مدرساً، وأخت، سوداء أيضاً، أهملها الجميع. وقد نجح أحدهم في مجال المال والأعمال، وآخر مايزال يعمل حذّاءً، وجميعهم بخلاء... لقد تشتّتت هذه العائلة، بعد أن حلّت عليها اللعنة، وأخذت تعيش في حالة من الفوضى... وأخيراً هنالك من أصيب بالجنون، وترك لحيته تنمو وأخذ يرتاد المساجد،

ولايعلم أحد أين هو الآن ولاكيف يعيش. لقد فات الأوان، فات كثيراً، على إمكانية إعادة ترتيب كل هذه الأمور وتنظيمها... فالعائلة أصبحت بؤرة عنفٍ، وحروبٍ صغيرة، ومسرحاً لمظاهر الأنانية والحسابات... وكل شيء قد انتهى في الوقت الحاضر، أو يكاد ينتهي، وكل فرد من أفراد هذه العائلة سار في سبيله والذكريات تفترق عبر قهقهات الضحك.

طلب كوباً كبيراً من الماء، شربه جرعة واحدة، وطلب أن يصلّوا معه جماعةً، ثم نهض متثاقلاً واختفى في ظلام الليل.

وقد غذّت هذه الزيارة لعدة أيام وقائع الأخبار الشفهية لدى الأسرة. وروى كل فرد من أفرادها القصة على طريقته: عودة الولد الضالّ، المعاق والذي تقدّمت به السنّ، أصبحت بالنسبة لبعضهم آخر عمل قام به الابن الذي حلّت عليه اللعنة، وآخر عملية احتيال يقوم بها نصّاب، ووعي وتنبّه المجنون الذي لم يكن يتردّد بالتهام ذريته، أو فقط عرض حالة مريض يشعر بمللٍ شديد. فكرة جمع أفراد الأسرة الكبيرة كافة في صالة أحد الفنادق لإجراء التعارف فيما بينهم، ولكي يروا فيما إذا كان لولد ابن العم أنف كبير وجبين صغير، وإذا كان زوج العمة التي تقيم في «الدار البيضاء» هو حقّاً بخيل بالقدر الذي يتحدثون به عنه، وفيما إذا كانت ابنة العم المباشرة ماتزال غاضبة لانتمائها إلى «جماعة من المصابين بالعاهات» لدرجة أنها غيّرت اسمها وكنيتها، وجعلت أبناءها ينشؤون وهم يجهلون نسبهم أو لايهتمون به، وفيما إذا كان ابن العم الملحد قد عاد إلى السجن لأنه صلّى في المسجد وهو سكران، وفيما إذا كان ابنه مايزال يتعاطى المخدرات، وهل مازالت زوجته على صلاحها وصبرها، وإذا كان البقال قد جمع ثروة، وفيما إذا كان الاسم لم تلوثه بعض اللقاءات والتحالفات السيئة أو الزواجات الفاشلة، وفيما إذا كانت سيماء الأسرة هي نفسها على جميع الوجوه. فكرة هذا الاجتماع لكي يروا ويشاهدوا، لكي ينظروا ويلاحظوا، يروا ويسجلوا الحسابات فكرة مستحيلة... إنه اجتماع

مستحيل، لقاءات مزيّفة، تجمّع كبير ليس هنالك شيء محدّد يبرّره، لاحفل زواج، ولاعمادة طفل، ولاجنازة ميت، مجرّد فكرة الاجتماع سويةً وحسب، ليس لتنمية المحبة بين الأبناء الآباء، بل كراهية الأسرة، التي لاتمحى، والشراسة وشدة بغض البشر. وقد أيّدتُ تنظيم هذا الاجتماع، كمناسبة لتصفّح وجوه هذه «العشيرة» التي لم تكن أسوأ من غيرها، أن أراها موضوع السخرية، وأن أضحك منها على هواي... مشروع أخرق وجنوني ولد في رأس رجل مجنون، خياله متخلف ومنحط، لم يجد شيئاً يشتغل به أفضل من تنظيم مثل هذا الكابوس! وسيرتدي الجميع أجمل الملابس ويبدون بصحة جيدة، متّزنين تماماً، سعداء باللقاء مع الأغصان الحية لشجرة بالية، جوفاء، جذع وحسب، بلا جذور حقيقية، شجرة منحنية تكاد تقع نهائياً على الأرض، في أعلى مقبرة «باب الفتوح» في مدينة «فاس». سيستعيدون الذكريات المشتركة القليلة، وسيقهقهون بضحكات صاخبة تعبّر عن الغبطة والرضا، منتظرين المساء لكي يشعروا بالاختناق، لأن العائلة حالما تجتمع تلتهم بدفعات كبيرة كل الأوكسجين، فهذا معروف، وهي توقف حركة الهواء وتوزّع صرر الضيق والقلق. وابن العم المذكور ليس مجنوناً، وربما كانت رغبته الدفينة هي هذه: إنهاء هذه العائلة عبر ضجةٍ كبرى، تقطيع أوصالها، تشتيتها وإلقاءها إلى العدم! فكرة مغرية، التخلص من وطأة هذا الثقل، قطع الصّلات، تشويه الصورة ولف الكل في كفن السماء. إنها أسرة تساوي كثيراً من الأسرى الأخرى، غنية بتنوّع أعضائها وتعدّدهم، تتجاهل المجنون وسيء السلوك، وتنبذ التطرف والمغالاة.

اجتمعت الأسرة، ليس مرة واحدة، ولامرتين، بل مرات لايحصى لها عدد. فقد دُعيت إلى الاجتماع من قبل كل عضو حي أو ميت من أعضائها، وكانوا يأتون إلى الاجتماع بسرعة وحماسة وكأنه ملاذهم الأخير. وكان يُعقد تارة في صالة أحد الفنادق الكبيرة، وتارة في حدائق إحدى الفيلات الجميلة، وتارة في أحد المساجد، أو

في مقبرة من المقابر. يلتقون جميعهم هناك وقد ارتدوا أجمل ملابسهم لهذه المناسبة، قادمين بالسيارات أو سيراً على الأقدام، على ظهر جمل أو محمولين على محفّة من قبل رجلين قويّين، وقد أتت إحدى الخالات المسنّات يحملها اثنان من أحفادها على محمل خشبي، ووصل أحد الأعمام وهو إقطاعي، يتقدمه أهم أفراد عائلته، وأمضى الأطفال وقتهم باللعب، بينما كان الفتيان يتململون ضجراً، أما الخدم الذين كانوا يجلسون بعيداً فقد ظلوا يسخرون بهدوء من الجميع.

ولم يكن أبي هو عميد الأسرة. فقد كان أحد أبناء عمه، صف الضابط السابق في الجيش الإسباني، الذي يقيم في «مليلة» قد بلغ الرابعة والثمانين من العمر. دخل إلى الاجتماع بشكل لفت إليه الأنظار، مرتدياً بزّته العسكرية العتيقة، بعد أن أُصلحت وكُويت، وعند دخوله ضم كعبيه وأدّى للحضور التحية العسكرية التي كانت متّبعة قديماً في نظام «فرانكو» الإسباني. الأمر الذي أثار ضحكات البعض وتأثر وانفعال الآخرين. كانت كل الأسرة قد نسيته عملياً خلال إقامته في غرفة صغيرة استأجرها من عائلة إسبانية قديمة. ولم تكن ذاكرته سليمة، فهو لم يستطع أن يميّز الأسماء والوجوه بوضوح، ولكنه كان مطّلعاً على معظم الأحداث العائلية الهامة، ـ كالزيجات، الولادات والوفيات ـ ويعرف كل شيء عنها فيما عدا وفاة أخيه التي لم يفكر أحد بإعلامه بها. ولم يصدّق ذلك، وظلّ حتى نهاية الاجتماع يراقب مدخل الصالة، آملاً أن يرى أخاه الذي يحبه كثيراً يدخل ليحضر الاجتماع. ومنذ إحالته على التقاعد ظل راتبه على حاله دون أية زيادة. ولم يكن يجرؤ على الحديث عن ذلك، وظل محافظاً على وقاره حتى النهاية، وقبل انصرافه بقليل قال لأبي بأنه سيظل ينتظر أخاه في «مليلة». كان هنالك أيضاً جماعة التجار الذين اغتنوا وجمعوا الثروات عن طريق بعض الحيل والألاعيب. فهم مسرورون وراضون عن أنفسهم ويعتبرون أنّ في هذه اللقاءات إضاعة للوقت. ويتذمرون راغبين بالعودة سريعاً إلى مخازنهم. ويوجد بين المجتمعين مجموعة من الموظفين الدقيقين في عملهم

وفي مواعيدهم. ولم يكن هنالك مثقفون ومفكرون أو حرفيون. وكان أحد أبناء العمومة، الأعور، وحده الذي يعمل في إصلاح وصيانة الساعات، وهو رجل جذاب ولطيف، ملحد وقانع بوضعه. ظل طيلة الوقت يروح ويجيء بين المجتمعين الذين لايعرف ثلثيهم. هو أفقرهم، وقد سبق له أن مارس العديد من المهن، حتى تشغيل جهاز عرض الأفلام في سينما «عشابين» في مدينة «فاس». كان هو الذي اصطحبني للمرة الأولى إلى السينما، كنت في الثامنة من عمري. وقد تركني لوحدي في الصالة المظلمة وذهب ليشغّل الآلة. أخذ يعرض فيلماً حربياً يتضمّن بعض مشاهد المذابح، صورها تهتز وترتجف. وفي الأجواء طائرتان تحترقان. صرخ رجل كان بجانبي من شدة الفرح، فقلت له إنها ليست سوى صور، وليست مشاهد حقيقية. فقال لي: اسكت أنت لاتفهم شيئاً. فلزمت الصمت وتابعت مشاهدة بقية الفيلم، دون أن أكون مقتنعاً بما أشاهده. وبعد انتهاء العرض تأخر ابن عمي بالعودة إليّ. فشعرت بالخوف في تلك الصالة الواسعة الخالية. لقد نسيني. وعندما أطفأ جميع الأضواء صرخثُ صوتاً قوياً. فأسرع نحوي، واقترح عليّ أن أبقى معه في غرفة تشغيل آلة العرض في المرة التالية.

وكان يوجد بين المجتمعين بعض الأخوة غير الأشقّاء، وأبناء عمومة عن طريق الزواجات والمصاهرة، وأرامل، ورجال تزوجوا للمرة الثانية، وآخرون طلقوا زوجاتهم، وغيرهم ممن يطاردون النساء، ومسلمون أصوليون متشدّدون، واثنان من أبناء العمومة الفاسقين ظلّا يطلبان الخمر، وغيرهم من العزّاب، والفتاة المسنّة التي لم يكن أحد ينظر إليها. كان الجميع يتكلمون بصوت عالٍ ويتضاحكون. وكنت أنا أتأمل هذا «السيرك» وأتفرّس في وجوه جميع هذه الشخصيات، فأزداد شعوراً بأني غريب، وحيد، وسعيد لكوني أجلس على شرفة، بحيث أراهم دون أن يروني، ولاأشعر بمتعةٍ فيما أشاهده، بل لكي أحصل فقط على نوع من اليقين بأنّ أسرتي ربما كانت مدينة، شارعاً، وليست هي نفسها أبداً، وأنّ بلدي، وطني، هو وجه، مجموعة وجوه، نور غُلْوي في ساعة غير

محدّدة من النهار، وقطعة من السماء يعبرها ذلك النور السريع، وأنّ جذوري موجودة هنا حيث تنبض مشاعري وانفعالاتي، في مقبرة مدينة «فاس» التي بكيتُ فيها، وعلى صخور «طنجة» الساحلية، حيث كنت أحلم بالرحلات والأسفار. جذوري موجودة في حب حاضر وموجود يملؤني وينهكني، وفي كثير من الصداقة التي عشتها مع ثلاثة أو أربعة وجوه. إنّ جذوري هي بعض الكائنات التي أحبها وليست من تلك الجماعة البهيمية المرتبطة بالكد والعمل، الملتفّة بأغطية حياة صالحة، لكنها بلا انتفاضات، حياة صغيرة بحساباتها بعَفَنِها وأمطارها الهادئة. وجذوري ربما كانت هنا في هذه الكلمات، وفي هذا الحبر الذي يعني ويعبّر عن اللون الذي لايمكن وصفه، وهو يظلّل رابية في الجنوب أو صخرة على شاطئ المتوسط، أو قليلاً من الرمل الناعم الذي يتغير لونه مع تغيّر لون ضوء السماء. ويعني، بعيداً عن هذه العائلة المتفرقة ـ المجتمعة، عائلة بين الكثير من العائلات، وصراخ رجل وحيد يقف في وسط ساحة «سوكّو» الكبرى في «طنجة» فيمزّق قميصه حنقاً، غضباً وكراهية بعد أن تراكمت جميعها، ويلقيه أرضاً ثم يدوسه بقدميه ويغمض عينيه وبعد ذلك يرسل عويلاً ينم عن الألم، يستمر طويلاً، أطول من ليل بلا نجوم ولانوم، وأطول من نهار ينقضي في انتظارٍ أبديّ. صراخ وحسب، موجّه للجمهور، للسماء، صراخ منبعث من بئر عميقة مياهها مختلطة، يشق الأجواء، يدور مع الرياح بأشكال لولبية، ثم يسقط ثانيةً في الجسم المحموم للرجل الوحيد الذي تخلّى عن الكلمات، المسكون بذلك الصراخ الذي لم يعد يستطيع تحمّله.

لقد كان هذا إذن. في يوم ثارت فيه العاصفة وكثُرت حوادث الغرق. أسرة تعرض مشهدها على نفسها، عبر هزيمة وجوهٍ متجعدة، وأجسام هزيلة شاحبة. سقطت كأشجار قُطعت وأُلقيت محدثةً ضجةً قوية، ومثيرةً غباراً ناعماً وأبيض كالطحين.

XV

لاأسوار ولا قلعة، بل ساحة عامة، لايسودها نظام ولا انسجام أو تجانس، مسرح لتحرّكات لاتنتهي، ومكان العبور وتوقّف الكلام المتمتم، والكلمات التي تلفظ عويلاً، والعمامة التي تحلّ لفّتها وتلقى على الأرض، والستارة التي تُنتزع وتُمزّق، والأيدي المرفوعة لتعيد إلى أيدٍ أخرى مفتوحة جانباً من السماء، وجوه خفيّة، أسنان كُزّ عليها، ورائحة الأجساد التي تتصبب عرقاً، أجسام سمينة أو نحيلة، كثيفة أو شفافة ملتصقة ببعضها، أطفال يتراكضون، يجلسون على الأرض، عيونهم متورمة من النوم، أيديهم تندس خلسة بين أفخاذهم، رؤوسهم مثقلة تنحني إلى أن تقع أخيراً على حجر مبلّل، وتتصاعد كتلةٌ من الغبار الأصفر تذروها الرياح، والنخلة القديمة عند مدخل القصر العدلي عارية من الأوراق، هزيلة، صدئة ومتعبة، وعلى بساطٍ بلاستيكي تبيع إحدى العجائز خبزاً بائتاً وتيناً يابساً قرطته الديدان، وشرطي يوجه رفسة بحذائه إلى البساط ويشتم الرب الذي سمح لهذه المرأة بالوصول إلى الساحة، وتمر مجموعة من السياح تندس على ظهر الساحة المستدير، ثم تختفي في الحافلة المكيفة الهواء. وأولاد يبيعون السجائر بالمفرّق، تشرع الساحة بالدوران ببطء، وأنا صامد، أقف في وسطها، تحيط بي تلك الأجسام المتلاصقة، أظل أنتظر دون أن أجرؤ على النظر إلى الوجوه: إنها هي التي تنظر، وأنا، لاأدري لماذا أجد نفسي في وسط هذه الدائرة، مغتصِباً مكان الحكواتي، ووظيفته.

اقتربت مني امرأة وقالت لي: أنت حديث السنّ أكثر مما ينبغي، وسمات سكان المدن بادية عليك تماماً، بحيث لايمكن أن تكون حكواتياً. أنت كاتب، تدّعي أنك كاتب، إذن اصغ إليّ، افتح عينيك وقلبك، قرّب أذنيك واصغ إلينا، استمع إلى مانقوله، حتى دون كلام، ودون تحريك الشفاه، انظر إلى هذه الوجوه، الزمن والعصر وضعا فيها أوقيانوساً من الكلمات والقصص ولكنك عشت قليلاً، تذكر ذلك، اجلس، وفكّر ملياً، تعلم رفع حجارة السرّ برفقٍ، الواحدة بعد الأخرى، حافظ على الأعشاب التي تنبت بينها ولاتتردّد باتباع أصواتنا عندما تتجول في المقابر عند الفجر، أنا أعرف، نحن لانتكلم اللغة الواحدة نفسها، ولكنك وصلت إلى هنا وأخذت تنتظر، فإذا كنت خائفاً وتشعر أنّ الخجل أخذ يعتريك، وأنّ وجهك قد احمرّ، قل لنفسك إذن أنك لست بعيداً، لست بعيداً جداً عن هذا الجمهور، حتى ولو بقيت رجلاً من سكان المدن، بلا تجاوزات وبلا جنون. لقد أتينا من الأرض، من التراب، من الجبال ومن السهول القاحلة، وحللنا في مركز المدينة بأسمالنا الرثة وسلالنا القصبية الملأى بالأعشاب والحشائش الجافة والحجارة، وأنت، كما لو كنت تائهاً أخذت تقترب من هذا الجمهور. نحن لانجيد القراءة ولا الكتابة، ولكننا نعرف كثيراً من الأمور والأشياء. اجلس إذن، كلّا، ليس على الأرض، أنت رجل من المدينة، «فاسيّ» على ما أظن، خذ كرسياً أو مقعداً واجلس عليه، وسنحيط بك، ونقترب منك أكثر فأكثر! وأنت عليك أن تجمع شتات أفكارك وتفكر جيداً لأنّ لدينا كثيراً من الأمور يجب أن نتحدث عنها، ليس لك بشكل خاص لأنك أنت، المصادفة تقريباً هي التي أرسلتك، ولكني أعلم أنك إذا كنت هنا فإنّما حدث ذلك بدافع من ضميرك، فأنت تأتي إلى البلد من وقت لآخر، وتحاول البقاء على اتصالٍ وتماسٍّ مع الأرض ومع الوجوه.

ثم صمتتْ.

نهضتُ، شققتُ صفوف الجمهور، دون أن يقول لي أحد أية كلمة وذهبت أتمشى في حي «المدينة». كان رأسي يطفح بالكلمات،

بالصور والغبار. أخذت أركض بخطوات صغيرة، كما لو أن هناك من يلاحقني خلسة. أردت الابتعاد عن ذلك الجمهور الذي طوقني واحتجزني في حلقات شبكته. سرت في طريق حي «القصبة» كما لو كنت أبحث عن ملجأ، وعن مكان سريّ كي أخلو إلى نفسي وأبقى وحيداً. وفي محاولة الهروب هذه، التي دفعني إليها بشكل خفيّ كلام مازال يتردّد في رأسي وصدري، مرّ بي شاب تكلّم معي أولاً بالفرنسية، ثم بالإنكليزية. اقترح عليّ أن يفرّجني على حي «المدينة» وأن يبيعني بعض الأعشاب النادرة التي لايقدّرها حق قدرها سوى السياح أمثالي. وألحّ عليّ في ذلك. ولوضع حدٍ لهذا الخطأ أو سوء التفاهم هذا تحدّثت إليه باللغة العربية. فانصرف في الحال. لكنه بعد دقائق معدودة أعاد هجومه وأخذ يكلّمني باللغة الفرنسية. قال لي كلاماً من نوع: «يا صديقي أنت تتكلم العربية بدون خطأ، ولكنك تتصنع ذلك متظاهراً أنك عربي!» فانزعجت منه وفقدت أعصابي وصرخت به: «أنا مثلك، من هذه البلد نفسه، من هذه المدينة، وربما كنت أحد أبناء حيّك بالذات...». فأتى ردّه سريعاً ومزعجاً، سهماً في وسط صدري أحدث جرحاً آلمني: «كلّا ياصديقي! أنت وأنا لسنا متشابهين...» ورافقت هذه الكلمات ضحكة عصبية. ووقف كأنّ شيئاً لم يكن، وسألني بالفرنسية: «أيها السيد، ألا تريد دليلاً؟».

البيت هادئ والحديقة الصغيرة التي تحيط به روى أبي نباتاتها جيداً. وهو جالس الآن في مكانه المعتاد يطالع صحيفة صدرت منذ بضعة أيام، ويقرؤها بصعوبة لأنّ نظره ضعُف ولكنه يرفض استخدام النظارات. وكل مايقرؤه يغيظه. فيتحدّث مع نفسه: «لقد فقد العرب كل كرامتهم...» وتجلس أمي قبالته... تتناول أدويتها بعناية. وهذا العمل يثير أعصابه، فهو لايؤمن بالأطباء ولابما يصفونه من أدوية وعلاجات. ويمكنه أن يتحدث إليها في هذا الموضوع، لكنه يعتقد أنها لاتفقه شيئاً وجاهلة لاتتمتع بأية ثقافة ولذلك فهو يتابع القراءة والتعليق بينه وبين نفسه على مايقرأ.

فهل ساد بينهما حب في حياتهما الزوجية؟ هنالك كثير من

الصمت وعدم التفاهم يخيم على حياة هذين الزوجين، لدرجة أنهما لشدّة الحياء والخجل قد استبعدا من علاقتهما كل أثر للحب والحنان. وأنا أنظر إليهما وهما يعيشان على ضفة نهر صاخب، وأفتش في تصرفاتهما وعاداتهما على أثرٍ ودليل، ربما ليس لغرام أو عشق، بل على الأقل لمحبةٍ بسيطةٍ يُفترض توافرها بين الزوجين.

أنا جالس في ركنٍ من الغرفة وأراقبهما. أشعر بالبرد ولاأستطيع أن أتصوّر كيف التقيا. لكم يودّ أبي أن يناقش معي بعض الأمور، وأن أحدثه عن رحلاتي وأسفاري لكي يذهب ويرويها مزهواً لجيرانه وأصدقائه. ولكني كالأخرس أظل صامتاً، لاأدري ما الذي يمنعني من الكلام. وبماذا أبدأ؟ لكم أردت أن أتحدث إلى الاثنين معاً. ولكنّ السؤال نفسه يعاودني ويلاحقني. أكان هنالك حب بينهما؟ وماذا يمكن أن يكون الحبّ في مجتمع تُخصّص فيه امرأة إلى رجلٍ بموجب سلطة الأهل وحسب قوانين غير مكتوبة؟ فالحب لن يكون وارداً ولن يباح به أيضاً، بل يصبح مفترَضاً لأن الزوج لم يكن قد بحث عن زوجة ثانية ولاقرر الرفض والطلاق بشكلٍ حاسمٍ وواضح. وربما كان الحب يتمثل بذلك العبور لما يقرب من نصفَ قرن سويةً وجنباً إلى جنب، حتى وإن أصبح في النهاية السخط والضجر طابع التواصل بين الزوجين.

إنهما يتحدثان إلى بعضهما، يتضاحكان ويتخاصمان.

البيت هادئ. وأنا أنظر عبر النافذة، باب الحديقة موارب. لاشيء يتحرك. أحدق بالسقف وأتابع خطوط أحد الشقوق، كأنه نهرٌ رُسم على خارطةٍ بسيطة. أشعرُ ببعض الإرتعاشات، فأجمّع جسمي كأنه شيء من الأشياء. ألتصقُ بالجدار البارد. وعلى المنضدة الصغيرة برتقالة ورمانة وضعتا جنباً إلى جنبٍ. ليس لديّ رغبة بتقشيرهما، أُفضّل أن أراهما في مكانهما، ساكنتين بشكلهما الرائع.

هذا البيت ليس موطن طفولتي. مراياه فقدت بريقها. والممرات

أصبحت أكثر عرضاً واتّساعاً. كانت ملكيته تعود لحاخام «طنجة» الأكبر. رجل قامته ضخمة، جميل الشكل ولكنه يبعث الخوف في النفوس. كان قليل الكلام. يتمتم مايقوله بصوت منخفض. وأبي كان يقدّره كثيراً. وقد انفصمت عرى صداقتهما بسرعة بسبب سفر الحاخام المفاجئ، بعد أن فضّل أبي على المشترين الآخرين، حتى أنهما لم يتساوما أو يختلفا على الثمن. ولكي يشكره ضمه أبي بين ذراعيه. تعانق الرجلان وكل منهما قرأ إحدى الصلوات. بارك الحاخام زوايا المنزل. وسكب والدي فيه قليلاً من الحليب وحرقت أمي البخور.

نهضتُ، يدفعني حنين أتاني من مكان آخر، وقمت بجولة في المنزل. إنه قديم، فيه من الشقوق والأخاديد مايثير دهشتي وحيرتي. والحياة فتحت ممرات صاخبة بين تلك الجدران التي تآكلت بفعل الرطوبة والزمن. أرضه لم تعد مسطحة ومستوية. لكأن جذوراً حيّة قد نَزَعت البلاط وزحزحته من أماكنه. وهذا المنزل كشجرةٍ في الشتاء وباخرةٍ في الصيف أو كزورقٍ تتقاذفه الأمواج وهو يتغيّر، فتارة يبدو كبيراً واسعاً، وتارة تراه صغيراً ضيّقاً. وجميع الذكريات لديه تراكمت في ذلك المستودع الخرب والمهجور الذي لاتسكنه سوى الفئران. وفي الليل أسمع خطوات صامتة تعبر السقف إنهم جماعة الجِنّ الذين يقومون بأعمالهم المنزلية في تلك الذاكرة التي لاتكف عن التضخم والتي يكاد يفيض ماتراكم فيها من ذكريات. وجميع تلك الشقوق في الجدران هي بمثابة طرق وأقنية تمر فيها تلك الذكريات. كم من الصلوات أقيمت في هذا المنزل! لقد طَرَدت الشياطين والعين الشرّيرة ولاكراهية. قمت بجولة في الحديقة. برية مهجورة ومهملة. رائعة. حديقة صغيرة جداً. حلمٌ غريب ومعطّر في حلمي الذي رأيته ليلة البارحة والذي لن أستطيع أبداً أن أرويه. وسينهار السقف في يوم من الأيام تحت وطأة كل هذه الأحلام المكدّسة في المستودع المحرّم. وجدت نفسي وقد نجوت بالكاد وفي آخر لحظة من «الحديقة ذات الدروب التي تتشعب

وتتفرع» منحنياً على كومة من الحجارة والأخشاب، أبحث عن دليلٍ، عن علامة سرّية، عن حرف عبريٍّ كُتب على قطعةٍ من خشب، يمكن أن يدلني على مكان تلك الذاكرة التي ورثنا بعضاً منها بصورة لاشعورية تقريباً. هذا البيت اليهودي، الذي قرئ فيه «التلمود» أثناء فصول شتاء طويلة وحيث أجريت مراسم زواج عديدة وصُدّقت عقود كثيرة حتى قبل أن يولد جميع أفراد أسرتي، وهذه الجدران السميكة التي صمدت ببركة إلهٍ رحيم، والتي أخفت الكثير من الأسرار والكثير من الأفكار النادرة الوجود، وضمّت أحلاماً خجولة وقادت إلى دائرة الآثار والخرائب أحلام الأطفال الذين يفضلون اللعب في الشوارع على الصلاة اليومية.

هذا البيت يسكن في ذاتي وكياني. كان هذا في البداية بدون علمي. كنت أعود إليه كل صيف. وفيما بعد، عندما شعرت فيه بالبرد، وعندما سمعت أحاديث الفئران والحيوانات الأخرى في مؤتمراتهم الليلية، شعرت بقوّة في داخلي بوجود الحديقة، المستودع، الجدران المهتزّة، السطح الذي تكثر فيه الحفر والثقوب، النوافذ ذات الأطر الصدئة، الشجرة اليابسة المنحنية، الجدول الوهمي الذي يخترق السقف، وجميع الأشباح الملتفة برداءٍ أبيض وهي تعبر البيت كمجرد طريق للمرور قبل أن تذهب لتتلاشى في أبخرة الحمام النديّة.

البيت ساكن. كل شيء حوله يتحرك ويضطرب. تعبره مجاري مياه تسيل من النبع، عبر أبواب عملاقة فُتحت ونُقشت في مدينة «فاس»، وعبر روائح عطرية آتية من بعيد، بخور أُحرق يوم ولادتي ولايكف عن السفر والرحيل. أمي هي التي تدّعي ذلك. ففي كل مرة أعود فيها، تقدّم التحية لعودتي بهذه الرائحة العطرية التي تملأ الغرف والممرات ثم تتلاشى.

أبي جالس، منكب على مخطوطةٍ من مخطوطات القرن الماضي. إنه لايقرأ، هو ينظر إلى الصفحات ويتأمل الخط بإعجاب، ثم يقول لي وكأنه يريد متابعة نقاش كان قد بدأه: «لم يعد العرب يصنعون

التاريخ. فقد خانوا، لقد خانوا القدر وذبحوا أخوتهم. وكما تعلم، فإنّ الخيانة في زمن حرب «الريف» كانت نادرة الحدوث...» وساد الصمت، ثم استغرق من جديد في صفحات المخطوطة. وأنا لاأدري ماذا أقول. فهناك الكثير من الهزائم والأوهام الضائعة. وهزيمتي هي هنا: هذا الكلام الموجّه إليّ يقع كحجر في قاع بئر. أنحني فأرى الدوائر تكبر في الماء. ليس هنالك أيّ صدىً. وأمي التي يستبد بها القلق ألقت عليّ هذا السؤال: «هل ستسافر ثانيةً؟» وهل سبق لي أن سافرت أصلاً؟ لقد تغيّبت عن البيت، عن الشارع وعن البلاد، ولكن ظلّ كل شيء يلاحقني. ويلازمني الضوء الذي يغمر كل بقعة في أيّ جدار. فالبلاد ليست في حقيبتي، إنها في مكانها، لايمكن زحزحتها، موجودة في كل كلمة من كلماتي، في حركاتي وتصرفاتي وفي أوهامي. ولاأتكلم هنا عن الذكريات، فهذه البلاد لاتتقلّص لتصبح في حالةٍ هذه الأمور. إنها كحلم يستمر في النهار إلى أن يبلغ ليالٍ جديدةً ويلحق بها. وهي كوخٌ سرّي مختفٍ بين أوراق وأغصان أشجار غابة كثيفة. وزورق مهجور تُرك غير بعيد عن الأفق.

رفع أبي عينيه عن المخطوطة ونظر إليّ، منتظراً الجواب. هو لايستسلم لكثيرٍ من الأوهام. إذ عندما ذهب ليلتحق بصفوف ثوار «الريف»، وانقطعت أخباره لفترة طويلة عن أمه، أصيبت هذه بما يسمى «حمى الغياب»، وهي حمى شديدة استعصت على جميع الأدوية وأدّت بها إلى الموت.

والآن، أخذ يحدق بي بكثيرٍ من العطف والحنان، ثم قال لي: «لقد وجدتُ لك بيتاً صغيراً».

كان ذلك في يوم باردٍ جداً من أيام الشتاء، يبعث على الضيق ويسبب الانزعاج. لم يكن المنزل مزوداً بأية وسيلة للتدفئة. أعطوني غطاء. وجدته رطباً. شعرت بالبرد وأخذت أرتعش، لم أكن على مايرام. أردت النهوض والانصراف. ولكن ماجدوى ذلك؟ كلّا، يجب أن أبقى. وأمي لاتدرك لماذا أرتجف. وأخذت تهيء لي شوربة

الخضار. تذكرتُ الطفل الهشّ، الطفل المريض. قالت لي: «هناك كل شيء مدفّأ... ولكنّكَ نسيت... في السابق لم تكن تبرد أبداً...»».

يوم بلا ضوء. الرياح الشرقية كنست المدينة، وجلبت بعض الرمال إلى جادّة «باستور». نهضتُ دون أن أتناول شيئاً من الشوربة وخرجتُ. جلستُ في مقهى «باريس» وحاولت أن افكر. هذا المقهى له رائحة خاصة: عطور عديدة أجنبية وغريبة تختلط ببعضها البعض؛ وتعطي لهذا المكان المحاط بالألواح الزجاجية رائحة العفونة الثقيلة التي تكاد لاتطاق، وتفرض العودة إلى الوراء، بعض الحنين الذي أعرفه والذي يشمل الأيام الطويلة لدى المعتادين عليه.

أنظرُ إلى إنكليزي عجوز يجلس في مكان يستطيع أن يراه فيه الجميع، هذا الرجل تخلّى عن كل شيء منذ عشرين سنة من أجل العينين السوداوين والقدّ الممشوق لفتى مراهق كان يعمل ماسح أحذية. العجوز يبدو وقوراً وقد أخذ يتناول بجرعات صغيرة القهوة بالحليب في قدحٍ كبير وقد ضمّ ذراعيه إلى صدره كأنه أمام محقّق أخذ يستجوبه. الجميع هنا يعرفون قصته. ومن المؤكد أنّ حبه الجنوني قد أضفى طابعاً جمالياً على حياته ولكنه دمّر عمله ومستقبله وأثّر قليلاً على توازنه النفسي. ويقال أنّ ماسح الأحذية الجميل فتح حانةً في لندن ويعيش هناك مع أحد نجوم السينما الإنكليزية. يرتاد العجوز كل يوم مقهى «باريس»، فيجلس في ذات المكان الذي فيه مسح حذاءه ذلك الشاب في يوم من أيام الصيف، منذ سنوات عديدة، وينتظر. آملاً أن يعود صديقه ذات يوم. وهو نادراً مايتكلم، ولايزعج أحداً.

المقهى يخلو من الرواد في وقت القيلولة. وأنا بقيت هناك في مكاني، على عتبة منفى، كضوء كثيف، وباب ثقيلٍ يجب عليّ أن أدفعه بكل قواي، وخلفه يمكن أن أكتشف مدينةً، وجهاً، وقليلاً من الضباب. والمدينة يمكن أن تكون زقاقاً ضيقاً منخفضاً لأنهاية له، يكاد يكون مظلماً، يمشي فيه رجال متقدمون في السنّ، حُرموا من

حاسّة البصر، وراء نعش فارغ. فأتبع أنا الموكب حتى خروجه من المدينة. هناك، يكون الزمن قد أقام ساحة يأتي الناس إليها لبيع آخر حاجياتهم القديمة: قميص، جلباب، بابوج، مقص صدئ، وبخاصة آلة كاتبة عتيقة. سأجلس على الأرض، واضعاً إحدى ساقيّ على الأخرى منتظراً مجيء الحكواتي الذي سيكون بحاجة لكاتب عمومي.

سيكون وجهه محجوباً بالضباب. وستقترب يداه المزدانتان بالخواتم وحدهما من كتفيّ لتُمسكا بهما وتسحباني ببطءٍ نحو تلٍ من الكلس الحي يغوص فيه جسمي دون أن أموت.

وسيكون وجهه صوتاً مألوفاً، نشيداً في حلم الحلم، عادة سرية، وجملة مأخوذة من مخطوطة كانت ضائعة ثم عُثر عليها.

وفي المقهى مازال العجوز الإنكليزي في مكانه، كتمثال لايغيّره شيء، وأنا في طرف القاعة الآخر، يداي على المنضدة، أستعد للنهوض والانصراف. لكني أشعر بأنّ نوعاً من الحبل أو خيط القنب القوي يمسك بي ويستبقيني، ليس في هذا المقهى بل في مكان آخر، مدينة مألوفة نسيت اسمها، شارع معروف يبدو لي كمتاهة أو كشرك. أجد صعوبة بالتّنفس، أشعر أنّ ساقيّ ثقيلتان ورأسي خفيف جداً، تكاد تذهب به مجرد هبة ريح بسيطة. أنهض وأترنّح قليلاً، أرى أبي يعبر الساحة متجهاً نحو شارع «فاس». إنه يعود إلى البيت. تبعته. أصبح دليلي. أتأمل ظهره وأعاود التفكير في تلك الفترة من شبابه التي أمضاها في الأدغال مع الثوار. وأدرك أفكاره. لحقتُ به عند مدخل الزقاق المؤدي إلى حارتنا. أخذ يحدثني عن البيت الصغير. والحقيقة بأنه كبير. كانت هذه طريقته ليسألني متى سأتزوج وأنجب. لم يكن يجرؤ على أن يتحدث معي في هذا الموضوع بشكلٍ مباشرٍ وصريح. وهذا يؤلمه بعض الشيء. وسأظل في نظره رجلاً ناقصاً، ومصيراً لم يكتمل. وهو يطلعني على ذلك بوساطة مجموعة من الأمثلة. البيت أصبح أقل برودة. جلست في

غرفتي وأخذت أنظر إلى الكتب المكدّسة دون ترتيب. حقيبتي ملقاة على الأرض. مازالت مغلقة.

«طنجة» هي هكذا: كتاب لم يكتمل. مدينة بلا عائلة، وبلا منزل، سُلّمت إلى اللصوص وقطّاع الطرق ذوي الروح الحنونة، وتُركت لحالها، في عريٍ مُقْلِق ومبهم، أُخذت في غموض ليلٍ بلا نهاية، وعليها، فقط للازدراء بأولئك الذين يعتبرون أنفسهم جدّيين، وشاحٌ من الحرير بنفسجي اللون، حول عنقها، يرفرف في الهواء. وقد عُدت إلى هذا المكان لتصحيح بعض الأمور في حياةٍ ليس فيها كثير من الثقة واليقين. ولكني بردان ولا أجرؤ على فتح ذلك الدفتر الأزرق - عبارة عن رسالة مطوّلة كُتبت تحت نظري بين «خانيا» و«أثينا». ولماذا رجعتُ إلى البلاد دون أن أسمع صوت المرأة المحبوبة؟ لقد قلت لها: «عودي إلى «كسيوس»، الجزيرة التي ولدتِ فيها، وأنا أعود أدراجي.» أشعر أني مُلاحق ومُطارد بالظل الذي يُحدثه جسدي أنا، وهو بالواقع ليس سوى ظل شبحٍ هشّ يطاردني، يلقي بثقله على كتفيّ، يتكلم معي ويملي عليّ ماذا يجب أن أكتب. وتصبح مشكلة البديل بسيطة، بل سهلة ومريحة لو أنه يبدو لنا بوجه الحلم وصوت الغائب. ولكنه، للأسف، ليس له صوت ولا وجه، بل وجود هائل، معيق ومفسد لذاته. وبيدي اليسرى أدفع هذا الوجود. أشعر به بارداً في هذه الغرفة التي يكاد ينهار كل شيءٍ فيها، وأفتح الدفتر حيث أرى في بداية الأمر رسماً: يداً مفتوحة أصابعها متباعدة، وقد وُضعت راحتها بعين مفتوحة يعلوها نجمٌ صغير. أقلبُ الصفحة الأولى هذه وأقرأ: «لقد تمّ لقاؤنا دون علم القدر». وقد شُطِبت هذه الجملة، وبعد مساحة بيضاء، قرأتُ:

لقد ذهبتُ نحوكَ دون أن ألمس الأرض، تحدوني الرغبة برؤية المجهول. كنتُ عائدةً من جولة في شمال اليونان. أسعل كثيراً بعد أن شربت زجاجة ملأى بـ «الأوزو» كان ذلك اليوم خالياً من الأفكار، نوعاً من الغياب

عن العالم وعن نفسي بالذات. كنت أنتظر أن يوقظني صوت لم يُسمع أبداً. كان هذا لعباً على وجه التقريب، طريقةً لجعل النسيان شيئاً ملموساً. رويتَ لي حكايات. كنت أصغي إليك كطفل صغير، متأثرةً ونافدة الصبر. لم تحتفظ بأية حكاية لمرة أخرى. كنت أتأملك وأنت ترويها وقد لاحظت أنّ عينيك كانتا ترفّان وتتحركان دون توقف، ولم تكونا تحدقان بشيء. كانتا في حالة هروب دائم، فلابدّ أنك كنت تخفي أمراً: انزعاجاً، ضيقاً أو قلقاً.

واليوم إذا أتحدّث إليك، أفكّر بأن أقول لك كلّ شيء. روحي تتكلم معك ولاتقاضيك أو تحكم عليك أبداً. إنك تُحدث لديّ انطباعاً قوياً بأنك خارج جسدك. لقد غادرت هذا الجسد. وعندما تلمسني يداك، عندما تداعباني، فإني لاأشعر بوجود جسدك. عيناك وحدهما حيّتان، هما هنا، موجودتان، تتحركان، قلقتان. أمّا جسدك فلا أدري أين وضعته، أين خبّأته. وهذا ماكنت قد قلته لك منذ اليوم الأول عندما أمسكت يدك، وبسذاجة سألتك: «ولكن أين أنت؟» إنّ جسدك هنا، منظور يمكن رؤيته، ولكن في داخله لايوجد تموّجات. ولايحدث فيه شيء. وهو هادئ طيلة الوقت. حتى عندما يحدث أن تثور أعصابك، فإن هذا لايدوم طويلاً. أنت تخفي الاضطراب الذي تحدثه الأعصاب وتعود إلى هدوئك واطمئنانك كأنك تعود إلى رفيقةٍ قديمةٍ. وهذا الهدوء يقلقني. جسدك بيت خالٍ وفارغ، إنه مسكن مهجور. وأنا أعرف عمّا أتكلم لأني سكنتُ فيه. ومنذ زمن طويل لم تضع قدميك فيه. والواقع أن ذلك كوني أنا من أسكن جسدك، أو بالأحرى لأنك أنت لاتسكن فيه، لذلك لاتستطيع أنَ تحبّني، ولنَ تستطيع أن تحبّ على الإطلاق. وأظنّ بأن المرض وحده بإمكانه أن يرغمك على العودة إلى جسدك...

عبر النافذة، لمحت شعاعاً من الضوء الساطع، كخطٍ من السماء أُرسل من بعيد من قبل الكائن المتحمّس والمشبوب العاطفة. أتوقف عن القراءة وأراقب انعكاسات ذلك الضوء القصير الأمد والشديد على أوراق الأشجار المبلّلة في الحديقة. وأتلمّس جسدي. لديّ شعور يمتزج فيه القلق، الفضول والانتظار. أمر غريب! فأنا لم يسبق لي أبداً أن ادّعيت أنّ لديّ معرفة تامة بذاتي. ولم يسبق لي أن توقفت طويلاً أمام هذا الجسد لالكي أنظر إليه ولالكي أضعه في موضع اختبار الشك والغياب.

نهضت، وقمت ببعض الخطوات في المنزل. كل شيء هادئ. أبي غفا واستسلم للنوم، ومخطوطته التي تعود إلى القرن التاسع عشر ماتزال مفتوحة. وأمي تؤدّي صلاة العصر. الأشياء والحاجيّات كلها في أمكنتها. لاشيء يتحرك. هنالك هرّ يعبر الحديقة راكضاً. عدت إلى الغرفة، تعثّرت بالحقيبة. الدفتر الأزرق ملقى على طرف السرير. أقلب الصفحة وأسمع الصوت الحار الذي يعيد قراءة الرسالة قبل إرسالها:

يجب أن أقول لك، أنا التي ولدت على إحدى الجزر بأني أنزعج من ظل الشمس أكثر من الشمس نفسها، إنّ الظلام وليس نور الشمس هو الذي يشغل بالي. فعندما يكون النور ساطعاً أكثر مما ينبغي يخفي كل شيء كما يفعل الظلام. وبين الضوء والظلام تبدو بعض الأشياء: أزهار ذابلة، عظام محطمة، نجوم سقطت من عليائها. وكما لو كنت في النزع الأخير، وأحيّي المنازل المفتوحة، المنازل الغريبة، منزل أهلي، الشجرة التي علّق عليها أبي كل حاجياته الثمينة، أصدقائي البعيدين، أمي التي كانت معرفتي بها قليلة وضعيفة، أغادر العالم. السماء تضيع في مرآة البحر. وأنت لماذا لاتأتي ومعك ورقة من شجرة مألوفة؟ ورقة لي. ستجلب لي كلماتك التي لاتنتهي. وإذا

تخلّيت عن عاداتك في يومٍ من الأيام، وحركت أعضاءك، ولم تجد ماتقوله حينئذ لَن تصبح بعيداً عني، بعيداً عن الحب.

اصغِ إليّ: سأحفر حفرةً في أعماق الأرض، وسأمكث داخلها وسأناديك لأبوح لك بسرٍ عظيم وجميل. عند ذلك، إذا استطعت، فستلتحق بي. وعليك أنت أن تحفر حفرتك على أن تكون بعمق حفرتي.

أتسمعني؟ لماذا اتخذت محطةً وتوقفت في هذه المدّة التي تغلّفني وتعيقني؟ لقد تكلّمت أكثر مما ينبغي. ولم أعد أعرف ماذا أقول. وأشعر بأني مثل سلّة، سلّة فارغة.

مازالت هنالك كلمة أخرى: لكثرة ماملأتَ حياتك وجسدك بالشخصيات التي تختلقها لكي تكتب، فقد فقدت بشرة وتراب جسدك. وربما كنت تعيش في عالم تلك الشخصيات، ولكنّك لاتعيش حياتك الخاصة بك. أنا أعيش عنك وبدلاً منك، وهذا عمل متعب. وجسدك، ربما يكون عليك أن تذهب لتبحث عنه في إحدى المكتبات التي يعلو رفوفها الغبار، ويمكن أن تجده عند ذلك، بارداً، محصوراً بين مجلدين ضخمين من مجلدات إحدى الموسوعات!

لقد وصلت البارحة، وأشعر منذ الآن بالرغبة في السفر من جديد. الصمت يزداد ثقلاً ووطأة. أحاول أن أنام ولكني أفكر باليوم الذي سيصبح فيه هذا البيت خالياً، والحديقة مهجورة، وأوراق نباتاتها وأشجارها صفراء ويابسة، عندما تأتي أيدٍ غريبة تقطع الشجرة. أرى الغرف مقفرة عندما أمر بها الواحدة تلو الأخرى والأغراض مكدّسة في إحدى الزوايا، السجادة ملفوفة وملقاة بشكل منحرف، والستائر منتزعة أو ممزقة. ويعبر تفكيري الممر فينتابني

شعور بالخجل والخوف. كيف أجرؤ على التفكير بهذا المكان المحروم من الحياة؟ إنَّ في القلق شيء من الانحراف.

لماذا أتيت ووضعت رأسي على وسادة رطبة ومبلّلة؟ ولماذا سرت في الطريق البارد والمظلم المؤدي إلى منفى جديد؟ الشتاء يغلّف روح هذه المدينة بطبقة سميكة من التراب الرمادي. وهكذا فإنّ «طنجة» تستسلم إلى الليل وإلى الظلام، وكأنها بذلك تعمل على إغواء الموت واجتذابه.

العودة إلى الموطن، إلى البيت، والموت هناك.

وأنا لاأكفّ عن العودة إلى موطني، إلى بيت أهلي، كيلا أموت. وأشتاق إلى بلادي وأحنّ إليها أينما ذهبت وعندما أعود إليها، لا أفعل شيئاً سوى السير في طريق الشتاء الطويل، باحثاً عن منفذ في المتاهة، عن باب يؤدّي إلى حيزٍ عارٍ، أبيض، في منأى عن الفكر والذكرى.

لابدّ أن لديّ قليلاً من التراب في رئتي. وهذا مايجعلني أعيش ويجعل تنفسي عسيراً. والبلد التي أعرفها، وتلك التي أتعرّف عليها تستلقيان في جسمي بحنانٍ غير متساوٍ. الجبال تُخيفني، والسهول تحيرني، والأشجار تسحرني، أما النور فيذكّرني بالأرض ويستدعيني إليها. يحدث أنّ الرجال الذين لاأرض لهم يهبطون إلى الشوارع والجادات الكبيرة، يتقدمهم بعض الأطفال، ويموتون بطلقات العيارات النارية. والبلاد هي هكذا، إنها على صورة تلك الأحياء الفقيرة المكونة بيوتها من أكواخ التنك يشقها إلى نصفين طريقٌ عريض للسيارات. وأولئك الرجال والنسوة الذين يتعرضون للضرب والتعذيب، رغم بؤسهم، يستمرون في الذهاب من حيّ ذي أكواخ تنكية إلى حي آخر مثله، مارّين بالمباني الإسمنتية، تاركين أحياناً أجسامهم المهشمة على قارعة الطريق كما لو كانوا كلاباً تعرّضت للدهس.

لابدّ أنّ القدر قد استخدم كثيراً من حُصر الصلاة، التي كُدّست عليها تلك الأجساد الجائعة، التي كانت قد غادرت الواحد تلو الآخر الأرض القاحلة لكي تأتي لتتسوّل أي شيء عند مدخل المدينة الكبرى. والقدر هو السماء البخيلة، ورجالٌ تحت رحمة رجال آخرين.

أجلس إلى منضدتي قبالة النافذة الكبيرة. وألمح من خلال الأغصان والأوراق جدار الزقاق. وعلى هذا الجدار رسم الأولاد الحرب بقطعةٍ من الفحم. طائرة تلقي بعض الرجال. الأرض فيها كثير من الحفر. أجسادٌ ملقاة كيفما اتفق وطيور تحلق فوقها. وبجانب هذا الرسم رسم آخر، يحتمل أن يكون رسمه الأولاد نفسهم الذين رسموا الرسم الأول، يمثل جسماً بلا ذراعين ولاساقين، وله عضو تناسلي ضخم، وقد كتبت تحته هذه العبارة: (وهي تتضمن بعض الأخطاء الإملائية) «الحب أفعى تندسّ بين الفخذين»!

جلسنا إلى المائدة، أخذ أبي يتناول طعامه صامتاً. أمي تنظر إليّ. وفجأة أخذ نسمع في الشارع: «مهبل أمك!» «أحشائي وخصيتاي، ستار على عينيك!» «أنت تسلّم مؤخّرتك وأنا لاأريدها!» «خذ، أمسك هذا!» فأتظاهر بأني لاأسمع شيئاً. نهض أبي وأغلق النافذة. وأمي فتحت الراديو. أما أنا فقد ابتسمت.

وفي «فاس» عندما كانت تحدث مشاجرة، كانوا يختارونني كحكم وقاضٍ، بسبب كَوْني طفلاً مريضاً ماأزال هشاً. كنت أُحصي النقاط وأعدّها وأفضّل بين المتخاصمين وأبعدهم عن بعضهم. وفي ذلك الوقت كانت تنهال الشتائم. وكانوا يتبارون في زيادتها وفي شدّة عنفها وبذاءتها. كنت أحب أن أردد بأعلى صوتي في الشارع الخالي من المارة جميع الشتائم التي يختلط فيها الجنس، الدين والأهل.

ومازال يحدث لي أن أفكر بـ «فاس» كمن يفكر بقريبٍ له رحل عن هذا العالم. وهذا، حتى ليس عبارة عن ذكرى، عن نوع من القضاء والقدر، أو صورة محاها الزمن. فالمدينة انتقلت من مكانها. وبقيت مقبرة «باب الفتوح» التي تمرّ بها ظلال أشخاصٍ باحثةً عن قبرٍ مجهول. تضع عليه غصناً من الغار وتتلو سورةً من القرآن الكريم.

XVI

لكم أودّ أن أصبح بعد موتي بحراً شديد الزرقة يتحرك ويستقر في وسط الصحراء، أن يأتي الناس فيعيشون حول هذا البحر الشديد الزرقة، وأن يعيشوا ويجعلوا هذا البحر يعيش. ولمجرّد التفكير بهذا أشعر بفرحٍ شديد!

كانت قد همست بهذه الرغبة في أذني بعد صمتٍ طويل، وقت متابعة هبوط الشمس البطيء في الخط البنفسجي والأحمر المرسوم على بحر جزيرة «كريت». كان مرفأ «خانيا» الصغير هادئاً يخلد للراحة، مقفراً. الخريف في آخر أيامه. والمقاهي، الحانات والمطاعم التي يؤمها السياح خالية من الروّاد تبدو حزينة. والمدينة تنزوي هكذا أثناء هذا الفصل كي تخلو إلى نفسها، لتغتسل وتتخلّص من بعض الذكريات السيئة.

ذهبت بمفردي للقيام بجولةٍ. رأيت كثيراً من البيوت التي يسمونها: «البيوت الصيفية» وقد بدت مهجورة، مغلقة على خفايا وأسرار لايريد أحدٌ منها شيئاً. فكّرت ثانية بذلك الغياب الذي كثيراً مايلومونني عليه. ربما يمكن أن أكون أحد هذه البيوت التي أُغلقت نوافذها.

كنت قد قمت بهذه الرحلة من أجل مزيدٍ من الفهم. والحال هي أنّ الحب نعمةٌ تشوبها أحياناً طبقة من الظلمات. كان بيننا أمواج، بحار من الكلام وفترات الصمت. وكنت دائماً على الدرجة نفسها من الشك والحيرة والقلق. وإني لأشعر هذه المرة أكثر من المرات الأخرى أنّ طريقتي في الحب مثيرة للحنق والغيظ، فهي تثير ردود فعل عدائية بل وعدوانية أيضاً، وتشوّش الإيقاع، وتعاكس الرغبة بالانسجام وتقضي عليها. ومع ذلك لاأفعل شيئاً لإصلاحها. وقد قالت لي: «إنّ براءتك فيها شيء معيب وفاضح تماماً!».

أنا أملأ كتباً وأُفرغ جسمي. وعندما أمشي أشعر أحياناً أنّ أفكاري تتقدمني وتسبقني، أنحني إلى الأمام كما لو أن هنالك حبلاً يسحبني. ولذلك لاأبدو متماسكاً ولاأستقيم كما يجب. وفي بعض الأحيان أصبح فكرة، أسير في الشارع، ناسياً جسدي ورائي وقد أصبح شبحاً، بل ظلّاً، أخذ يتلاشى ببطء، فأتوقّف وأراقبه، وأنظر إليه وهو يتلاشى ويزول، متحولاً من حالة إلى أخرى، من وجود لايكاد يدرك، إلى غياب، وإلى شفافية.

هذه المراوحة والذهاب والإياب بيني وبين الآخر هي أساس ومنشآ آلامي: أوجاع الرأس والقلب، التعب، الدوخة والدوّار.

كنت تائهاً في هذه الدوّامة ـ لابد أنها كانت الوحدة والعزلة ـ عندما استقر جسمي في مكانٍ معين واستولى عليه وسواس وفكرة ثابتة لازمته: يوجد تحت ثديي الأيسر كتلة صغيرة. كنت أتلمّسها فأشعر بالعرق يتصبب على جسمي والذعر يستولي عليه. لم يعد هنالك أي شك: لقد عدت إلى جسدي، إلى هذا المسكن الذي هجرته زمناً طويلاً. وقد نجح الخوف بجعل الموت يستقرّ في عينيّ. وأخذت نظرتي تتجاوز الأفق. كنت أرى الناس حولي يعيشون، وأراهم بخاصة كيف يتضاحكون. امتلأ رأسي فجأة بذلك المستقبل الذي لم أعد أستطيع الاعتماد عليه. وأقسى مافي الأمر كان ذلك التحول المفاجئ في إدراك وتبينّ الوقت. لم يكن للحيز أو المكان أهمية

كانت تلك فترة سعيدة وصاخبة. نسيت خلالها المرض بسرعة وهو خطأ نتج عن مزيد من القلق، وأدركت بأنه قد حان الوقت لوضع حدٍّ لضياع وتشرد الأجساد.

عند استيقاظي صباح هذا اليوم، أخذت أفكّر من جديد بموضوع انفعال وقلق الشاعر الذي يتساءل «فيما إذا كنا سنستطيع التعرف على الحياة (....) وفيما إذا كان قد بقي في مكانٍ ما مرآة للنجدة/ نكفّ عن رؤية أنفسنا فيها أخيراً/ وحيث يمكن أن نرى فيها ماهو أبعد من ذاتنا».

ربما كان من أجل هذا أني عدت إلى البيت لأشاهد مايجري فيه على إيقاع العادة البطيء والمحدّد، من أعمال تقليدية لانهاية لها، لحياة هادئة ووديعة تشغلها الأعمال المنزلية اليومية وحبّ الولد الذي لايستخدم الوقت أبداً ليجلس على ضفة النهر الذي يجرف أيدٍ مفتوحة ذات خطوط منظورة تقول بأنّ السعادة موجودة في أيدٍ أخرى.

أحاول أن أكون موجوداً في هذا البيت العائلي الذي لايحدث فيه شيء. نسمع صخب وضجيج المدينة. ونخلط بينها وبين صخب الأمواج. أُصبت بالجمود. جسدي ملقى ومسمّر، ربطته أيدٍ أحسّها ولكني لاأراها. لقد وُضع على بطني حمار نائم، عينه مفتوحة، بوزه مفتوح. حاولت دفعه عني. إنه ميت. تفوح منه رائحة كريهة. إني أختنق. أريد أن أصرخ. لايخرج أي صوت من فمي. أوقف تنفسّي أطول وقت ممكن. يداي متجلدتان، جبيني حار ونظرتي مشوّشة. الحمار ينزلق ببطء ويسقط على السرير. أشعر أني خفيف. أحاول النهوض، ولكن كأنّ هنالك حبالاً تشد وثاقي وتقيّد حركتي. أخذت أتنفس بشكل أفضل. موجة عالية تغمرني. أشرب من ماء البحر المالح. أهبط إلى القاع. أتوضّع كشيء ثقيل على أحجار متبلورة وأشنيّات. أصعد إلى سطح الماء فتقذفني موجة أخرى على الرمال.

كانت تلك فترة سعيدة وصاخبة. نسيت خلالها المرض بسرعة وهو خطأ نتج عن مزيد من القلق، وأدركت بأنه قد حان الوقت لوضع حدٍّ لضياع وتشرد الأجساد.

عند استيقاظي صباح هذا اليوم، أخذت أفكّر من جديد بموضوع انفعال وقلق الشاعر الذي يتساءل «فيما إذا كنا سنستطيع التعرف على الحياة (....) وفيما إذا كان قد بقي في مكانٍ ما مرآة للنجدة/ نكفّ عن رؤية أنفسنا فيها أخيراً/ وحيث يمكن أن نرى فيها ماهو أبعد من ذاتنا».

ربما كان من أجل هذا أني عدت إلى البيت لأشاهد مايجري فيه على إيقاع العادة البطيء والمحدّد، من أعمال تقليدية لانهاية لها، لحياة هادئة ووديعة تشغلها الأعمال المنزلية اليومية وحبّ الولد الذي لايستخدم الوقت أبداً ليجلس على ضفة النهر الذي يجرف أيدٍ مفتوحة ذات خطوط منظورة تقول بأنّ السعادة موجودة في أيدٍ أخرى.

أحاول أن أكون موجوداً في هذا البيت العائلي الذي لايحدث فيه شيء. نسمع صخب وضجيج المدينة. ونخلط بينها وبين صخب الأمواج. أُصبت بالجمود. جسدي ملقى ومسمّر، ربطتْه أيدٍ أحسّها ولكني لاأراها. لقد وُضع على بطني حمار نائم، عينه مفتوحة، بوزه مفتوح. حاولت دفعه عني. إنه ميت. تفوح منه رائحة كريهة. إني أختنق. أريد أن أصرخ. لايخرج أي صوت من فمي. أوقف تنفسّي أطول وقت ممكن. يداي متجلدتان، جبيني حار ونظرتي مشوّشة. الحمار ينزلق ببطء ويسقط على السرير. أشعر أني خفيف. أحاول النهوض، ولكن كأنّ هنالك حبالاً تشد وثاقي وتقيّد حركتي. أخذت أتنفس بشكل أفضل. موجة عالية تغمرني. أشرب من ماء البحر المالح. أهبط إلى القاع. أتوضّع كشيء ثقيل على أحجار متبلورة وأشنيّات. أصعد إلى سطح الماء فتقذفني موجة أخرى على الرمال.

أنهض ثانية، وثيابي تلتصق بجسدي. وعندما أخذت أمشي، كدت أسقط عدة مرات. الشاطئ مقفر. والسماء تغطيها الغيوم السوداء المنخفضة، فيبدو الأفق قريباً جداً. أجلس على أحد المقاعد بجوار امرأة شابة. عرفت يديها ولكني لم أعرف وجهها. أشارت لي بأن أتبعها. سرت بجانبها في شوارع «طنجة» الخالية من المارّة. مايزال الجميع نائمين. عمال المرفأ وحوض السفن وحدهم، الذين مايزال النعاس يساور أجسامهم يدخلون إلى الميناء. اجتزنا ساحة «سوكّو» الصغرى، شارع «الصياغين» وساحة «سوكّو» الكبرى، شارع الحرية وميدان فرنسا، سوق البقر، سيدي «بخاري»، «أولاد ليحود». مررنا بأحد الحقول، ثم سرنا في درب ضيق، وبعد ذلك دخلنا إلى كوخ صغير يقع في آخر مقبرة الكلاب. نزعت المرأة عني ملابسي وأعطتني جلابية صوفية بنية اللون. حضّرت الشاي وقليلاً من «المعجون». شربنا وأكلنا المعكرونة عبر الضحك والهرب من المشاكل والهموم. لم نكن نتكلم مع بعضنا. تغيّر وجهها، أصبح من السهل معرفته. ربما حدث ذلك بتأثير «المعجون». ضحكتُ. تعابير وجهها صارمة. شعرت بأني وقعت بين أيدٍ مألوفة، أيدي ماضٍ غير بعيد جداً. أصبحتُ كمن تعرض للوقوع في فخ نُصب له. أعتقد بأنه يجب عليّ أن أتكلّم وأقول شيئاً ما، بل وربما تقديم بعض الحسابات. ولاحظتْ أمارات القلق على وجهي فقررتْ أن تتكلم. وأثّر بي صوتها الهادئ وآلمني كثيراً. إنها لم تتغير. فهي تتكلم ببطء وهدوء. إنها تغني أو تهمس همساً. قالت لي وهي تضع يدها على كتفي: «إني مازلت تلك التي تفارقك ثم تعود. إني أعرفك جيداً. لقد تعاملت معك بأساليب الحبّ. لقد ذهبت أبحث عنك في منعطفات حلم أو كابوس، لم أعد أعرف. وقد مرّ الوقت ولم يتغيّر شيء. أنت سافرت. وكتبت. وعواطفي مازال يعتريها التشويش والاضطراب نفسه، والغموض السابق ذاته. وغالباً مارحلت بعيداً عن جسدي. والتقيت به ثانيةً خلال زمن ساده حبّ مشبوب دمره الزواج. المسْ نهديّ: إنهما ثقيلان وصلبان كما كانا في أول يوم التقينا فيه في المقبرة. لقد توفى أبي والتقيت من جديد بأمي، إنها تعيش وحيدة في بيت صغير في حي «المدينة». مازلتُ أكتب وأشرف على

جريدتي. وفي المدرسة الثانوية أَعلّمُ الشعر للفتيان، بل إني أعلمهم حبّ الشعر، والولع بالخفايا والأعاجيب والأسرار، وأقرأ لهم صفحات مما كتبه المتصوّف «ابن عربي» وحتى مما كتبه «الحلاّج» أيضاً، فيحدقون بي بعيون واسعة. فهذا هو ملاذي وملجئي. أحضر إليه مع نسوة أخرى للتأمل والنسيان. يبدو أنك رويت حكايتنا. أعتقد أنّ هذا خطأ. فالحكايات الجميلة لاتذاع ولاتنشر، بل يجب أن تبقى محاطة بالسرية التامة. ربما لم يكن حبنا حكاية جميلة. في الوقت الحاضر لم يعد أحد يتذكّرنا سوى الأموات وحدهم الذين يرقدون في المقبرة التي كنا نتعانق ونتبادل القبل فيها... إيه! لقد طلع النهار. يجب أن أنصرف. أرافقك في العودة إلى حيّكم. وسيكون هذا، دون شك، حلماً أقل إثارة للقلق والاضطراب».

وغنّت قبل أن تغادر الكوخ. صوتها مؤثر جداً. فقد طفرت الدموع من عينيّ. خطيبتي الأولى ماتزال على الدوام جميلة، ساحرة وغريبة الأطوار. وبشرتها الناعمة، الكامدة جداً، تظل حارة. وعيناها السوداوان تطفحان بكآبة لانهاية لها. وعندما وصلنا إلى شارع «فاس» قالت لي: «الوداع يا صديقي! سوف نلتقي على ضفّةٍ أخرى. ابق بخير واكتب، اكتب أشياء جميلة، تكون أجمل من الحياة. وإذا لم تستطع احضرْ لتراني فسأروي لك قصتنا، وأغنّي لك حبّنا...»

وهكذا! نقلب صفحة كما نرفع حجراً. ومانكتشفه نادراً مايكون شيئاً غريباً. فالخوف هو الذي يضفي جمالاً على اللُّقى عندما تكون مكوّنة من فترات صمت طويلة وتختلط مع الحالات النفسية لمدينة اغتُصبتْ منها أحلامها.

أشتاق إلى البلاد، وأشعر بالحنين إليها أينما ذهبت.

أصعد على رابية وألقي نظرةً على المدى البعيد فيبهرني نور ساطع ومفاجئ. وما أراه أبيض اللون، عارٍ وكل مافيه متشابه.

أسطحة متلاصقة ومتوالية إلى مالانهاية. غسيل أبيض يجفّ على الحبال. امرأة ترتدي فستاناً مفتوحاً من الأمام تجتاز ببطءٍ أحد الأسطحة، وصبي صغير يركض نحوها ويحشر نفسه بين ساقيها، واضعاً رأسه على أسفل بطنها، والمرأة تداعب له شعره.

البلاد تختفي تحت هذه الأسطحة المبيّضة بالكلس. البلاد أو الذاكرة. مسقط الرأس والعودة.

تقع تلك الرابية في أعلى الجبل القديم في «طنجة» والأسطحة التي أراها هي أسطحة مدينة «فاس». وأظنّ أنّ المرأة التي رأيتها قبل قليل هي «لوبابا». فقد عرفتها من طريقتها في المشي. لقد اختلطت مدينة بمدينة أخرى. وتراكمت بعض الصور فوق بعضها. مطمح واحد يلازمني: أنا لاأخلط إلاّ بين ما أحب. ولاأحلم إلاّ بما ينقصني وأشتاق إليه. وفي لحظات التشويش، تشويش الرؤية والذكرى أنطق ببعض الآيات باللغة العربية، جملٌ تتجمع في أبجدية أخرى على الصفحة. وهاك إنّ منظراً بعيداً مكوّناً من أسطحةٍ رمادية يختلط بهذه الرؤية. يعزله عنها ضوء الغسق.

جلست على شرفة ذلك «المقهى البلدي» في أعلى المدينة، أخذت أمعن النظر لكي أتبينّ جيداً تلك الصور. مازالت الأسطحة هناك في مكانها. تمرُّ الآن وجوه، تتجمّع، تختفي ثم تعود. وجه المحبوبة على جبهةٍ من ضباب، كالوطن المتغيّر، البلاد التائهة، اليد الموضوعة على فم المرآة المجهولة لكي تكتم أحد الأسرار، جسدٌ يضم نفسه، وذاك الصوت الذي يردّد أغنية رتيبة من أغاني الطفولة، قطعه النداء إلى صلاة المغرب وقد أطلقه صاحب المقهى من أعلى الشرفة. أُزيلت الطاولات والكراسي ومدّت الحُصر والبُسط. اصطفّ الرجال وأخذوا يُصلّون. لم أتحرك عن الكرسي الذي أجلس عليه وبقيت أنظر إلى المدينة. غامَتْ جميع صوري، وامّحت بناءً على رغبة المؤذن وإرادته. وُضعتْ يدٌ على ظهري. رجل مايزال شاباً أومأ لي برأسه أن أنضم إلى صف المصلّين. التفتّ وأشرت له إلى طبقة الضباب التي تغلّف المدينة. فتراجع خائباً وتركني وشأني.

وسوف تأتي صور جديدة لتستولي عليّ عبر تخيلات وأوهام رحلتها. الأسطحة أصبحت الآن غرقى. والتلال توضّعت في القاع كما لو كانت تذكّر بأنّ تحت الطبقة البيضاء توجد المدينة والذكريات.

أين أنا عصر ذلك اليوم من أيام الشتاء؟

أي طريق أسلك كي أعود إلى بيتنا؟

هل أنا في «فاس» في العصر الذي كان فيه للمدينة أبواب في أسوارها العالية، وحين كان الحارس الليلي، حارس الأسوار، ـ وهو معلم فاخوري ـ يغلق تلك الأبواب الواحد بعد الآخر، ويحتفظ بمفاتيحها بحرصٍ شديد؟

هل أنا في «طنجة» في العصر الذي كانت تحتلّها فيه أمم عدة، جاعلةً منها ممراً معروفاً لقطّاع الطرق واللصوص، مكاناً للألغاز والقمار وللتجارة بالأرواح وبالأجساد؟

هل أنا في «كسيوس»، تلك الجزيرة التي أعرف ألوانها، ضياءها وتاريخها، تلك الجزيرة التي رأيتها في العينين الناعستين للمرأة التي أحبها، «كسيوس» ذات الذاكرة المدعوكة، المغلقة على كنوزها وعلى ميتاتها العنيفة؟

هل أنا في بيروت، قبل الحروب تماماً، في الوقت الذي كانت تستيقظ فيه المدينة قبل شروق الشمس لكي تكتسي بالسحر وتقدّم لأبنائها سماءً ملونة يتدلّى منها معطف اخترقته ومزّقته الطلقات النارية؟

هل أنا في «المدينة المنورة» بعد رحيل جميع الحجّاج؟

أنا في ظلام الليل، ولم أعد أعرف طريقي. أعرف أنّ عليّ أن أنزل درجاً أو منحدراً، ولكني لاأرى شيئاً. أنا بردان. المقهى أغلق أبوابه. لم يعد أحد يمرّ من هنا. أنا وحدي، بمفردي، محاط

بالظلمات ولست حزيناً. وقد عدت كما كنت في سنواتي الأولى التي أقعدني المرض أثناءها في «السَّبَث». أستطيع أن أحلم الآن وأستدعي في أي وقت الصور الجنونية والجميلة لكي أتهرّب لبعض الوقت من الألم ومن اقتراب الموت. سأمضي هذه الليلة على هذا الكرسي دون أن أغمض عينيّ، ودون أن أستغيث وأطلب النجدة. سأنتظر، مقيّداً إلى ذاتي، متخلصاً من ظلّي، بوجه أعرفه ينعم بالسكينة والصفاء وقلب متصالح مع البلاد الداخلية، مع الأرض التي تتنفّس، تعيش وتتقدم. سأنتظر إلى أن يبدو مع الفجر وجه المحبوبة، الوحيد الذي يمكنه إعادتي إلى موطني، إلى بيتنا، من كل مكان دفّأت فيه حجارة الجزيرة قَدَميَّ الحافيتين، من كل مكان يكذّب فيه ذلك الوجه اليأسَ من العيش، وعلى يديه تولد نجوم الصباح.

خانيا ـ طنجة ـ باريس

كانون الأول 1981

كانون الأول 1982